

# نساء صغيرات

٤

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية  
القاهرة

الطبعة الأولى : سنة ١٩٥٧

الطبعة الثانية : سنة ١٩٦٨

الطبعة الثالثة : سنة ١٩٨٣

# نساء صغيرات

٤

تأليف

لويزا م. ألكوت

ترجمة

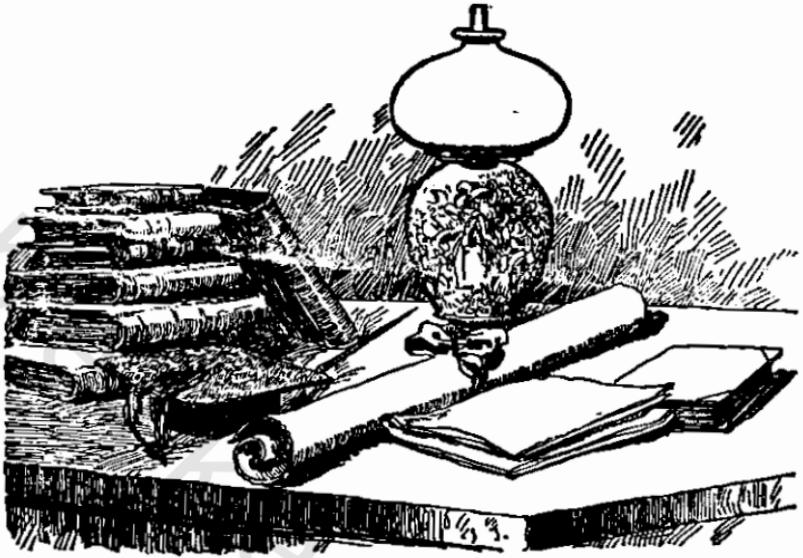
أمينة السعيد



دارالمعارف

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت الجمعية  
المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بشراء حق  
الترجمة من صاحب هذا الحق.

**This is a translation of chapters XXXV to XLVII from  
Little Women by Louisa M. Alcott. Copyright, 1947,  
Grosset and Dunlap.**



## الفصل الخامس والثلاثون

### آلام قلب

لأمر ما عكف لورى على دروسه يستذكرها فى ذلك العام .  
ومهما تكن الأسباب التى جعلته يحرص على السبق ، فقد استطاع بفضل  
هذا الحرص أن يتخرج فى الكلية ، ويحصل فى امتحانه على مرتبة الشرف ،  
كما ألقى خطاب التخرج باللغة اللاتينية فى فصاحة ديموستينيس ورشاقة  
فيلبس . وشهد حفل التخرج جده ومستر ومسز مارش ، وجون وميج  
وجو وبث ، وكان جده شديد الفخر به ، كما ابتهج جميعهم بما حقق من  
نجاح وكانت فرحتهم به صادرة عن شعور عميق صادق ، قد لا يقدره الأولاد

في حينه حق التقدير ، ولكنهم لا يلقون مثله بعد ذلك في حياتهم مهما بلغت انتصاراتهم ، فليس هناك أعظم ولا أصدق من التقدير الذي ناله لنجاحنا في الصغر .

وعندما انتهى الحفل خرج لورى يودع الأخوات ويرافقهن حتى العربية ، قال :

— سأبقى الليلة هنا لأحضر وليمة العشاء ، وغداً أعود إلى البيت مبكراً ، فأجدكن في انتظاري كالمعتاد ، أليس كذلك يابنات ؟

ورغم أنه اختار أن يتوجه بالحديث إلى الأخوات جميعهن ، إلا أنه كان يعنى جو وحدها ، فهي التي ظلت محافظة على عهدتها القديم ، ولم تجسر يوماً على رفض طلب لفتاها الفائز العظيم ، فأجابت بجرارة تقول :

— سأكون بانتظارك ياتيدى ، سواء أمطرت السماء أم أشرقت الشمس ، وسأسير أمامك أعزف على القيثارة أنشودة النصر التي تقول :

« هاهوذا البطل قد عاد . . مرحباً بالظافر العظيم » .

وشكرها لورى بنظرة ارتاعت لها ، فقد خيل إليها أنه موثك على الإفضاء إليها بأمر نخشاه ، فقالت تحدث نفسها : « يا إلهي ! إنه سيتكلم ، فكيف أتصرف ياترى إذا ما فعل !؟ »

ولكن تأملات المساء لم تلبث أن بددت بعض مخاوفها ، ثم جاءتها أعمال الصباح التالي بمزيد من الطمأنينة ، فقالت تحدث نفسها مرة أخرى : « يجب ألا يأخذنى الغرور فأظن أنه سيفتحنى في أمر

الزواج ، بعد ما أظهرت له ما ينم عن نفورى من ذلك . «  
 وخرجت للقائه فى الموعد المحدد ، وهى ترجو ألا يقدم على  
 مفاحتها فى شىء ، حتى لا تضطر إلى الرفض فتجرح شعوره المرهف .  
 وتوقفت فى طريقها ببيت ميج ، وغرضها أن تقضى بعض الوقت فى مداعبة  
 الصغيرين ديزى وديميجون ، فتروح بذلك عن نفسها ، وتقوى عزيمتها  
 على مجابهة الخطر الذى تتوقعه عند ما يأتى لورى وينفرد بها ، ولكن ما إن  
 رأته قادماً من بعيد بقامته الفارعة وخطواته المسرعة ، حتى تملكها رغبة  
 قوية فى أن تولى الأدبار عائدة إلى البيت .

وصاح بها لورى ، حين أصبح على مسمع منها قائلاً :

— أين القيثارة يا جو؟

واستردت جو هدوءها ، وقد رأت أن هذه التحية لا يمكن أن تم عن

الغرام ، فقالت :

— نسيته !

وكان من عادة جو أن تتأبط ذراعه فى مثل هذه المناسبات ، ولكنها  
 لم تفعل ذلك الآن . ولم يجتج لورى ولم يلح عليها ، فرأت فى تحفظه بادرة  
 سيئة . وراح لورى يتحدث إليها فى مسائل كثيرة متباينة ، وكان يتكلم  
 بسرعة غير معتادة ، وعندما عرجا من الطريق الرئيسى إلى المر الضيق  
 المؤدى إلى البيت ، تمهل فى مشيته ، ثم تلعم فى حديثه وخانته فصاحته ،  
 فراح يتوقف بين الفينة والفينة ، توقفاً ينم عن قلقه وعصبيته . ونهضت جو

إلى إنقاذ الموقف تخلصاً من هذا الصمت الذي تكرر وقوعه ، فقالت  
تصل ما انقطع من الحديث :

— من حَقَّك الآن أن تتمتع بعطلة طويلة طيبة .

قال :

— وهذا ما أنوى أن أفعله .

وكان في لهجته عزم وتصميم جعلها ترفع رأسها بسرعة لتنظر في  
وجهه ، فإذا بعينها تلتقيان بعينه ، وكانت فيهما نظرة أدركت منها أن  
اللحظة التي تخشاها قد حانت ، فمدت يدها نحوه مدعورة ، وقالت في  
توسل ورجاء :

— لا . . لا يا تيدى . لا تتكلم . . أرجوك !

قال بمزيد من الانفعال وقد تخضب وجهه حياء :

— لا فائدة من التهرب ، فيجب أن أتكلم ، وعليك أن تسمعي .

لم يعد بداً من أن نعبر عما بنفوسنا ، وكلما أسرعنا بالتصريح كان ذلك  
خيراً لنا .

وغلبت جَوُّ على أمرها ، فقالت في حلم وصبر :

— قل ما تشاء ، فكلى آذان صاغية .

وكان الهوى قد ملك لب لورى الفتى الحازم ، وكان قد جمع أمره على  
أن يصارحها بحبه ولو استشهد في سبيل ذلك ، فانطلق يفضي لها بما في  
قلبه ، وبالرغم من الجهود التي بذلها في الاحتفاظ بشبته ورباطة جأشه ،

كان صوته يخونه من وقت لآخر . قال :

— لقد أحببتك يا چو منذ عرفتك ، ولا حيلة لى فى ذلك ، فقد كنت طيبة معى رفيقة بى . وكم حاولت فيما مضى أن أكشف لك عن قلبى ، فكنت فى كل مرة تتحايلين على إسكاتى ؛ أما الآن فلا بد أن أسمعك نجواى وأبئك هواى ، ولا بد أيضاً أن أسمع إجابتك ، وأعرف صدى حبي فى نفسك ، فقد فرغ صبرى وفاضت أشجانى .

قالت چو ، وقد بدت لها فرصة الخلاص من الموقف أعسر مما كانت تتوقع :

— ظننت أنك تعرف رأى فى ذلك ، وكنت أرجو أن توفر مشقة مثل هذا الموقف .

قال يدافع عن نفسه :

— وأنسى لى أن أعرف رأيك ؟ إن الفتيات لغز محيرٌ : يقلن « لا » وهن يعنين « نعم » ، ويخرجن الرجال عن صوابهم لمجرد الاستمتاع بمثل هذا الموقف . . .

قالت :

— ولكنى ما قصدت شيئاً غير ما أقول ، وما رغبت يوماً أن تقع فى حبي إلى هذا الحد ، ولقد حاولت من قبل أن أشفيك من هذا الحب إن أمكن ، فرحلت عنك وغبت غيبة طويلة .

قال :

— هذا ما أدركته في حينه ، ولم يدهشني تصرفك ، ولكن البعد الذي أردت به شفائي زادني حباً على حب ، وحفزني إلى مضاعفة جهودي لأرضيك ، لقد هجرت لعبة البليارد ، وأقلعت عن كل ماتكرهين ، وانتظرت صابراً أن تمنحني قلبك ، ولو أني لست جديراً بك .

وغلبتها عاطفته فاختنقت الكلمات في حلقه وتوقفت . وراح يتنحج بشدة ليعيد إلى صوته صفاءه العادي ، فقالت جو :

— أنت أعظم مني ، وأكثر مما أستحق ، وإني لشاكرة لك ، فعخور بك ، معتزة بشخصك ؛ ولكني لا أستطيع أن أمنحك الحب الذي تريده ، ولست أرى سبباً لذلك ، وكم حاولت أن أغير قلبي فأخفقت ، ولن يرضيك أن أكذبك القول فأدعي شعوراً لا أحس به .

فحملق لورى في وجهها ، وأمسك بيديها ، وشخص إليها وفي عينيه نظرة لم تستطع جو أن تنساها قبل مضي وقت طويل ، ثم قال :

— أحقاً؟! أصدقاُ ما أسمعه يا جو؟! !

أجابت :

— نعم ، كل الحق ومنتهى الصدق يا عزيزي .  
وكانا قد بلغا في سيرهما الحوش القريب من البيت . فما كادت جو تنهى من كلماتها هذه ، حتى ترك الفتى يديها تفلت من بين يديه ، واستدار كمن يهم بالرحيل ، ولكنه لأول مرة في حياته ، أحس أن سور الحديقة عقبة لا يستطيع اجتيازها ، فمال نحو أحد الأعمدة واستند برأسه

عليه ، ووقف هكذا صامتاً واجماً . وجزعت جو لألمه البالغ ، وأخذت ترتب على كتفه مهدئة ، وقد تذكرت كيف كان هو يهدى روعها فيما مضى .

وصاحت في لهجة من غلبها الألم وتأنيب الضمير :

— إني آسفة ياتيدى . . . آسفة كل الأسف . . . حياتى فداؤك إن كان فيها خير لك . ليتك لا تأخذ الأمور بمثل هذه الحدة . . . ما حيلتى فى كل هذا ، وأنت تعلم أن الحب يأتي طواعية لا قسراً ؟ الحب لا يكون حباً إلا إذا نبع من أعماق القلوب .

فصاح لورى من جانب العمود يقول بصوت مبسوح :

— قد يأتي الحب إذا حملت نفسك عليه .

أجابت جوفى حزم :

— لا أظن أن هذا الضرب من الحب أصيل ، ولست على استعداد

لتجربته .

ولزم الاثنان الصمت ، وراى عليهما سكوت شامل لم يلبث أن قطعه تغريد عصفور فوق الشجرة القريبة من النهر ، وتلاه صوت الريح وهى تجر ذيوها فوق الحشائش الطويلة ، وعندئذ قالت جو فى رزانه وهى تجلس على عارضة خشبية :

— اسمع يالورى . أريد أن أحدثك بأمر .

وانتفض كمن أصابته رصاصه ، ورفع رأسه يصيح بها وفى صوته عنف :

— لا تحدثيني به يا چو ، فلن أحتمله .

قالت وهي تعجب من العنف الذى اعتراه فجأة :

— وبماذا تظن أننى سأحدثك ؟

قال :

— بأنك تحمين ذلك العجوز !

قالت تسأله ، وقد ظنته يعنى مستر لورنس العجوز :

— أى عجوز ؟

قال :

— ذلك الأستاذ المجنون الذى كنت تكثرين الكتابة عنه ! إذا قالت

إنك تحبينه ، فثقى أن اليأس سيدفعنى إلى عمل خطير !

وكان فى لهجته ما يوحى بأنه جاد فيما يقول ، والتمعت عيناه وتشنجت

قبضته ، بشكل يدعو إلى القلق ، ولكن الخبر كان مفاجأة كادت معها

چو تطلق ضحكة عالية ، غير أنها أمسكت عن ذلك وقالت بحرارة ،

وقد سرى الانفعال إليها بدورها :

— بالله لا تمنع فى تهديدك ياتيدى ، فهو ليس عجوزاً ولا شريراً ،

إنه رجل طيب عطوف ، وأنا أعتبره أحسن أصدقائى بعدك ، وسأغضب

إذا مضيت فى إهانة أستاذى ، فخل عنك ، واطمئن إلى أننى لا أنوى أن

أحبه ، أو أحب أى إنسان آخر .

قال :

— ولكنك ستحبيته مع الزمن ، ولست أدري ماذا يحدث لي عندئذ ؟  
قالت :

— سوف تحب فتاة أخرى بدورك ، تنسيك متاعيك وأشجانك ،  
شأنك في ذلك شأن كل فتى عاقل .

قال وهو يضرب الأرض بقدمه تأكيداً لكلماته المفعمة بالحب  
والعاطفة :

— لن أحب غيرك ، ولن أنساك يا چو . . . أبداً . . . أبداً .

فتنهدت چو وقالت تحدث نفسها ، وقد أدركت أن معالجة العواطف  
الثائرة أصعب بكثير مما كانت تتخيل : « ترى كيف أتصرف معه ! ؟ »  
ثم استطردت تقول له مهدئة :

— إنك لم تستمع لما كنت أريد أن أقول لك ، فاجلس وأصغ إلىّ !  
إنى أريد أن أحسن التصرف لأسعدك .

وبعث قولها بارقة أمل في قلب لورى ، فألقى بنفسه على الحشائش  
تحت قدميها ، وأسند رأسه إلى العارضة الخشبية التي تجلس عليها ، ثم  
رفع إليها نظرة كلها أمل واستعطاف ، وأشاعت حال الفتى القلق في نفس  
چو ، إذ كيف يمكنها أن تقسو على فتاها ، وهو يرنو إليها هكذا بتنظرات  
والهة تنبعث من عينين مازالت تنديهما دموع المرارة لقسوتها عليه ؟

ومدت يدها وأدارت رأسه بعيداً عنها ، وراحت تربت على شعره  
التموج الذى أرسله طويلاً من أجلها . قالت :

إني أتفق مع أي أننا لا يصلح أحدنا للآخر ، فكلانا سريع الغضب مما يقضى على سعادتنا ، إذا . . .

وتوقفت جو قليلا قبل أن تقول الكلمة التي تختم حديثها ، ولكن لورى أكلت في صوت خشن :

— تزوجنا ! . . لا . . لن تنعس حياتنا إذا بادلتني الحب ، أنا طوع أمرك وفي مقدورك أن تصوغيني كما تشائين ، وسوف تصنعين مني قديساً إذا أردت .

قالت :

— لا ، لا أستطيع . لقد جربت وفشلت ، ولا أحب أن أخاطر بسعادتنا في تجربة جديدة أخرى . إننا لاتفق على أمر من الأمور ، ولن تتغير حالنا هذه في يوم من الأيام ، ولذا يحسن بنا أن نحفظ بصدافتنا ما حيننا ، ولا نفسدها بعمل ينطوى على التسرع والرعونة .

فقال لورى في عناد :

— على العكس ، سوف نسعد معاً لو أتاحت الفرصة .

فقالت جو في ضراعة ، وهي تبذل آخر سهم في جعبتها :

— كن عاقلاً منطقياً ، وخذ الأمور بحكمة وروية .

قال :

— لا . . لا أريد عقلاً ولا منطقاً ولا حكمة ، فلن تعود على منها

فائدة ، بل على العكس إنها تزيدك صلابة وقسوة . إني أعجب من أمرك

أليس لك قلب يحس ؟

قالت :

— وددت لو لم يكن لي قلب يحس ! !

وكان في صوتها رجفة تفاعل بها لورى ، فاستدار إليها . وقد جمع كل ما يملك من قوة الإقناع ، وقال برنة الإغراء التي لم تعهد لها من قبل :  
— لا تخيبي رجاءنا يا عزيزتي ! فكلهم ينتظر هذا النبأ ؛ لقد عقد جدى آماله عليه ، ولا شك أن قومك يرحبون به ، وأنا لا أستطيع الحياة بدونك . قولى نعم ودعينا نسعد في حياتنا . . . . هيا قولى نعم .

ولم تدرك جو ، إلا بعد مضي شهر عدة ، كيف توافرت لها القوة على التمسك بقرارها في عزم وإصرار ، كانت تعلم أنها لا تحب فتاها ولا تستطيع أن تروض نفسها على حبه ، وربما يكون في إعلان هذا الرأى قسوة عليه ، ولكنها كانت ترى أن لا مفر من إعلانه ، حتى لا تزيد عذابه بالمماثلة والتسوية .

قالت في هدوء ولطف :

— صدقتي بالورى إننى لا أستطيع أن أقول لك « نعم » عن إيمان وصدق ، وستشكرنى يوماً على موقعى هذا .

وقفز لورى واقفاً فوق الحشائش ، وقد تملكه غضب شديد ، لمجرد تصويره أن يحدث هذا . قال :

— لن أفعل هذا إلى أن أموت .

فقلت في إصرار :

— بل سيأتي اليوم الذى تشكرنى فيه على هذا القرار ، والزمن كفيل بعلاج آلامك ، ولن يمضى وقت طويل حتى تجد فتاة جميلة مهذبة تقع فى غرامك وتصبح أبداع سيده لبيتك الجميل . أما أنا فلا أصلح لك إطلاقاً لأنى غريبة الأطوار ساذجة خرقاء ، وستخجل منى ومن تصرفاتى ، وسوف نتشاجر من أجل ذلك ومن أجل ما هو أقل منه ، وحتى الآن ، هانحن أولاء نتشاجر كما ترى . إننا نختلف فى كل ناحية : فأنا مثلاً لا أطيق المجتمعات الأنيقة وأنت تحبها ، وأنت تكره الكتابة وأنا لا أستطيع الحياة بدونها . سنكون فى منتهى التعاسة . سنكون فى منتهى التعاسة إذا تم لك ما أردت ، وستندم على ما فعلنا يوم تصبح الحياة بيننا لا تطاق .

وضاق صدر لورى بهذه التنبؤات المفزعة ، فقال :

— أما زالت لديك أقوال أخرى ؟ ؟

قالت :

— لا . . ليس لدى إلا ما أعتقد من أننى لن أتزوج فى يوم من الأيام ، فأنا سعيدة بحالى ، أستمتع بحريتى التى أحبها إلى حد لا أتصور معه فكرة التخلي عنها من أجل أى مخلوق آدمى أياً كان .

وقطع لورى حديثها قائلاً :

— وأنا أعتقد غير ذلك ، فرغم كل ما تقولين ، سيأتي اليوم الذى تحبين فيه شخصاً ما ، وتتلهين فى هواه ، فتعيشين وتموتين من أجله .

إنها طريقتك في الحياة ، ولا بد أن يحدث ما أتوقعه ، وسأقف إذ ذاك جانباً ، أقرب أحوالك ، وأرى بعيني مصيرك الأخير .

وفي حركة يائسة ألقى العاشق الصغير قبعته على الأرض ، بشكل يثير الضحك ، ولكن جو لم تضحك احتراماً لحزنه العميق .

صاحت تقول ، وقد نفذ صبرها مع تيدي المسكين :

— نعم سأعيش وأموت من أجل من يستطيع أن يحملني على حبه رغم أنني ، فعليك أن تبذل جهدك لتكون هذا الرجل ، أما أنا فقد حاولت كثيراً وفشلت . . . أنت لا تريد أن تحكم عقلك ، ومن الأناية أن تمنحني في مضايقتي وإغاظتي ، وتلح في مطالبتي بما ليس في مقدوري أن أمنحك إياه . . . ثق أنك أحب الأصدقاء كلهم إلى ، وستبقى لي دائماً أعز الناس ولكني لن أتزوجك أبداً ، وكلما أسرعت في إدراك هذه الحقيقة ، كان ذلك خيراً لنا وأبني .

وجاءت كلماتها ناراً على بارود ، فقد نظر إليها لورى برهة في حيرة أربكت عليه أمره ، ثم استدار عنها منصرفاً وهو يقول في لهجة اليأس المرير :

— ستندمين يوماً على موقفك هذا ، يا جو !

فصاحت وقد هالها انقلاب سحنته :

— أواه ! إلى أين تذهب ؟

فقال :

— إلى الشيطان !

وتوقف قلب چو عن النبض لحظة ، وهي تراه يندفع متجهاً إلى شاطئ النهر ، ولكن الفتى لم يكن يفكر في الانتحار كما تصورت ؛ إذ أن الانتحار يحتاج إلى دوافع فيها من التعاسة أو التهور أو الخطيئة أضعاف ما يشعر به ، كما أنه ليس من ذلك الطراز الضعيف الذى يقر بالهزيمة عند أول صدمة يلقاها أو فشل يبنى به . ولكن غريزته الثائرة قادتة إلى قاربه ، فقفز فيه كما هو بمعطفه وقبعته ، وراح يجذف بكل قوته ، حتى أسرع به القارب كما لم يسرع به فى أى سباق له من قبل .

وأرخت چو يديها وقد تنفست الصعداء ، وراحت ترتقب فتاها المسكين وهو يغرق فى مياه النهر أحزاناً ناء بحملها قلبه الكبير ، وقالت لنفسها : « هذه الرياضة علاج له ، وسيعود بعدها إلى البيت هادئ المزاج أسفاً على ما جرى ، ولا أستبعد أن تمضى أيام قبل أن يرينى وجهه مرة أخرى » .

وتسللت إلى البيت فى بطاء ، وهي تحس كأنها قتلت مخلوقاً بريئاً ، ودفنته تحت أوراق الأشجار المتساقطة . قالت تحدث نفسها : « الأفضل أن أبادر إلى مستر لورنس وأحدثه بما جرى ، حتى يكون عطوفاً على فتاى المسكين . ألا ليته وقع فى غرام بث ؛ ولكن . . . ربما أحبها مع الزمن . . . لقد تكشَّف لى الآن كم أخطأت الظن فى أمرها . يا إلهى ! ! كيف تمنى الفتيات أن يكون لهن محبوبون ، فإذا وجدتهم رفضن حبهم ! ؟ يا له من أمر رهيب ! »

كانت تعلم أنها الوحيدة التي تستطيع أن تحدث مستر لورنس بما جرى ، ولذلك ذهبت إليه مباشرة وسردت له تفاصيل القصة المؤلة بجرأة وشجاعة ، ثم انصرفت كثيبة وقد ركبها الهم لإقدامها على رفض لورى دون رحمة أوشفقة .

وجاءت قصتها مخيبة لآمال السيد العجوز ، كان من العسير عليه أن يدرك كيف تستطيع فتاة أن تتحاشى الوقوع في حب لورى . ولكنه لم يوجه إليها كلمة لوم أوعتاب ، ولم يقل سوى أنه يتمنى لو غيرت رأيها يوماً ما . . . كان يعرف أكثر من چو نفسها أن الحب لا يفرض على القلوب فرضاً ، ولكنه قلق لثورة الفتى عند وداعها ، فراح يهز رأسه أسفاً ، وقد اعتزم أن يباعد بينه وبين هذا الطريق المحفوف بالخطر .

وعندما عاد لورى إلى البيت ، كان التعب قد أنهكه ، ولكنه كان مسيطراً على مشاعره ، فقابله جده بهدوء ، كأنه لا يعرف شيئاً مما حدث . وبقى على هذه الحال ساعة أو ساعتين . ولكن عندما ضمتهما تلك الجلسة التي اعتادا أن يتمتعا بها في ساعات الغسق ، راح الجلد يحاول أن يتلمس الوسيلة إلى فتح الموضوع مغدقاً المديح على الفتى ، شاكراً له ما بذل من جهد طوال العام الدراسى المنصرم . وكان عزيزاً على الفتى المجهود الذى تحطمت آماله ، أن يستمع إلى هذا الإطراء في صبر وأناة ، وفاض به اليأس حين تصور أن الجهد الذى بذله في الجامعة ضاع هباء . فقام إلى المعزف يتلهى عن آلامه بالتوقيع عليه ، وتسالت الأنغام

الشجية من النافذة المفتوحة إلى مسامع جو ، التي كانت تتمشى في الحديقة مع أختها بث ، فأدركت أن فتاها يعزف اليوم « السوناتا الحزينة » بعاطفة جياشة ومهارة لم تعهدها في عزفه من قبل .

واستمع الجلد العجوز لأنغام حفيده معجباً ، ثم قال في حيرة من لا يعرف كيف يعبر عما بقلبه من عطف وإشفاق :

— هذا عزف بديع ، ولكنه لحن حزين يستدر الدموع ، دعك منه وأسمعي آخر بهيجاً .

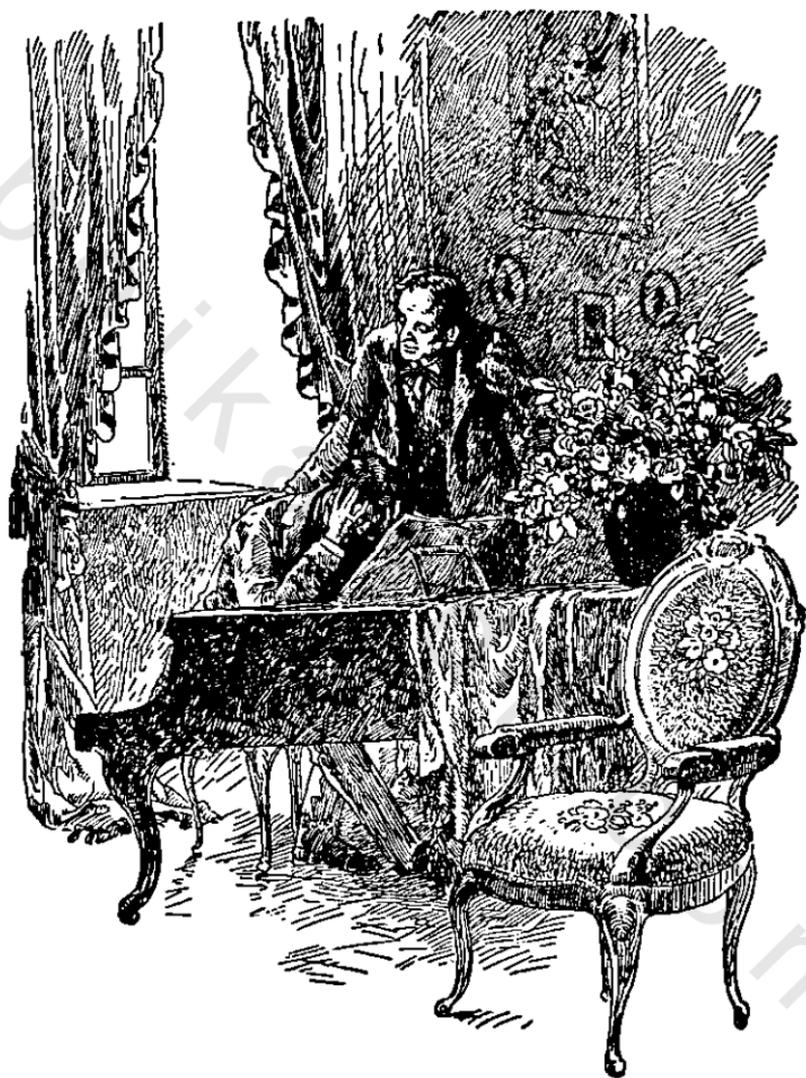
وبدأ القتي لحناً جديداً ، ومضت الدقائق وهو يعزف بحوية دافقة . وكان من الجائز أن يمضي في العزف إلى النهاية ، لولا أن تعالى صوت مسز مارش ، أثناء سكتة قصيرة خلال اللحن ، وهي تقول :

— جو ، عزيزتي . . تعالى إلى فاني في حاجة إليك .

وكانت هذه الجملة الصغيرة هي لسان حال القتي ، وإن تغير المقصود منها . فما إن سمعها ، حتى ارتبكت أنامله على المعزف ، ثم توقف وقد تاه في شرود .

وتعم السيد العجوز يقول لنفسه : « إني لا أطيق صبراً على هذه الحال ! » . ونهض واقفاً وتحسس طريقه في عتمة الغسق إلى المعزف ، ووضع يديه الحائيتين على كتفي لوري العريضتين ، وقال في لهجة تسيل رقة وعذوبة :

— إني أعرف يا ولدي . . إني أعرف .



وسكت لورى برهة ، ثم قال فى حدة :

— ومن أخبرك ؟

أجاب الجده :

— چونفسها .

وأزاح الفتى يدى جده فى ضيق ، فقد أبت عليه رجولته أن يكون محل رثاء رجل آخر ، حتى ولو كان ذلك الرجل جده العطوف . قال :

— إذاً فهذه هى النهاية .

فقال مستر لورنس فى رقة غير معتادة منه :

— لا . . لم ينته الأمر بعد ، فما زال عندى ما أطلبه منك وبه تكون

الخاتمة ؛ لا أظنك ترحب الآن بالبقاء فى هذا البيت ؟

أجاب لورى فى تحد :

— لن تهزمنى فتاة أبدأ ، ولن تستطيع چو أن تمنعنى من أن أراها ،

وسأبقى هنا ماشئت أنظر إليها كما يحلولى . .

قال جده :

— لا . . لن يكون هذا ، إذا كنت عند ظنى بك سيداً مهذباً . لقد

خابت آمالى أنا أيضاً ، ولكن للفتاة عذرها ، ومن الظلم أن تطالبها بما

لا طاقة لها به ، وإزاء ذلك لم يبق أمامك سوى أن ترحل لفترة من الزمن .

فإلى أين تريد أن تذهب ؟

ونهض الفتى واقفاً ، وهو يضحك باستهتار تاذى له جده ، وقال :

— إلى أى مكان ، فلست أبالي بما يصيبني بعد ما حدث .  
قال الجلد :

— بالله عليك لا تفقد صوابك ، واحتمل مصابك كالرجال . رأيت  
أن تنسى ما حدث وتسافر إلى الخارج كما كنت تعترم .

قال الفتى :

— لا أقدر .

قال الجلد :

— لقد كنت تتحرق شوقاً إلى السفر ، ولقد وعدتك بذلك إن نجحت  
في دراستك .

أجاب :

— كنت بالفعل متحمساً للسفر ، ولكنى لم أكن أعتزم السفر وحدى .  
وراح لورى يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة فى سرعة ، وقد بدت فى عينيه  
نظرة لم يلحظها جده من حسن الحظ . قال العجوز :

— وأنا لا أريد أن تسافر وحدك ، فهناك من هو على استعداد للسفر  
معك ، بل ويسره أن يصطحبك إلى أى مكان فى العالم تريد أن تذهب  
إليه .

وتوقف الفتى يصغى ، وقال متسائلاً :

— ومن هو ياسيدى ؟

أجاب الجلد :

— أنا !

وفي سرعة أقبل الفتى على جده ، ومد يده وقال في صوت أجش :

— تبّاً لي من فظ أناني ، ولكنك تعلم يا جدي . . .

فقال الجد :

— بل أعلم ، وليهني الله العون ، فقد مررت بهذه التجربة حين

كنت صغيراً ، وتكررت مرة ثانية مع أبيك .. والآن .. اجلس هادئاً يا ولدي

العزيز ، واستمع لخطتي ، فقد أعددت لها كل العدة ، وبإمكاننا أن

نشرع في تنفيذها فوراً .

وكان أثناء حديثه ، يمسك بالفتى ، كأنما يخشى أن يفلت منه

كما فعل أبوه من قبل .

وجلس لورى ، وقال في نبرات خالية من الشوق والاهتمام :

— حسناً يا سيدي . . ما هي خططك ؟

قال الجد :

— لي أعمال في لندن تحتاج إلى من يشرف عليها ، وقد فكرت أن

أؤكل إليك هذه المهمة ، ولكنني أستطيع أداءها بنفسى على أحسن وجه ،

خصوصاً أن الأعمال هنا تسير على ما يرام بفضل إدارة بروك . إن شركائى

يتعهدون كل شىء تقريباً ، وأنا في انتظار الساعة التي تستطيع أن تحل

فيها محلي ، فأتقاعد وأرتاح .

قال لورى وقد أفعمت نفسه بالشكر بلجده على هذه التضحية :

— ولكنك تكره السفر يا سيدى ، ولا يرضيني أن تتجشم فى سنك المتقدمة كل هذا العناء من أجلى .

وكان فى الواقع يفضل أن يسافر وحده ، إذالم يكن من السفر بد .  
وعرف الجد ما يجول بخاطر حفيده ، ولكنه خشى عليه أن يسافر وحده وهو فى قلقه النفسى الحاضر ، فقال وهو يكبت أسفه على وسائل الراحة التى سيفقدها بالسفر :

— فليباركك الله على شعورك الطيب يابنى ، ولكنى لم أبلغ أزدل العمر بعد ، وما زالت فى عظامى العتيقة قدرة على تحمل السفر ، خصوصاً فى هذه الأيام التى سهلت فيها وسائل الانتقال ، وأصبح الرحيل من مكان إلى مكان مثل الجلوس فى مقعد مريح .  
وتحمل لورى فى مقعده ، كأنه لا يشعر بالراحة فيه ، أو كأنما الخطوة لا توافقه ، فقال الجد فى سرعة :

— سأكون بالسفر أسعد حالاً ، ولا تخش أن أثقل عليك أو أقيد حررتك . سأتركك تفعل ماتشاء ، بينما أتسلى أنا كما يحلولى ، فإن لى أصدقاء فى لندن وفى باريس أود أن أزورهم ، ويمكنك أن تذهب أنت إلى إيطاليا أو سويسرا أو ألمانيا ، حيث تنعم بما يهفو إليه قلبك من الموسيقى والمتاحف والفن والمناظر والمخاطرات .

وكان لورى يصغى إلى جده محطم القلب زاهداً ، كأنه يرى العالم على سعته برية ضيقة فقراء ؛ ولكن ما إن استوعب بعض ما قاله العجوز من

كلمات صيغت بمهارة مغرية ، حتى قفز القلب المحطم بين ضلوعه ،  
وتبدت في وسط البرية القفرء واحة خضراء يانعة ، فندت عنه تهدة ،  
وقال في صوت خلا من الحماسة :

— أمرك ياسيدى ، ولا يهمنى أين أذهب أو ماذا أفعل .

فقال الجدد :

— ولكنه يهمنى أنا يا بنى ، فاذا ذكر هذه الحقيقة دائماً . سأعطيك  
مطلق الحرية ، وأنا على ثقة بأنك لن تسيء استغلالها ، أو تستعملها  
فيما يتنافى مع الشرف والأمانة . فهل تعدنى بذلك يا لورى ؟

أجاب :

— أعدك بما تشاء ياسيدى .

وقال السيد العجوز في نفسه : « حسناً ! إنك تجيبنى الآن جزافاً ،  
ولكن سيأتى الوقت الذى يصونك فيه هذا الوعد من الشرور إذا لم أكن  
مخطئاً في تقديرى » .

وكان مستر لورنس رجل حزم وعزم ، يعرف كيف يطرق الحديد  
وهو ساخن ، ولذلك أعد الخطة ونفذها قبل أن يفيق الفتى من ثورته  
فينقض الاتفاق . وتحامل لورى على نفسه طوال فترة الاستعداد للسفر ،  
منفذاً وعوده شأن الرجل المهذب . حقيقة أنه كان ساهماً سريع الغضب ،  
عازفاً عن الطعام مهملاً فى ملبسه ، مقبلاً على البيانو يعزف عليه فى ثورة  
متحاشياً لقاء جو ما أمكن ؛ ولكنه كان يتعزى بالنظر إليها من النافذة ،

ويتأملها وقد شاع في عينيه حزن مقيم ظل يلاحق الفتاة في يقظتها ونومها ،  
ويبعث في نفسها شعوراً بأنها ارتكبت في حقه جرماً لا يغتفر .

وكان لورى على خلاف غيره من المعذنين ، لا يذكر حبه الضائع  
بكلمة ، ولا يسمح لأحد ، حتى مسز مارش ، بأن تعزیه أو تخفف عنه ،  
وكان سلوكه هذا راحة شديدة لأصدقائه ، وعلى ذلك فقد مضت الأسابيع  
السابقة للسفر مفعمة بالقلق والتوتر . وكانوا جميعاً يقولون : إن القتي  
العزیز البائس ، يسافر لينسى همومه ، ولن يلبث أن يعود وقد استرد  
سعادته ومرحه . وكان لورى يصنع لهذيانهم باسمأ ، ويأبى أن يعلق على  
أقوالهم ، في تعالى من يدرك أن إخلاصه لحبه أبدى لا يتغير .

وعندما حانت ساعة الرحيل ، افتعل لورى المرح والبهجة ليخفي  
عواطفه التي أبت إلا أن تظهر للعيان ، ولم تخدع بشاشته المصطنعة  
أحدًا من حوله ، ولكنهم تظاهروا بتصديقها لإرضاء له . وسارت لحظة  
الوداع على ما يرام ، إلى أن قبلته مسز مارش ، وهمست في أذنه بكلمات  
فيها حنان الأم وعطفها ، وعندئذ انهار ثباته فجأة ، فراح يحتضن كل  
فرد منهم ويقبله في عجلة ، حتى الطاهية حنة ، ثم هبط السلم مسرعاً ،  
كأنما يفر من خطر يهدد حياته . وتبعته جو بعد لحظة ، ووقفت على  
أولى درجات السلم ، لتلوح له بيدها إذا ما التفت لينظر إليها آخر  
مرة . ولقد التفت بالفعل ، فلما رآها ، عاد إليها وأحاطها بذراعيه ، ثم  
قال ضارعاً ، وعيناه تنطقان بالاستعطاف المؤثر :

— چو . . ألا تعدلين عن قرارك ؟

قالت :

— بودى لو استطعت ياعزيزى تيدى .

وعندئذ كف عن الحديث . فضت لحظة سكوت اعتدل بعدها

لورى فى وقفته ، وقال :

— حسناً . . لا بأس .

ثم سار مبتعداً ، دون أن يزيد على ذلك كلمة .

ولكن چو لم تر الأمر حسناً أولاً بأس به . فعندما صارحها بحبه فى

المرة الأولى ، وقد أسند رأسه إلى ذراعها ، شعرت أن رفضها له كان طعنة

نجلاء فى صدر أحب الناس إليها ، وحين غادرها الآن دون أن يلتقى

عليها نظرة ثانية ، أدركت أن « الصبى لورى » سافر إلى غير رجعة .



## الفصل السادس والثلاثون

### سر بث

عندما عادت چو إلى بيتها في ذلك الربيع ، روعها تغير حال بث ، وأحزنها ما رأت من تبدل شديد في وجه أختها . وقد أدهشها أن أحداً من أفراد العائلة لم يكتب إليها في ذلك ، كأنهم لا يشعرون بما أصاب بث ، أو لعل التغير جاء تدريجاً فلم يجزع له أحد من يعيشون معها ، ولكن غيبة چو أبرزت لعينها النحول الواضح ، فرأت أن وجه أختها ليس باهتاً فحسب ، بل أشد نحولاً مما كان عليه في الخريف الماضي ، وكأنما شفت نفسها الفانية وتسامت روحها فوق جسدها النحيل ، فاكتنفها

بهاء روحاني جميل يذيب القلوب أسفاً وحسرة . ورأت چو هذا النور  
 يضيء وجه أختها وأحست به ، ولكنها لم تشأ أن تصارح أحداً بذلك .  
 ثم مضت الأيام ، ففقد تأثيرها الأول قوته ، وبدت لها بث سعيدة معافية .  
 واندمجت چو في مشاغلها الكثيرة وهمومها المتعددة ، فنسيت مخاوفها  
 وارتاحت نفسها ؛ ولكن عندما رحل لوري ، واستقر السلام في البيت  
 ثانية ، عاودها قلقها على بث شديداً ملحفاً .

كانت چو قد اعترفت لبث بخطئها حين ظنت أن لوري يحبها ، فلم  
 تبخل الصغيرة عليها بالصفح والمغفرة ، وعندئذ عرضت عليها بعض المال  
 الذي ادخرته ، لتذهب به في رحلة إلى الجبال ؛ ولكن بث أبت شاكرة  
 أن تبعد عن البيت هذه المسافة الطويلة . ورأت چو أن رحلة إلى شاطئ  
 البحر قد تكون أكثر ملاءمة لحال أختها ، ولما كانت مسرمارش لا  
 تستطيع أن تبعد عن حفيديها أو تركهما ، فقد رافقت هي بنفسها بث ،  
 وذهبت الاثنتان إلى بقعة هادئة من الشاطئ ، لعل نسيم البحر العليل  
 يعيد إلى الوجه الذابل نصرته .

وعلى الرغم من أنه كان مصيفاً بسيطاً متواضعاً ، فقد آثرت الفتاتان  
 الابتعاد عن رواده المرحين ، لأن حياء بث كان يبعتها عن المجتمعات ،  
 ويزهدها في الاستمتاع بها . وكرست چو نفسها لخدمة أختها والعناية بها ،  
 وانقطعت الفتاتان عن العالم الذي يدور حولهما ، ولم تلتفتا إلى اهتمام  
 الناس بأمرهما ، في حين كان القوم يرقبونهما بخنان ، ويعطفون على الفتاة

القوية وهي تلازم أختها المريضة ، لا تبتعد عنها لحظة أو تفارقها ، كأنما تشعر بالغريزة أن الفراق الأبدى بات قريباً .

وكان هذا شعورها في الواقع منذ بداية الأمر ؛ ولكنها لم تفصح عنه ، فليس أقسى علينا من الصراحة مع أحبائنا في مثل هذه الأمور . ولقد أحست چو كأن حجاباً أسدل بين قلبها وقلب بث ، فلما مدت يدها ترفعه ، منعها قدسية الصمت الذي شملها ، فقنعت بالسكوت ، وتركت لبث مهمة بدء الحديث . وعجبت في نفسها كيف لم تر الأسرة ما رآته هي وكيف غاب عن أهلها ما أصاب أختها ؛ ثم لم تلبث أن حمدت الظروف التي أشفقت عليهم فجعلتهم لا يدركون . وكانت قد آثرت خلال الأسابيع الماضية الهادئة ألا تبوح لأهلها بما رأت من حال بث ، موقنة بأنهم سوف يدركون ما أدركت عندما تعود إليهم الفتاة من المصيف ، دون أن يبدو عليها بادرة من التحسن المنشود . ولكم سألت چو نفسها إذا كانت بث تدرك شيئاً من الحقيقة المرة ، وكان بודהا أن تكشف عن الأفكار التي تدور بذهنها ، وهي ترقد طول اليوم على رمال الشاطئ الدافئة ، ورأسها مسند إلى حجر چو ، والنسيم العليل يداعب وجهها ، والبحر يهمس بموسيقاه تحت قدميها .

وأخيراً تكلمت بث . . .

ففي يوم من الأيام كانت ترقد ساكنة ، وقد وضعت كتابها جانباً ، وراحت چو تحمق في وجهها بعينين فاحصتين ، عسى أن تلمح بارقة

من الأمل تشيع في الوجه الضامر الباهت ، ولكن بصرها ارتد حسيراً أمام جسد أختها الذي ازداد نحولاً ، ويديها اللتين وهنتا عن الإمساك بما جمعه لها من الأصداف الوردية . وتملك چو قلق مرير ، لم تشعر بمثله من قبل ، وأحست كأن بث تنساب من بين يديها ، فلم تشعر إلا وهي تقبض بشدة على كنزها العزيز الغالي ، وقد تاه منها البصر فغابت المرثيات عن عينيها . وحين استردت جأشها واستعادت زمام نفسها ، رأت بث تنظر إليها في رقة بالغة ، لم تكن في حاجة معها إلى أن تقول :

— عزيزتي چو ، يسعدني أنك تعرفين ما أنا فيه ، ولقد حاولت أن أصارحك بأمرى فلم أستطع .

ولم تجب چو إلا بأن أسندت خدها إلى خد أختها ، وقد انحبس الدمع في عينيها ، شأنها حيناً تغلبها العواطف الجياشة . وكانت لحظة قاسية أنهارت فيها شجاعة چو ، فراحت بث تطوقها بذراعها وتسرى عنها وتهدها بكلمات تسيل عذوبة ورقة . قالت :

— لقد عرفت مرضى منذ وقت طويل يا عزيزتي ، ولم يعد يصعب عليّ أن أفكر فيه أو أحتمله . لقد روضت نفسي على قبوله ، فهدأت متاعبي وتبددت آلامي ، ويحسن بك أن تنظري إلى الموضوع من هذه الزاوية ، وتأكدى أنني الآن أحسن حالا ، فلا تستسلمى للحزن من أجلي .

قالت چو تسألها :

— أكان هذا سر حزنك في الحريف يا بث ؟ أكنت تشعرين

بالمرض في ذلك الوقت وتكتمين أمره عنا طوال هذه المدة ؟  
 وكانت نهياً للحزن على أختها ، مرطاحة إلى أن لورى لم يكن له شأن  
 في هموم بث وأحزانها .  
 قالت بث :

— نعم ، ولقد قطعت الأمل عندئذ ؛ ولكنى لم أشأ أن أستسلم  
 لليأس ، فرحت أحاول إقناع نفسي بخطئى ، ولذلك لم أخبر أحداً .  
 ولكنى كنت أضعف حين أرى ما يتمتع به الأصحاء من حولى ، ويستبد  
 بى الشقاء كلما سمعتكم تتحدثون عما تعدونه للمستقبل من مشروعات  
 يعز على ألا أشارككم فيها .  
 فقالت چو :

— أواه يابث ! أنتفين سرك عنى طول هذه المدة ؟ كيف طاوعك  
 قلبك على كتمانها عنى ؟ ولم لم تخبرينى لأعينك وأخفف عليك بدل  
 أن تحملى العبء وحدك ؟

وتهدج صوت چو وهى تعتب على أختها برفق ، وتصدع قلبها  
 لجهاد بث وحيدة ، حين أدركت قرب حرمانها من الحب والحياة . لاشك  
 أنها قاست طويلاً ، وصارعت كثيراً ، حتى أمكنها أن تستسلم لمصيرها  
 المحتوم ، وتتحمل نصيبها راضية منشرحة .  
 قالت بث :

— قد أكون مخطئة فى صمتى ، ولكن عذرى أنى استهدفت الصواب

وسعيت إليه . لم أكن واثقة مما بي ، ولم يرشدني أحد إلى علقى ، فبقيت أتعلق بالأمل . وقد حسبتها أنانية مني أن أزعجكم بمرضى عندما كانت والدتي مشغولة بمبيج ، وآمي غائبة عنا ، وأنت سعيدة مع لورى ، أو هذا على الأقل ما خيل إلى حينئذ .

فصاحت چو ، وقد أسعدها أن تجد الفرصة سانحة لتقول الحقيقة :

— أما أنا ، فقد ظننت أنك تحببته يابث ، ولذلك تركت البيت وسافرت ، لأنى لم أستطع أن أبادله عاطفته .  
وأخذت الدهشة بث لهذه الفكرة ، فابتسمت چو رغم حزنها ، وقالت بحنان :

— إذن لم تكونى مغرمة به يا عزيزتى ، لقد خشيت أن يكون قلبك الصغير مدطاً بحبه طول هذا الوقت .  
فقالت بث فى براءة الأطفال :

— ولماذا أحبه يا چو ؟ وكيف أجرؤ على ذلك وهو غارق فى غرامك ؟  
لانى أعزه من كل قلبى لعطفه علىّ وكرمه معى ، ولكنى أعتبره مجرد أخ ، وليته يصبح أخاً فى يوم من الأيام .  
فقالت چو بحزم :

— لن يكون ذلك عن طريقى ، إن آمى ما زالت أمامه ، تناسبه وتصلح له ؛ أما أنا فلا طاقة لى بهذه الأمور ، ولا يعينى ما يجرى

لغيرى . إني مشغولة بأمرك يابث ، وكل همى أن تستردى صحتك ، ولا بد أن تتحسنى .

فقلت بث :

— وهذا ما أتمناه وأبذل الجهد في سبيل تحقيقه ، ولكنى أفقد كل يوم قليلا من عافيتى ، فيزداد يقينى أن لا أمل في الشفاء . إنه كالجزر يا چو ، ينحسر بطيئاً ولا يقف أبداً .

فقلت چو :

— بل يجب أن يوقف ، إنك ما زلت في التاسعة عشرة ، أى في نضرة الشباب ، ويجب ألا ينحسر جزرك سريعاً . لن أدعك تذهبين ، سأعمل وأصلى وأجاهد ضد هذا المرض ، وأبقي عليك رغم كل شيء . لم تفلت الفرصة بعد ، ولا بد أن أجد السبيل إلى إنقاذك ، سيسملك الله برحمته الواسعة ، ولن يقسو علىّ فيأخذك منى .

وانخرطت في البكاء ، بعد أن صاحت بهذا الحديث في عناد ، إذ لم تكن نفسها قد استكانت بعد كما استكانت واستسلمت روح بث التقية . ومن شأن المؤمنين ألا يتحدثوا عن إيمانهم ، لأن تقواهم تظهر في أفعالهم أكثر من أقوالهم ، وهذا الإيمان بالله يكون عادة أقوى أثراً من العظات البليغة والنصائح الغالية ، ولذلك لم تحاول بث أن تلوم چو على حزنها أو تنصحها أن تتذرع بإيمانها ؛ ولكن حبها لأختها ازداد أمام ما أبدته نحوها من شعور رقيق وعاطفة جياشة ، وتعلقت بهذا الحب

الدينوي تعلقاً شديداً أضنى على قلبها آيات من السلام والهدوء ، ولا غرابة فالحبة الخالصة أقصر طريق إلى الله . ولم تستطع بث أن تفسر كنه الإيمان الذي عمر نفسها فوهبها الصبر والشجاعة ، وهون عليها أن تترك الحياة ، وتنتظر الموت راضية . كانت كالطفل الوديع لا تسأل ولا تناقش ، إنما ترك كل شيء لله والطبيعة ، وهما أبونا وأمنا ، واثقة أنهما وحدهما القادران على إرشادنا في هذه الدنيا إلى سواء السبيل وبث القوة في قلوبنا وأرواحنا . ولكنها لم تستطع في ذات الوقت أن تقول : « إنها سعيدة بالفراق الأبدي » ، إذ كانت الحياة عزيزة عليها ، وليس من اليسر أن تركها راضية مغتبطة ، فجعلت تقول باكية : « إني أجاهد لأحمل نفسي على الرضا بنصبي » . ثم لاذت بصدر أختها ، ليطويهما الحزن أمام شبح الفراق الأليم ، وقد تبدي سافراً لأول مرة .

وبعد قليل استردت بث هدوءها وقالت :

— هل تصارحينهم بالحقيقة عندما نعود إلى البيت ؟

وتنهدت جو وقالت :

— لا داعي لذلك ، فلن يطول الزمن حتى يدركوها بأنفسهم .

فقد كان من الواضح أن صحة بث تتدهور سريعاً من يوم إلى يوم .

فقالت بث :

— بل يجب أن نخبرهم ، فالحب يعنى أصحابه عن رؤية الكوارث

وهي قادمة ، وقد لا يدركون شيئاً لفرط حبهم لي ، إني أكره أن أخفي عنهم

سرّاً ، ومن دواعي الرحمة بهم أن نهى أذهانهم للأمر . إن لميج أطفالها وزوجها يسرون عنها ، أما أبي وأمي فليس لهما إلا أنت يا چو ، فعديني أن تقني إلى جانبيهما ، وتحفني عليهما وقع الخبر .

فقلت چو ، وهي تفتعل الانشراح :

— سأفعل ذلك إن استطعت يا بث ، ولكني لم أفقد الأمل بعد ، وما زلت أعتقد أنك تنساقين مع أوهام المرض ، ولذا لن أدعك تسترسلين فيها . ورقدت بث ، وأسندت رأسها إلى حجر چو ، ولبثت برهة صامته ، وقد تاهت في بيداء الفكر ، ثم قالت في هدوئها المعتاد :

— لست أعرف كيف أعبر عما بنفسي يا چو ، وفي الواقع ، أنا لا أستطيع الكلام بصراحة لإلامك ، ولك وحدك أبوح بمكنون سري . إنني أحس إحساساً غامضاً بأن أجلى لن يطول . إنني أختلف عنكن جميعاً في كل شيء : ما رسمت قط خطة لمستقبلي ، ولا فكرت في شبابي كما تفعلن ، وما دار بخلدني يوماً أن أتزوج كما دار بخلدكن ، لا ، ولا توقعت أن أكون شيئاً في الحياة سوى بث الصغيرة الغبية ، التي لا هم لها إلا أن تهرول في أرجاء البيت بلا فائدة ولا هدف ولا أمل . ما أردت يوماً أن أخرج من البيت أو أتركه أو أتغيب عنكن ، ولذلك أجد اليوم مشقة تعصر قلبي ، حين أتخيل غيبي الأبدية عنكن . وأؤكد لك يا چو ، أنني لست خائفة من مصيري ، ولكني واثقة بأنني سأستوحش إليكن وأحن إلى البيت ، حتى ولو كانت الجنة مثواي .

ولم تقو جو على الكلام ، وساد السكون لحظات طويلة ، إلا من  
 حفيف الرياح وهمسات الأمواج على الشاطئ ، ومر بجوارهما نورس أبيض  
 الجناح ، التمع ضوء الشمس على صدره الفضي ، فراحت بث ترقبه  
 بعيون حزينة حتى اختفى وراء الأفق . وأقبل عصفور رمادي يقفز على  
 الرمال ، وهو يتلفت حوله جدلاً ، كأنما يمتع قلبه بجمال الشمس والبحر .  
 واقرب العصفور من بث ونظر إليها مطمئناً ، ثم قفز إلى صخرة دافئة وراح  
 يسوى ريش جناحيه البليين . وابتسمت بث ، وأحست براحة نفسية ، فقد  
 بدا لها أن هذا المخلوق الصغير يفتح قلبه لها ، ويهبها صداقته المتواضعة ،  
 ويذكرها بأنه ما زالت أمامها مباحج تتمتع بها في هذه الدنيا . قالت :

— ياله من طير عزيز ! انظري كم هو أليف يا جو ؟ إني أفضل  
 العصافير على النورس ، فالنورس ذو جمال وحشي ، أما هذا العصفور  
 فيبدو سعيداً وديعاً مطمئناً ، وكنت في الصيف الماضي أطلق على هذا  
 النوع من الطيور اسم « عصافيري » . وكانت أمي تقول بأن هذه العصافير  
 تذكرها بي ، فهي دائماً تعمل على شاطئ الأمان راضية : أما أنت يا جو  
 فأشبهه بذلك النورس القوي الوحشي ، الذي يغرم بالرياح والعواصف ،  
 ويسعده أن يوغل بعيداً فوق أمواج البحر الثائرة ، ولعل مبيج تشبه الحمامة  
 الوادعة ، وآمي كالكروان الذي كثيراً ما تذكره في خطاباتنا . إنها تحاول  
 مثله أن تطير عالياً ، حتى تصل إلى السحاب ، ثم تهبط إلى عشها الأمين  
 سالمة . يا للعزيزة الصغيرة ، ويا لطموحها العظيم ؟ ولكنها تطوى بين

ضلوعها قلباً كبيراً رقيقاً ، ولن تستطيع الآمال ، مهما حلقت بها ، أن  
تسبها بيتها القديم . ألا ليتنى أراها ثانية ! ولكنها تبدو لي بعيدة في آخر  
الدنيا !

ورأت جو أن تغير مجرى الحديث ، حتى لا ترهق نفس أختها  
المعذبة ، فقالت :

—ستعود في الربيع ، وعندئذ ترينها وتتمتعين بقربها . ستكونين أحسن  
صحة إذ ذاك فأنا مصممة على معونتك ، وسأبذل كل جهد لأساعدك  
على الشفاء وأعيد إلى خديك توردهما .

فقالت بث وكأنما تفكر بصوت عال :

— لا تعلى نفسك بالأمل يا جو ، فلن يجدى الأمل شيئاً على ما  
أعتقد ، واجبنا ألا نحزن ، حتى نستمتع بصحبة بعضنا بعضاً ، ونحزن  
في انتظار النهاية . وسوف تمر بنا أوقات سعيدة ، لأنى لا أقاسى الآن الألم  
على الإطلاق ، وأعتقد أنه بمعونتك سينحسر الجزر في سهولة ويسر .  
ومالت جو على الوجه الهادئ الوديع ، وطبعت عليه قبلة صامته ،  
وهبت فيها جسمها وروحها لعزيرتها بث .

وتحقق قول جو حين عادت الفتاتان إلى البيت ، فما إن شاهد  
الوالدان ابنتهما حتى أدركا أن مخاوفهما ، التي كانا يضرعان إلى الله أن  
يبددها ، قد تحققت .

ودخلت بث بعد رحلتها القصيرة إلى المصيف مكدودة متعبة ، ولم

تلبث أن آوت إلى فراشها بعد أن أبدت سعادتها بالعودة إلى البيت .  
وصحبتها چو إلى غرفتها ، ولكن عندما نزلت إلى البهو ثانية ، أدركت  
لفورها أن الحقيقة قد تبلجت لوالديها ، مما وفر عليها مشقة التصريح ،  
فقد وقف أبوها مسنداً رأسه إلى رف المدفأة ، ومدت إليها أمها ذراعها  
كأنها تطلب العون منها ، فتقدمت چو إليها تواسيها دون أن تقول كلمة  
واحدة .



## الفصل السابع والثلاثون

### أفكار جديدة

ما إن تحل الساعة الثالثة مساء ، حتى يهرع أهل الطبقة الراقية في مدينة نيس إلى « منتزه الإنجليز » ، لأنه مكان جميل جذاب ، في جانب منه الأزهار والنخيل والشجيرات المستوردة من المناطق الحارة ، وفي الجانب الآخر يهدر البحر بأواجه المتلاحقة ؛ ومن الجهة الثالثة يمر شارع فخم تصطف على جانبيه الفنادق الكبيرة والبيوت الأنيقة ، أما الجهة الرابعة فتمتد فيها بساتين الفاكهة حتى تصل إلى التلال القريبة . وفي الأيام

الصحوة المشمسة ، يصبح هذا المكان كالكرنفال : ترى فيه أبناء دول مختلفة ، وتسمع لغات عدة ، وتشهد ملابس متباينة : تجد الإنجليز المتغطرسين ، والفرنسيين المرحين ، والألمان الجادين ، ثم الإسبانيين بوسامتهم ، والروس بضخامتهم ، واليهود بمكرهم ، والأمريكيين بلطفهم وتسامحهم .

ترى هؤلاء كلهم راكبين عرباتهم المظهمة ، أو متسكعين على أقدامهم في أرجاء المكان ، أو جالسين في جانب من المكان يثرثرون ، ويروون أخبار الناس ، ويتقنون البارزين من زوار المدينة الجدد ، مثل ريستورى أو ديكنز ، أو فيكتور عمانويل أو ملكة جزر ساندوتش . والعربات في متنزه الإنجليز تختلف اختلاف الناس ، ومنها ما تجتذب الاهتمام العام ، كتلك العربات الصغيرة الشبيهة بالسلات ، التي تسوقها سيدات أنيقات ، وتجرها أمهار قوية نشيطة ، وقد قبع الخدم في أعلى مقاعدها الخلفية .

وفي يوم عيد الميلاد ، كان يسير في ذلك المتنزه الأنيق ، فتى فارغ الطول ، يتحرك بخطوات وثيدة وقد شبك يديه وراء ظهره ، وبدا عليه شرود الذهن . وكان الفتى متناقضاً في شكله ، فلامحه تشبه الإيطاليين ولكنه يرتدى الملابس الإنجليزية ، ويمشى بالطريقة الأمريكية ، وقد اجتذب هذا التناقض اهتمام السيدات ، فتبعنه بنظرات الرضا والارتياح . أما الرجال المتأنقون الذين يرتدون السترات المخملية السوداء ؛

والقفازات الصفراء وأربطة العنق الحمراء ، ويحلون صدورهم بزهور البرتقال فكانوا يتأملونه شزراً ، ثم يهزون أكتافهم حاسدين .

وكان المتنزه زاحراً بالوجوه الجميلة التي تنتزع الإعجاب ، ولكن الفتى لم يكن يعبأ بها ، إلا من لفتة هنا أو هناك يلقيها على فتاة شقراء أو سيدة ترتدى ثوباً أزرق . ووصل الفتى في سيره إلى نهاية الطريق ، ثم وقف لحظة عند تقاطعه متردداً . كان حائراً فيما يفعله : أيذهب إلى الحديقة العامة ليستمع إلى عزف الفرقة الموسيقية ؟ أم يتجه إلى شاطئ البحر في طريق قلعة «هَلْ» ؟

وبينما هو في تفكيره ، سمع وقع حوافر مهر يسير خبياً نحوه ، فلما رفع رأسه ينظر ناحيته ، رأى عربية صغيرة تقبل صوبه مسرعة ، وليس فيها سوى سيدة تجلس بمفردها . وكانت الراكبة فتاة شقراء ترتدى ثوباً أزرق ، حديق الفتى فيها لحظة ، ثم أضاء وجهه بشراً ، ولوح بقبعته لها كالأولاد وهو يهرع إلى لقاءها .

وألقت آمي بالأعنة جانباً ، وأمسكت باليدين الممدودتين ، وصاحت — أهذا أنت حقاً بالورى ؟ ظننتك لن تأتي أبداً !

ومرت بالصديقين في تلك اللحظة سيدة فرنسية تسير مع ابنتها ، فلما رأت حزارة ذلك اللقاء ، أسرعت بتباعد عن المنظر الفاضح خشية أن تتأثر ابنتها بمثل هذا السلوك الجرى الذي يأتيه هؤلاء الإنجليز المعاتيه . وأجاب الفتى قائلاً :

— لقد تأخرت في طريقى إلى هنا ، ولكنى وعدت أن أقضى معك عطلة عيد الميلاد ، وهأنذا بين يديك .

سألته :

— كيف حال جدك ؟ ومتى حضرت ؟ وأين تقيم ؟

قال يرد على أسئلتها بالترتيب :

— في صحة جيدة ، وجئت ليلة أمس ، وأقيم في شوفين . ولقد مررت بفندقكم فوجدتكم جميعاً في الخارج .

— عندي أخبار كثيرة ، ولست أدري من أين أبدأ . تعال اركب معى حتى نتحدث على راحتنا . كنت أتنزه وحدى لأن فلو ترتاح استعداداً لسهرة الليلة .

قال :

— وما برنامجكم الليلة ؟ مرقص ؟

أجابت :

— يقيم الفندق حفلة عيد الميلاد إكراماً للنزلاء الأمريكيين الكثيرين ، وستأتى معنا طبعاً ، فعمتى يسرها أن تراك .

فشبك الفتى ذراعيه على صدره واستند إلى المقعد قائلاً :

— أشكرك . . . والآن ، إلى أين نذهب ؟

وسرت أمى لقوله ، إذ كانت تحب أن تقود العربة بنفسها ، وكان

يملاً صدرها غبطة أن ترفع مظلتها وتمسك الأعنة الزرقاء التي تمتد فوق ظهور الأمهار البيض ، وتفرقع السوط بيدها . قالت :

— هلم إلى البنك أولاً نسأل عن بريد لي ، وبعد ذلك نذهب إلى قلعة « هكل » فالمنظر هناك يأخذ بالألباب ، وأنا أحب أن أطعم الطواويس بيدي . أزرت القلعة من قبل ؟

قال :

— زرتها كثيراً فيما مضى ، ولكن لا مانع مطلقاً من أن ألقى عليها نظرة أخرى .

قالت :

— والآن قص عليّ أخبارك كلها ، فأخبر معلوماً عنك ما كتبه لي جدك ، من أنه ينتظر عودتك من برلين .

قال :

— نعم ، لقد قضيت شهراً في برلين ، ثم التقيت بجدي في باريس ، حيث أقام طول الشتاء . إن له أصدقاء هناك ، وقد وجد في قريتهم منه تسلية كافية ، أما أنا فقد كنت أسافر وأعود إليه ، وكانت الأمور تسير معنا على مايرام .

فقالت آمي ، وقد استشعرت غموضاً في سلوك لوري :

— هذه خطة اجتماعية موفقة .

قال :

— ولِمَ لا؟ إن جدى يكره السفر، وأنا لا أطيق الاستقرار فى مكان واحد، ولذلك يفعل كل منا ما يروقه، حتى لا يتكبد أحدنا مشقة من أجل الآخر. إنه يصاحبني معظم الوقت، ويلتذ بسماع أخبار سفري، أما أنا فيسرنى دائماً أن أجد من يرحب بي عند عودتى من رحلاتى.

ونظر الفتى إلى الشارع الذى يقودهم إلى ميدان نابليون، بمدينة نيس القديمة، وقال مشتمزاً:

— ياله من زقاق قدر! ما رأيك؟

قالت:

— إن للقذارة سحرها، ولذا لا يضايقنى أن أمر بها، ثم إن من بين هذه المنعطفات الضيقة يمكنك أن ترى النهر والتلال، وهو منظر غاية فى المتعة. علينا أن ننتظر هنا حتى يمر هذا الموكب إلى كنيسة القديس جون.

وراح لورى ينظر شاردأً إلى الموكب الدينى وفيه القساوسة بملابسهم الفضفاضة، والراهبات المحجبات بالأبيض الشفاف يحملن الشموع الموقدة ومن حولهن صبيان صغار بملابس زرقاء، يرتلون الأدعية وهم فى طريقهم إلى الكنيسة. وراحت آمى تتأمل لورى فى قلق وخوف، إذ وجدت أن الفتى المرح الصبوح الذى تركته فى بلدتها، قد أصبح الآن رجلاً حزيناً واجماً. حقيقة أنه ازداد وسامة وأناقة عن ذى قبل؛ ولكنه بدا بعد أن مضت فرحة لقائه بها، متعباً مرهقاً. لم يكن مريضاً ولم يكن تعساً، ولكن كان أكثر وقاراً، كمن تقدم به العمر زمناً أطول

بكثير من العام الذي مضى منذ رأته لآخر مرة . ولم تفهم أمى سر تغيره ، ولم تجرؤ على سؤاله ، إنما هزت رأسها فى حيرة ، ثم عادت إلى قيادة الخيل بعد أن مر الموكب من تحت أقواس قنطرة باجليونى ، واختفى داخل الكنيسة . قالت بالفرنسية التى ازدادت ذخيرتها منها كماً لانوعاً :

— فيم تفكر؟

قال فى انحناءة ، وقد وضع يده على قلبه ، ونظر إليها معجباً :

— أفكر فى أن المدموازيل قد استفادت كثيراً من إقامتها فى فرنسا

والنتيجة غاية فى الإبداع . .

وتخضب وجه أمى بحمرة الخجل ، ولكنها لأمر ما لم تطرب لمديحه اللبق ، بقدر ما كانت تطرب فيما مضى لكلمات إعجابه الخشنة ، كان فى تلك الأيام يربت على رأسها ، ويدور حولها فى الحفلات ويقول بابتسامة مخلصة : « شكلك فى مجموعه ظريف ! » . إن هذا الأسلوب الحديد لا يعجبها ، فعلى الرغم من نظرة الإعجاب ، كان عدم الاهتمام يرن فى حديثه .

قالت تحدث نفسها فى خيبة أمل ، رغم تظاهرها بالمرح والهدوء :

« إذا كان هذا ما سيصير إليه عندما يكبر ، فالأفضل أن يبقى

صبيّاً . »

وعندما وصلت إلى البنك ، وجدت البريد العزيز الذى تنتظره من

البيت ، فأسلمت الأعنة للورى ، وجعلت تقرأ سعيدة ، والعربة تسير بها

في الطريق المتعرج الظليل ، بين الأسيجة الخضراء والورود المزدهرة  
تحية لفصل الصيف .

قالت وهي تنظر بحزن إلى إحدى صفحات الخطاب :

— تقول والدتي إن صحة بث تزداد سوءاً ، وكثيراً ما كنت أشعر بأن  
الواجب يقضي على بالعودة إلى البيت ، ولكنهم جميعاً يلحون على بالبقاء ،  
ويعتقدون أنها فرصة لن تتاح لي مرة أخرى ، ولذلك بقيت عملاً برأيهم .

قال وهو يقترب منها ، وينظر إليها نظراته القديمة :

— أحسنت بالبقاء يا عزيزتي ، وليس أدعى إلى غبتهم وراحة بالهم  
من أن تستمتعي بوقتك سعيدة هائلة .

وانزاح الخوف الذي جثم على قلب آمي ، وسرى عنها ، فقد وجدت  
في تصرفه العطوف ونظراته الحانية ثم كلمة الإعزاز التي قالها ، ما أكد لها  
أنها سوف تجد في غربتها هذه ، سنداً تركزن إليه إذا ما أصابها مكروه .  
واستخفها الطرب فضحكت وأرته رسماً صغيراً من ريشتها ، صورت فيه  
أختها جو في ملابس الكتابة ، وقد وقفت شرائط قلنسوتها رأسية متصلة ،  
ومن فيها تخرج جملة تقول : « العبقريه تحترق » .

وابتسم لوري وأخذ الصورة وأودعها جيب سترته ، حتى لا يطيرها الهواء ،  
وراح ينصت في اهتمام إلى آمي وهي تقرأ عليه الخطاب المرح الذي تلقته .  
ووقفت بهما العربية بين خرائب القلعة القديمة ، فقالت آمي وهي  
تهبط إلى الطواويس الرائعة التي أقبلت عليهما تنشد الطعام :

— هذا ولا شك عيد بهيج ، تحققت فيه كل أسباب السعادة ؛ ففي الصباح جاءتني الهدايا ، وبعد الظهر تلقيت بريداً من الأسرة وفزت بلقائك ، وفي المساء ينتظرني حفل رائع .

ووقفت تضحك وتتسلى بإلقاء فتات الخبز إلى الطيور الجميلة ، وكما تفحصت لورى من قبل ، استبد حب الاستطلاع بلورى ، فراح يفحصها بنظراته ، ليرى ماذا فعل الزمان بها ، وما أحدثته الغيبة فيها من تغيرات . ولم يجد لورى بها ما ضايقه أو خيب رجاءه ، بل كانت على العكس محط رضاه وإعجابه : حقيقة أنها كانت تتصنع في الحديث والحركات أحياناً ، ولكنها ظلت كعهده بها رشيقة جميلة مرحة ، ولم يزد عليها سوى شيء لا يمكن التعبير عنه ، في طريقة الملابس والحركة ، هو ما نسميه بالأناقة . كانت تتميز دائماً بالنضج الباكر ، وقد أفادت من رحلتها خبرة في أسلوب الكلام والمشى ، فبدت امرأة محنكة أكثر من حقيقةها البريئة الغريرة ، كما ظلت محتفظة بعزمها القوى وصراحتها الأصلية اللذين لم يتأثرا بنهاى طلاء أجنبي .

لم يقرأ لورى كل هذه المعاني في وجهها وهي تطعم الطواويس ، ولكنه رأى فيها من بواعث الرضا ما جعله يحتفظ في قلبه بصورة جميلة ، لفتاة وسيمة تنعكس أشعة الشمس المشرقة على ثوبها الناعم وخديها المتوردين ، وشعرها الذهبي الوهاج ، وتزيد بحسنها جمال المنظر الطبيعي الذى تقف في وسطه .

وحين صعدا معاً إلى الهضبة الحجرية التي تتوج التل ، لوحت آى بيدها كأنما ترحب بمجىء الفتى إلى بقعتها المفضلة . قالت وهى تشير هنا وهناك :

— أتذكر الكاتدرائية ؟ والصيادين وهم يجرون شباكهم فى الخليج ؛ ثم الطريق إلى فيلا فرانكا وبرج شوبرت ؟ أتذكر ما هو أجمل من هذا كله ، أى تلك البقعة اللامعة فى وسط البحر ، التى يسمونها جزيرة كورسيكا ؟

قال بلا اهتمام :

— أذكرها . . إنها لم تتغير كثيراً .

قالت آى وهى تتمنى أن يشاركها فى سرورها ومرحها :

— ترى كم تدفع چو ، ل ترى هذه البقعة اللامعة ؟

و لم يزد رده عن كلمة « نعم » ، ثم التفت إلى البحر يبحث بأنظاره عن تلك الجزيرة التى زاد اهتمامه بها من أجل شخص أعز عليه من نابليون .

قالت آى وهى تجلس استعداداً لحديث ممتع :

— نأملها ملياً من أجل چو ، ثم تعال وحدثنى عما مضى من أخبارك

كلها . .

ومع أن لورى جلس بجانبها يجيب على أسئلتها بصراحة ، غير أنها لم تشعر من حديثه بما كانت تنشده من متعة ، ولم تعرف منه أكثر من أنه جاب القارة الأوربية وزار اليونان . وبعد ساعة قضياها فى السير هنا

وهناك ، عادا إلى البيت راكبين ، حيث قدم تحياته واحترامه لمسزكارول ثم غادر الفندق على أن يعود في المساء .

وجدير بالذكر أن أمى عنيت بتزيين نفسها في تلك الليلة ، فقد غير بعد القى عنها طوال هاتين السنتين نظرتها إليه ، وجعلها ترى صديقها القديم في ضوء جديد . ولم يعد لورى ذلك « الصبي » ، بل أصبح رجلا وسيماً ترتاح إليه النفس . وأحست رغبة في أن تعجبه ، وكانت تعرف مواطن الحسن في نفسها ، فراحت تبرزها وتعنى بها بدوق ومهارة ، وهما رأس مال كبير لفتاة مثلها جميلة ولكنها معدمة :

وكانت أقمشة الترتان والتل رخيصة الثمن في نيس ، فكانت تستعملهما في مثل هذه المناسبات . وتبعاً للطراز الإنجليزي الرصين ، الذى يليق بالفتيات ، تزينت بزهور طبيعية ، وأساور قليلة ، وحلى رخيصة الثمن ولكنها جذابة جميلة . وكانت الروح الفنية تتغلب عليها أحياناً فتتحدلق في تصفيف شعرها ، أو ترتدى ملابس كلاسيكية غريبة ، أو تتخذ وقفات تشبه فيها بالتماثيل ، ولكننا نغفر لها هذه الهنات ، فبكل منا نواح ضعيفة ، وللشباب نزوات تسر أنظارنا وتطرب قلوبنا .

قالت أمى تحدث نفسها وهى تلبس ثوب فلو الأبيض الحريرى القديم وتغطيه بغلالة جديدة برزت من بين ثناياها اللامعة كتفاها الناصعتان ورأسها المتوج بشعرها الذهبى الذى صففته على شكل فنى جذاب :

« أريده أن يرانى فى أجمل حال ، ليخبرهم بذلك عند عودته . »

وكانت من الذكاء بحيث لم تتصنع في تصفيف شعرها ، بل جمعت خصلاته الغزيرة وعقصتها فوق مؤخر رأسها في عقدة بسيطة . وكانت تقول لمن ينصحها بتجعيد شعرها أو جدله :

— أعرف أنني لا أتبع الطراز الحديث ، ولكن طريقي في تصفيف شعري تناسبني جداً ، وأنا لا أحب أن أبدوني شكل مخيف .  
ولما لم يكن لديها من أدوات الزينة ما يناسب هذا الحفل الهام ، فقد ضمت أطراف ثوبها بزهور الأزاليا ، وزينت أكتافه بعناقيد خضراء رقيقة ، وتطلعت في غبطة إلى حذاءها الأبيض المصنوع من الساتان، وقد تذكرت حذاءها القديم الذي كانت قد طلته باللون الأبيض ؛ ثم لبست الحذاء وراحت تسير به في الغرفة جيئةً وذهاباً ، وهي معجبة بقدميها الارستقراطيتين .

قالت وهي تنظر في المرأة إلى نفسها بعين ناقدة ، وقد أمسكت في كل يد من يديها بشمعة مضيئة : « إن مروحتي الجلديدة تتلاءم جداً مع زهوري ، وقفازي منسجم جذاب ، والدنتلا التي تزين منديل عمتي توافق لون ثوبي ، ولو كان لي أنف وفم من الطراز الكلاسيكي لا اكتملت بهما سعادتى » .

وعلى الرغم من هذا العيب الذي كان مصدر عذابها ، بدت في تلك الليلة ارشقى وأجمل من المعتاد . وكانت تؤمن أن الإسراع في المشي لا يناسبها ، والخطوات المتثددة تلائم طولها الفارع ، فخرجت من غرفتها

تخطر في مشيتها ، وسارت إلى القاعة الكبرى تنتظر لورى ، ثم وقفت تصلح هندامها تحت أنوار الثريا الكبيرة ، فكان لانعكاس الضوء على شعرها أثره الجميل ؛ ولكنها لم تقف طويلاً في مكانها هذا ، فبعد تردد قصير سارت إلى ركن بعيد ، كأنما أخرجتها رغبتها الصبيانية في أن تكون أول مع يقع عليها نظره عندما يدخل . وقد أحسنت صنعاً بذلك ، إذ أن لورى تسلل إلى القاعة في غفلة منها ، فلما رآها ، كانت تقف أمام النافذة البعيدة ، وقد أدارت رأسها في لفطة صغيرة ، وضمت أطراف ثوبها بإحدى يديها ، ومن خلفها انسدت الستائر الحمراء ، فأبرزت قوامها النحيف وجسدها الناصع ، وعندئذ خيل إليه أنها تمثال جميل أحسن اختيار مكانه .

ونظر لورى إليها برضاً كانت تتمنى أن تراه في عينيه ، وقال :

— مساء الخير أيتها الإلهة ديانا !

وكان لورى مرحباً على غير عادته ، وكان مجرد تفكيرها في أنها ستدخل قاعة الرقص مستندة إلى ذراعه الأنيقة ، يملأ قلبها سروراً وغبطة ، فأجابت باسمه :

— مساء الخير أيها الإله أبولو!

قال وهو يقدم لها باقة جميلة في ماسك أنيق للأزهار ، كثيراً ما كانت تراه في نافذة محل الزهور الفخم ، فتمنى الحصول عليه :

— هذه زهورك ، ولقد نسقتها بنفسى على غير الطريقة التي تكرهينها والتي كانت حنة تسميها « الباقة البلهاء » .

قالت في امتنان :

— هذا كرم عظيم منك ، ولو كنت أعلم بحضورك اليوم ، لأعددت لك بالمثل هدية ، ولو أنها لن تكون في جمال هذه .

قال لها ، وقد شبكت الماسك الفضي حول معصمها :

— شكراً ، إنها أقل مما يجب ، ولكنها ازدادت الآن جمالا .

قالت :

— خل عنك هذه الأقوال .

قال :

— كنت أظن أنك تحبين هذا النوع من المجاملات .

قالت :

— ليس منك ، فعجاملاتك تبدو مصطنعة ، وأنا أفضل عليها

طريقتك القديمة الحسنة في إبداء إعجابك .

قال بارتياح ملحوظ :

— يسعدني أن أسمع منك هذا الكلام .

ثم زرّها قفازيها ، وسألها إن كان رباط رقبته في موضعه المناسب

كما تعود في الماضي أن يفعل ، عندما كانا يذهبان معاً إلى حفل ما .

واجتمع عقد المدعويين في قاعة الطعام المستطيلة ، وكانت ليلة لا

يتأق مثلها إلا في القارة الأوربية . فقد دعا الأمريكيون الكرماء كل من

يعرفون في مدينة نيس ، ولما كانوا لا يتحيزون ضد ذوى الألقاب ، فقد

كان ضمن المدعوين عدد قليل منهم ، أضفوا بوجودهم على الحفل بهجة ورواء : فهذا أمير روسي تنازل بالجلوس ساعة في صحبة سيدة ضخمة الحجم ، تلبس ثوباً من المخمل الأسود ، وتحيط جيدها بعقد من اللؤلؤ . وذلك كونت بولندي في الثامنة عشرة من عمره ، كرس وقته لتسليمة السيدات ، وبذلك اكتسب رضاهن عنه ، فقلن إنه فتى لطيف جذاب . وكان هناك أيضاً شريف ألماني ، جاء الحفل جرياً وراء طعام العشاء وحده ، وراح طول الوقت يحوم في أرجاء القاعة ، بطريقة غامضة ، بحثاً عن شيء يلفتهمه . كما حضر سكرتير البارون وتشيلد الخاص ، وهو فتى فارغ الطول يرتدي حذاء ضيقاً ، وبيتسم دائماً ، كأنما اسم سيده البارون قد أضفى عليه هالة ذهبية . وكان بين المدعوين فرنسي من أصدقاء الإمبراطور ، ضخم الجثة مغرم بالرقص ، فراح يشبع غرامه به طول الوقت . وجاءت ليدي دي جونز لتزين الحفل بأفراد أسرهما الثمانية . وكان الحفل يزخر بالفتيات الأمريكيات ذوات الأقدام الرشيقة والأصوات المرتفعة الحادة ، وبالإنجليزيات الحميلات بلاروح ولا حيوية ، ثم بعدد قليل من الفرنسيات ممن ليس لهن من الحسن نصيب ، وإن كن ماهرات لعوبات . هذا بالإضافة إلى الجمع المعتاد من السياح الذين اندمجوا في الحفل مسرورين . وكانت الفتيات على اختلاف جنسياتهن يرقصن مع الشبان في حين وقفت أمهاتهن على الجانبين يراقبنهن في غبطة وانشراح . ومن السهل على أية فتاة في مقتبل الشباب أن تتصور مدى سعادة

آمى ، وهى تحتل بجانب لورى مركزاً بارزاً فى تلك الليلة : كانت تعرف مدى حسنهما وأناقتها ، وكانت تحب الرقص وتتنقنه كل الإتقان ، فراحت ترتشف من مناهل المتعة منتشية بشعور المرأة حين تكتشف سلطانها على المملكة الجديدة ، التى ولدت لتحكمها بجمالها وشبابها وعفتها وأنوثتها . ولكن سعادتها لم تشغلها عن آلام غيرها ، فانتابها الأسف لما رأت بنات ليدى ديفيز المحرومات من الجمال والأناقة ، لا يجدن فى الحفل رفقاء سوى أب مقطب الأسارى وثلث عمات أشد تقطيباً . وقد انحنت هن فى ودّ زائد وهى فى طريقها إلى الرقص ، وكانت لفنة لطيفة منها ، سمحت هن برؤية ثوبها ، كما أثارت فيهن منتهى الفضول لمعرفة ذلك الصديق الممتاز الوسيم الذى يصحبها . وعند ما عزفت الفرقة أول أنغامها الراقصة ، تورد وجه آمى ولمعت عينها ، وأخذت تطرق الأرض بحذاءها فى صبر نافذ ، لتلفت نظر لورى إلى رغبتها فى الرقص ، ولذلك كانت صدمتها لاتوصف حين قال لها بصوت غاية فى الهدوء :

— ألدريك مانع من أن نرقص ؟

قالت :

— لا مانع على الإطلاق ، والناس يرقصون عادة فى مثل هذه الحفلات . وأمام جوابها السريع ، وسيماء الدهشة التى بدت عليها ، رأى الفتى أن يسرع بإصلاح خطئه فقال :

— أقصد بسؤالى الرقصة الأولى ، فهل تمنحينى هذا الشرف ؟

قالت :

— أعطيك رقصة واحدة إذا أمكنني التخلص من إلحاح الكونت .  
إنه راقص بارع ، ولن يضيره أن يتنازل لصديق قديم مثلك عن إحدى  
رقصاته معي .

وكان غرضها من هذا الكلام أن تؤثر فيه ، وتريه أنها ليست ممن  
يستهان بهن .

قال :

— إنه صبي وسيم ، ولكنه أقصر قامة من أن يعتمد عليه !

ثم أضاف ينشد قطعة من الشعر :

« إنها ابنة الآلهة

قامتها الفارعة رائعة

وجمالها الساحر أروع »

وكان هذا كل ما قاله لورى فى سبيل إرضائها .

كانت المجموعة الراقصة التى انضموا إليها كلها من الإنجليز ،  
فاضطرت آى أن تسير فى الرقص بطريقةهم المزوقة ، مع أنها كانت  
تفضل رقصة الترانتيلا . ولما انتهت الرقصة الأولى ، سلم لورى آى إلى  
الكونت « الصبي الوسيم » ، وذهب إلى فلو يحببها ويراقصها ، دون أن  
يحجز لنفسه رقصة أخرى مع آى أو يطلب إليها الاشتراك معه فيما يلى من  
مباهج الحفلة . وشعرت آى بإهماله ، فاعتزمت أن تؤدبه عليه ، لذلك

شغلت نفسها عنه بغيره حتى موعد العشاء ، وإن كانت تنتوى في قرارة نفسها أن تصفح عنه ، إذا ما أبدى ما ينم عن توبته واعتذاره . وقبل أن تبدأ الرقصة التالية ، وهي البولكا المزدوجة ، أقبل عليها متباطئاً ، يطلب منها أن تراقصه ولم تجد في لهجته الحماسة التي ترضى كبرياءها ، فاعتذرت ببرنامج رقصاتها الحافل ، وظلت عند رفضها رغم محاولاته الفاترة في إقناعها بالعدول عنه . وعندما انسابت مع الكونت الصغير إلى حلبة الرقص ، رأته يجلس إلى جوار عمتها ، وقد بان على وجهه سمات الارتياح ، مما أكد لها أنه كان يطلب مراقبتها تأديبة للواجب .

ورأت في تصرفه هذا غلظة لا تغتفر ، لذلك أهملت شأنه وقتاً طويلاً . وعندما كانت تعود إلى عمتها بين الرقصات لتستريح لحظة ، أو تصلح مشبك ثوبها ، تتشاغل عن وجوده ولا تبادل له سوى كلمة أو كلمتين . وفعل سلوكها معه فعله المنشود ، فراح يتبعها بنظراته راضياً مغتبطاً وهي ترقص في الحلبة بمنهى الرشاقة والإتقان . لم تكن تقفز في رقصاتها في خشونة ، أو تتحرك بلا هدف ، كما يفعل غيرها من الفتيات ، إنما كانت تنساب مع أنغام الموسيقى في تناسق من يجب الرقص ويقدره .

وكانت النتيجة مرضية للغاية ، فقبل أن ينتصف الحفل ، كان قد وصل إلى رأى قاطع وهو : « إن آتى الصغيرة ستصبح امرأة جذابة بمعنى الكلمة » .

ودبت الحياة في الحفل ، وسرعان ما سادت الروح الاجتماعية في

الموجودين ، فأشرقت الوجوه سعيدة بعيد الميلاد ، وامتألت القلوب بنشوة الفرحة ، وخفت أقدام الراقصين في الحركة ، وتفنن الموسيقيون في العزف وأخذتهم نشوة الجماعة ، فعزفوا في مهارة ، والناس من حولهم يرقصون ، وكان من لا يرقص منهم يبدي إعجابه بحرارة وحماسة . وبينما ظل حال آل ديفيز سيئاً معتماً ، راح آل جونز يرقصون كقطع من الزراف . وكان السكرتير ذو الهالة الذهبية ، يمرق في المرقص كالشهاب وبرفته سيدة فرنسية جميلة ، تفرش الأرض بذيل ثوبها الحريري الطويل ؛ أما الشريف الألماني فقد وجد ضالته في مائدة الطعام ، فجلس إليها سعيداً يلتم الأصناف بشرهة أثارت استياء الخدم ، لما تركه من آثار مدمرة . وسجل صديق الإمبراطور لنفسه مجداً ، فقد اشترك في كل رقصة سواء كان يعرفها أولاً يعرفها ، وكان مرحة الصبياني مسلياً ولافتاً للأنظار ، فعلى الرغم من سمته ، كان يرقص مثل كرة من المطاط : يجرى ويلف ويقفز فيحتقن وجهه وتلمع صلغته ، وتتطاير أطراف سترته في عنف . وحين سكنت الموسيقى ، راح يمسح قطرات العرق الذي تصبب على جبينه ، ويوزع ابتساماته على الأصدقاء هنا وهناك .

وتحولت الأنظار إلى آمي وصديقها البولندي ، وأعجب الناس بحماستهما المتعادلة ، وحركاتهما الخفيفة المتناسقة ، حتى إن لوري لم يملك إلا أن يتبع وقع الحذاء الأبيض ، وهو يرتفع ثم يهبط في نشاط ، كأنما تحركه أجنحة خفية لا تكل . وعندما اصططحها الكونت الصغير إلى

مكانها ، وهو يعتذر عن اضطراره إلى الانصراف من الحفل مبكراً ، كان التعب قد هدَّها في الواقع ، فجلست تستريح ، وهي ترقب من طرف خفي ، وقع العقاب الذي أنزلته بفارسها المذنب .

أدركت الفتاة لأول وهلة أنها وفقت في عقابه . فعواطفنا ونحن في الثالثة والعشرين تجدد بلسماً في رفقة الأصدقاء ، مهما كانت شدة الصدمة التي لاقتها ، وأرواحنا الفتية تنتعش بشراً بسحر الجمال والأضواء والموسيقى والحركة . وقد حرم لورى من هذا كله بانشغال آوى عنه ، فما إن عادت حتى نهض يقظاً يقدم لها مقعده ، ثم أسرع إلى غرفة الطعام يحضر لها بعض ما تأكله . قالت لنفسها وهي تبتسم راضية : « كنت واثقة بأن هذا سيفيده كثيراً » .

ووقف لورى يروح لها بإحدى يديه ، ويحمل في اليد الأخرى قلدح القهوة . قال :

— كأنك إحدى لوحات بلزاك .

فأخذت تمسح خدها بقفاها الناصع ، ثم أرته إياه ، وهي تقول ببساطة أضحكته :

— هذا الأحمر ثابت لا يبهت لونه .

سألها وهو يلمس طرفاً من ثوبها الشفاف حركة الهواء فارتكز على ركبته :

— ماذا تسمين هذا القماش ؟

قالت :

— إيليوجن .

قال :

— اسم جميل لنسيج جميل . أهو نوع جديد ؟

قالت :

— بل قديم كالجبال ، وقد رأيت فتيات كثيرات يلبسنه ، ولكنك لم تدرك جماله إلا الآن ، فيالك من غبي !

قال :

— ولكني لم أره عليك من قبل ، وهذا كما ترين سبب الخطأ .

قالت :

— هذا الكلام ممنوع ! والأفضل أن أحتسى القهوة ، فمثل هذه

المجاملات تثير أعصابي .

وجلس لورى منتصباً أمامها ، وتناول صحنها الفارغ في خضوع ، وهو يشعر بلذة غريبة في طاعة أوامر « آمي الصغيرة » ، وكانت قد تغلبت على خجلها السابق ، وأحست برغبة جامحة في أن تعبت به وتسيطر عليه ، شأن الفتيات مع من يبدين لهن الخضوع من الرجال المهذبين .

سألها وهو ينظر إليها نظرة فاحصة :

— أين تعلمت هذه الأساليب ؟

— أجات وهي تفهم تماماً ما يعنيه ، ولكنها تتظاهر بالجهل لتجبره على الإفصاح عن غرضه :

— أرجو أن تفصح عما تعنى بكلمة « الأساليب » ، فإنى أراه تعبيراً غامضاً .

قال ضاحكاً ، وقد غلب على أمره :

— إنها الطريقة العامة فى اللبس والتصرف ، وارتداء نسيج الإيلوجين . واغتبطت آى لهزيمته ، ولكنها أبت أن تفصح عن ارتياحها ، وقالت فى استحياء :

— إن الحياة الأجنبية تصقل الإنسان رغم أنفه ، وأنا أدرس كما أهرؤ! أما بخصوص الإيلوجين هذا ، فهو نوع رخيص من التل ، والتزين به لا يكلف شيئاً ، ومن عادى أن أستغل مواردى المتواضعة الفقيرة أحسن استغلال .

وندمت آى على كلماتها الأخيرة ، خشية أن تكون مجافية للذوق السليم ، ولكن لورى أعجب بها جداً ، ووجد نفسه يقدر ويحترم الشجاعة والصبر فى سبيل الحصول على الفرصة ، ويملج روح المرحة التى تكسو الفقر بغلالة من الزهور . ولم تفهم آى سر نظرته العامرة بالعطف ، أو لماذا ملأ برنامج رقصاتها باسمه ، وكرس لها وقته ما تبقى من السمرة . ولكن الدافع لهذا التغيير الطيب ، كان نتيجة لأفكار جديدة ، من تلك الأفكار التى تطوف أحياناً برأس أحدنا ، فيتلقاها الآخر دون أن يشعر .



## الفصل الثامن والثلاثون

### على الرف

في فرنسا ، تقضى الفتيات وقتهن في ملل وسأم حتي يتزوجن ، وإذا  
ذاك يتخذن مثلهن الأعلى من كلمة « نجيا الحرية » ! أما في أمريكا  
فالفتيات يأخذن بالحرية في سن مبكرة ، ويستمتعن بحرياتهن في حماسة  
جمهورية ؛ فإذا تزوجن وأصبحن أمهات ، يتنازلون عن عروشهن لأول  
ولى للعهد يرزقن به ، ويعيشن في عزلة تشبه الأديرة الفرنسية ، وإن كانت  
أقل منها هدوءاً . وسواء رضين أم كرهن ، فالواقع أنهن يوضعن على الرف

حالما تنتهى مراسم الزواج وما يصاحبها من بهجة الزفاف . وقد تقول كثيرات منهن فى دهشة ، ما قالت سيدة جميلة ذات يوم : « لى مازلت جميلة كما كنت ، ولكن أهدأ لآ يعيرنى التفاتاً لآنى متزوجة » .

ورغم أن مبيج لم تكن يوماً مشهورة بالجمال أو بالأناقة ، إلا أنها لم تشعر بأنها وضعت على الرف ، إلا بعد أن بلغ طفلها العام الأول من عمرها ، وذلك لأنها كانت تعيش فى عالمها الصغير العامر بالبساطة والعادات القديمة ، وكانت تشعر بأنها محبوبة مقدره أكثر من أى وقت مضى .

ولما كانت شابة مليئة بالأنوثة ، فقد ذهبت غريزة الأمومة فيها إلى أقصى حد ، وحملتها على الانصراف كلية إلى العناية بطفلها ، وشغلتها بأمرها عن كل شىء وكل إنسان . وأمضت أيامها ولياليها تفكر فيهما بحب أنساها واجبها نحو جون ، فركته لرحمة الخادمة الإيرلندية الشفيقة ، التى عهد إليها بشئون الطهى بعد مولد الطفلين . ولما كان جون يحب الحياة العائلية بطبعه ، فقد افتقد الرعاية التى اعتادها من زوجته ، ولكنه رضى أن يتخلى عن راحته إكراماً لطفليه ، مؤمناً — بجمله الرجالى — أن السلام لن يلبث حتى يعود إلى البيت . ولكن أشهراً ثلاثة مضت ولم يعد السلام المرتقب إلى البيت ، وكانت مبيج خلال هذه المدة مرهقة عصبية المزاج ، تكرر وقتها كله لأولادها ، وتترك تدبير شئون البيت لكيتى الطاهية . ولم تكن كيتى ممن يتحمسن فى أداء العمل ، فأخذت

الأمر على عواهنها ، واختارت أن تقدم لعميد الأسرة أبسط الطعام وأنفذه ، فكان يخرج من البيت كل صباح وقد اختلطت عليه الأوامر والطلبات الصغيرة التي قدمتها « ماما » الحبيسة مع طفلها ؛ فإذا عاد في المساء مشتاقاً إلى قبلة الترحيب من أسرته ، بادرت زوجته بكلمة « هُـسْ ! » لقد ناما لتوَّهما بعد عناد طول اليوم . وإذا اقترح نوعاً من التسلية صاحت به : « لا ، فهذا يقلق الطفلين » . وإذا ألمح لها يوماً بالخروج معه لسماع محاضرة أو حضور حفلة موسيقية ، أجابت وفي عينيها لوم وعتاب : « أيليق بنا أن نترك الطفلين وحدهما من أجل مسراتنا ؟ » . واضطرب نوم جون : تارة بسبب صراخ الطفلين بالليل ، وتارة أخرى لحركة ميج وهي تتسلل كالشبح في الظلام لتطمئن عليهما كل ساعة ، أما وجبات الطعام فلم تعد لها لذة لكثرة ما تعودت ربة البيت أن تنصرف عن المائدة قبل أن تتم نصف طعامها إذا سمعت صيحة من عش الصغيرين بالدور العلوى . ولم يعد يهنا بقراءة صحيفة المساء ، لأن مسز بروك ، التي لم تعد تهتم إلا بأخبار البيت وشثونه ، تلاحقه بمتاعبها ، فيختلط المغص الذي أصاب ديمى بقائمة سفن الشحن ، ويتدخل وقوع ديزى على الأرض في أسعار الأوراق المالية بالبورصة .

وعاش جون المسكين محروماً من جميع أسباب راحته ، فقد أخذ الطفلان منه زوجته ، وقلبا بيته كله إلى دار للحضانة ، ولاحقته كلمة « هس » التي دأبت ميج على زجره بها كلما جاء من الخارج ، حتى بات

يشعر أنه وحش متطفل لا مكان له في أرض الطفولة المقدسة . وتحمل الأب آلامه صابراً ستة شهور كاملة ، ولكنه لما فقد الأمل في عودة السكينة ، فعل ما يفعله الآباء المهجورون عادة ، بأن راح يبحث عن الهدوء في مكان آخر .

كان صديقه سكوت قد تزوج وأقام في بيت غير بعيد ، وكانت مسر سكوت سيدة مرحة حسناء لا يشغلها أمر عن أن تكون بشوشة لطيفة المعشر ، ولذلك كانت حجرة استقبالها مشرقة جذابة ، ورقة الشطرنج دائماً على استعداد ، والمعزف يردد أجمل الأنغام ، والحديث المسلى البهيج يدور بمهارة ولباقة ، والعشاء البسيط مجهز في أناقة تغرى بالإقبال عليه .

وكان جون يفضل الجلوس إلى نيران مدفأته ، ولكن غرفة جلوسه كانت مقفرة لا حياة فيها ، فاستعاض عن فردوسه المفقود بصحبة صديقه وجاره ، واعتاد أن يلجأ إليه كل مساء ساعة أو ساعتين ، حين تخلو غرفة استقباله من الزائرين ، وتنصرف عنه زوجته ميج إلى ولديها الصغيرين تنشد لهما مالا نهاية له من الأغاني والأهازيج .

ورضيت ميج بهذا الوضع الجديد في أول الأمر ، وسرها أن يتسلى جون بصحبة صديقه ، بدل أن يجلس في غرفة الاستقبال نعان ، أو يتجول في أرجاء البيت فيوقظ الصغيرين بوقع خطواته . ولكن ما إن انقضت فترة التسنين المتعبة ، وتعود الإلهان الصغيران أن يناما في أوقات منتظمة ، حتى بدأت ميج تحس بغياب جون وتفنتقه ، وأصبحت سلة

التطريز تثقل عليها عندما لا تجد زوجها يجلس بجانبها كعادته القديمة ، وقد أسند قدميه إلى -حاجز المدفأة في استرخاء ودعة . وغاب عنها أنها أهملت شأنه ليالى لا تعد ، فثارت كبرياؤها لإهماله شأنها ، ولكنها كتبت عواطفها ولم تطلب منه أن يبقى معها . وأجهدتها السهر والفكر والهجم ، فتهدمت أعصابها ، ووصلت إلى تلك الحالة الثائرة السيئة التي تعترى الأمهات أحياناً ، عندما يهدهن الإرهاق فيضقن بشئون البيت ومشاكله ، وتفقدن الحاجة إلى الرياضة مرحهن وبشاشتهن ، ويجعلهن الإفراط في شرب الشاي - وهو شراب الأمريكيات المفضل - يشعرن كأنهن كتلة من الأعصاب بلا شحم ولا لحم .

وكانت تنظر إلى وجهها في المرآة وتقول :

- لقد أصبحت عجوزاً شمطاء ، ولم يعد جون يجد فيّ ما يسليه ويسره ، ولذلك تحول عنى بعد أن ذبلت إلى زوجة جاره الجميلة المرحّة . . ولكن طفليّ يجبانني ولا ينفرهما مني نحولي واصفراري ، ولا يعنيهما أن جعلدت شعري أو أرسلته مهملاً . إنهما عزائي وسلوتي ، وسيعرف جون في يوم من الأيام كيف ضحيت بشبابي راضية من أجل ولدي . . . أليس كذلك يا صغيري العزيزين ؟

وتجيب ديزي على نداء أمها العاطفي بمناعة بريئة ، ويرد ديمي بصبيحة عالية ، فتشغل مبيج مؤقتاً عن همومها ، وتنسيها لذة الأمومة لواعيج وحدتها . ولكن هذه الهموم لا تلبث أن تعود حين ينغمس جون في قراءة

الأخبار السياسية ثم يسارع إلى بيت سكوت يناقشه في تطوراتها الهامة ، غير مدرك كم تحتاج زوجته إلى صحبته ولا تجدها . ومع ذلك أصرت ميج على الصمت ، ولم تشأ أن تلفت نظره بكلمة ، حتى وجدت أمها ذات يوم دامعة العينين ، فألحت في معرفة سر بكائها ، فإن تدهور حالة ميج المعنوية لم يفت نظرها الثاقب .

قالت ميج وهي تجفف دموعها في مبدعة ديزى :

— لن أبوح لغيرك بما أعانيه يا أماه . والواقع أنى في حاجة إلى نصيحتك ، لأنه خير لى أن أترمل إذا استمر جون على حاله هذه . سألتها أمها فى قلتى :

— وما هى هذه الحال يا عزيزتى ؟

قالت :

— إنه يغيب عن البيت طول النهار ، فاذا حل المساء وشعرت بشوق لرؤيته وصحبته ، تركنى إلى بيت سكوت . ليس من العدل أن أتحمل متاعب البيت كلها ، وأحرم فى الوقت نفسه من أسباب التسلية . إن الرجال — بلا استثناء — أنانيون لا يحبون إلا أنفسهم .

قالت الأم :

— شأنهم فى ذلك شأن النساء ، لا تلومى جون قبل أن تعرفى مواطن الخطأ من نفسك .

قالت :

— ولكن لاحق له في أن يهملنى هكذا !

قالت الأم :

— ألم تبدئى أنت بالإهمال ؟

قالت ميج :

— ماذا تقولين يا أماه ؟ ظننتك في جانبي ؟

قالت الأم :

— أنا في جانبك من حيث عطفي عليك ، ولكنى أعتقد أنها غلطتك

يا ميج .

قالت :

— وكيف ؟

قالت :

— سأريك كيف كان ذلك . هل أهملك جون مرة واحدة ، عندما

كنت تعطينه من صحبتك ما يريد في أمسياته ، وقت راحته الوحيد ؟

قالت :

— أبداً . ولكنى لا أستطيع الآن ذلك وورائى طفلان أعنى بهما .

قالت الأم :

— بل تستطيعين يا عزيزتى ، وواجبك يحتم عليك ذلك . سأكون

صريحة معك ، واذكرى أن لا تمتك هى أمك التى تعطف عليك .

قالت ميج :

— طبعاً يا أماه ، كلميني كما لو كنت ميج الصغيرة ، فإني في حاجة إلى مزيد من المعرفة منذ جاء الطفلان ، وازدادت مسئوليتي نحوهما .  
وسحبت ميج مقعداً منخفضاً إلى جانب أمها ، وجلست الاثنان يتحدثان طويلاً ، وكل منهما تهز على حجرها طفلاً صغيراً ، وأحست الابنة أن رباط الأمومة لم يكن يوماً ما أقوى منه في هذه الجلسة .  
قالت الأم :

— لقد وقعت فيما يقع فيه معظم الزوجات الصغيرات : أنسأك حبك لطفليك واجبك نحو زوجك ، وهذا خطأ طبيعي جدير بالصفح ياميج ، ولكنه خطأ يجب أن يعالج قبل أن يستفحل أمره ، فالأطفال يجب أن يزيدوا الحب ويقووا الرابطة ، ولا يصح أن يكونوا سبباً في الخلاف والفرقة .  
إنك تتصرفين كما لو كان الطفلان ملكاً لك ، وليس بلحون إلا أن يعولهما وينفق عليهما . لقد رأيت الأمور تجري في هذا الطريق منذ أسابيع ، ولكنني لزممت الصمت راجية أن تنصلح الحال في الوقت المناسب .  
قالت ميج :

— أخشى ألا تنصلح ، وأخاف أن أطلب صحبته فيظن بي غيرة عليه وهي إهانة لا أحب أن تصدر مني . إنه لا يرى مدى حاجتي إليه ، ولست أعرف كيف أخبره بذلك دون أن أتكلم .

قالت الأم :

— اجعلي الحياة في البيت بهيجة سارة فلا يخرج يا عزيزتي . . إنه

يتوق إلى الحياة العائلية التي لا تستقيم بغير وجودك ، فكيف تتأق له بغيته وأنت مقيمة في غرفة الطفلين لا تبرحها إلا لماما ؟

فقلت مبيج :

— ألا ينبغي أن أبقى فيها ؟

قالت :

— ليس كل الوقت ، فطول بقائك فيها يحطم أعصابك ويجعلك عديمة الفائدة ، فضلا عن أن واجبك نحو جون يعادل واجبك نحو الطفلين . لا تهمل زوجك من أجلهما ، ولا تبعديه عن غرفهما . . . علميه كيف يعاونك ، فكانه فيها مكانك سواء بسواء ، والأطفال في حاجة إليكما معاً . أشعريه بأن له نصيباً يقوم به ، ولن يتوانى عن أدائه مخلصاً مسروراً ، وبذلك يتحقق لكما الخير كل الخير .

قالت :

— أهذا ما تظنين حقاً يا أماه ؟

قالت :

— بل أنا على يقين يا مبيج ، واعلمي أني لا أنصح على غير أساس عملي . لقد مررت بهذه التجربة من قبل ، فعند ما كنت أنت وچو صغيرتين ، أحسست أني لن أؤدى واجبي نحوكما ما لم أنقطع لكما تمام الانقطاع . وفعلت ذلك دون تردد ، ورفضت المعونة التي قدمها أبوكما لي ، فانصرف المسكين وتركني أقوم بتجربتي وحدي . . . وجاهدت قدر

طاقتي ، ولكن چو كانت أكثرهما أحتمل ، فكذت أفسدها بكثرة التذليل ، وكنت أنت ضعيفة عليلة فأقلقني أمرك حتى أصابني المرض . وعندئذ تقدم أبوك لإنقاذي في هدوء وسكينة ، وأعاد الأمور إلى مجاريها ، فأدركت مدى المعونة التي يستطيع أن يقدمها لي ، ومنذ ذاك اليوم لا أسير خطوة بدونيه ، وهذا سر سعادتنا العائلية . إنه لا يدع عمله يصرفه عن تحمل متاعبنا الصغيرة ، ولا يسمح لأمر من الأمور أن يلهيه عن مشاركتنا في الواجبات التي تتصل بحياتنا الجماعية ، وأنا بدوري لا أترك مشاغل البيت تصرفني عن الاهتمام بأعماله . كل منا يؤدي واجبه منفرداً في معظم الأعمال ، ولكننا في البيت نعمل دائماً بدأ واحدة .

قالت ميج :

— صدقت يا أماه ، وليتني أكون لزوجي وأولادي ، كما كنت لزوجك وأولادك . . . أرشدني إلى الطريق يا أماه ، وسأعمل برأيك دون تردد .

قالت الأم :

— عهدى بك دائماً مطيعة ، فاستمعي جيداً لنصيحتي . لو كنت مكانك ماتوانيت عن إعطاء جون أكبر نصيب في رعاية ديمي ، فالصبي يحتاج إلى تنشئة خاصة يصح أن تبدأ من الآن . وإذا شئت نفذنا ما سبق أن اقترحتة عليك من إرسال حنة لمساعدتك . . إنها مربية ممتازة ، وليس أحب إليها من رعاية الصغيرين ، فاعهدى بهما إليها ، والتفتي أنت

لأعمال البيت ، وبذلك تجدين متسعاً من الوقت للرياضة ، ويستعيد جون صحبة زوجته ورعايتها ، اخرجى معه كثيراً ، واستردى ابتسامتك ، واشغلى وقتك بالعمل ، فأنت شمس البيت المشرقة إن خبت تعكر الجو وذهب الصفاء . . اهتدى بما يهتم به جون ، واسعدى لما يسعده . . حادثيه وكلميه ودعيه يقرأ لك ويبادلك الآراء والأفكار . عاونه واطلبى معونته . . لا تغلقى دونك أبواب المعرفة ، ولا تعزلى الحياة العامة لأنك امرأة . . تتبى ما يدور حولك من أحداث ، وثقنى نفسك لتفهمى ما جريات الأمور ، وتدركى الأحداث العالمية ، فإن لهذا كله أثره فيك وفيمن حولك .

قالت ميج :

— إن جون رجل غزير المعرفة ، وأخشى أن يظننى غبية إذا سألته فى أمور السياسة وغيرها .

قالت :

— لن يظن بك الغباء ، فهو يحبك ، والحب أعمى عن العيون ، ثم ، من تسألين غير زوجك . . ؟ جربى نصيحتى وسيسعد بصحبتك أكثر من سهرات مسز سكوت .

قالت :

— سأفعل ذلك كله . . مسكين جون ، لقد أهملته بالفعل إهمالاً ذريعاً ، ولكنى كنت أعتقد بصواب ما أفعل ، ولم يشأ هو من جانبه أن يرشدنى .

قالت الأم :

— لقد حاول أن ينكر ذاته أمامك ، ولكنه شعر أخيراً بأنه أصبح كماً مهملاً . إن هذا الوقت هو الذى يشعر فيه الزوجان بدواعى الفارقة باميج ، وهو أصلح وقت لاتحادهما قلباً وقالباً . فالنشوة الأولى لا تلبث أن تخمد ، ما لم يبذل الطرفان عناية خاصة فى المحافظة عليها . وليس أجمل ولا أعز على الأبوين من تلك السنوات الأولى التى يهبهما الله فيها أطفالاً يربيانهم وينشئانهم . لا تجعلى جون يحس بأنه غريب على الطفلين ، ففيهما ما يسعده ويقيه شتى أسباب الفتنة والغواية وسيعلمكما الطفلان كيف تعرفان بعضكما بعضاً وكيف تتحابان . والآن ، وداعاً يا عزىرتى ، فكرى فى نصيحتى ، واعلمى بها إن رأيت فيها خيراً لك ، والله يتولاك برعايته .

وفكرت ميج فى نصيحة أمها ، ووجدتها خير نصيحة ، فشرعت فى تنفيذها ، ولكن المحاولة الأولى لم تتم كما كانت تشهى : فقد أمعن الطفلان — بالطبع — فى استبدادهما دون شفقة ، وسيطرا على البيت بصراخهما وعويلهما ، وأصبحت « ماما » أمة لنزواتهما . ولكن « بابا » لم يكن من السهل إخضاعه . وأحياناً ما كان فؤاد زوجته يتعذب حين يقوم بمحاولة فى ترويض ابنه على بعض الطاعة والنظام ، إذ كان ديمى مثل أبيه فى صلابه الرأى — ولا نقول العناد — إذا اعتزم أن يفعل أمراً أو يأخذ شيئاً ، لا يمكن لقوة أن تثنيه عن عزمه . وكانت ميج تعتقد أن الصغير العزيز لم يبلغ سن التوجيه بعد ، ولكن چون كان يرى عكس ذلك

فبدأ يأخذه بأسباب النظام ويعوده الطاعة . وفهم ديمى من البداية أنه الخاسر فى كل معركة يخوضها مع « بابا » . ولكنه كان - كأمى إنجليزية - يحترم الرجل الذى يهزمه ، لذلك أحب الولد أباه ، وعندما كان يقول له « لا » بلهجته الرزينة الجادة ، تفعل فيه هذه الكلمة أضعاف ما يفعله تدليل أمه الصادر عن حب عميق .

وبعد أيام من الحديث الذى دار بين ميج وأمها ، قررت الشابة أن تجرب قضاء سهرة عائلية مع جون ، فأمرت بإعداد عشاء شهى ، وزينت قاعة الاستقبال مبكرة ، ثم ارتدت أحسن ثيابها ، وتأنقت فى زينتها ، ثم وضعت الطفلين فى فراشهما مبكرين ، حتى لا يعكرا صفوتجربتها المقبلة . ولكن ، يشاء سوء الحظ أن تتملك ديمى إحدى نزواته الموهودة ، فيمضى فى عبثه ويأبى أن يذهب إلى فراشه مبكراً . وعبثاً حاولت ميج أن تسلس قياده : غنت له ، وأرجحت سريره ، وروت له قصصاً مسلية ، وجربت كل شىء يغيره بالنوم ؛ ولكن الشيطان ديمى أبى أن ينام ، وظلت عيناه الواسعتان تحملقان فى الأنوار ، وعلى سياه ما يدل على منتهى اليقظة ، أما ديزى فقد أسلمت جفניה للنعاس على عاداتها الودبعة الطيبة . فقالت له ميج حين سمعت باب الردهة يقفل فى هدوء ، وخطوات زوجها تتجه بنخفة إلى غرفة الطعام .

- ألا ينام ديمى كالولد الطيب ، حتى تعد ماما الشاى لبابا المسكين؟  
أجاب الطفل ، وهو يستعد للاشتراك فى الحادث البهيج :

— وأنا أشرب شاباً !

قالت :

— لا . . . ولكن إذا نمت كأختك ديزى ، أحفظ لك ببعض الحلوى

تأكلها في الصباح ، نم يا حبيبي نم . . !

قال :

— حاضر . .

وأغمض عينيه بشدة ، كمن يتعجل النوم في لقاء الصباح الموعد ، فانهزت ميج هذه الفرصة ، وتسالت خارجة من الغرفة بسرعة لتحيي زوجها بوجه باش . وكانت قد ربطت شعرها بشريط أزرق على الطريقة التي تعجبه ، فلما رأى جون ذلك ، قال في سرور يمتزج بالدهشة :

— لم كل هذا أيها الأم الصغيرة ؟ أنتظرين ضيوفاً ، أم تحتفلين بعيد

ميلاد ، أم هي مناسبة سعيدة لا أعلم بها ؟

قالت :

— لا هذا ولا ذاك ، ولكني سئمت إهمالي زينتي ، فقررت أن أتجمل

على سبيل التغيير . إنك تحرص دائماً على أناقتك مهما كنت متعباً ، فلم

لا أحذو حذوك إذا سمح الوقت ؟

قال الزوج ذو الآراء التقليدية :

— إنى أفعل ذلك احتراماً لك يا عزيزتي .

قالت ضاحكة ، وقد استردت شبابها وجمالها ، وجلست تشاركه في

احتساء الشاي :

— وأنا مثلك يا مستر بروك .

قال :

— أمر جميل يذكركني بأيامنا الأولى . . إن طعم الشاي لذيذ ، فلنشرب  
نخب صحتك يا عزيزتي .

ورفع جون فنجان يرفش الشاي في نشوة من الرضا والسرور ، ولكن  
هذه النشوة لم تدم إلا فترة قصيرة ، إذ ما كاد يضع الفنجان جانبا ،  
حتى تحركت أكرة الباب بهدوء ، وسمع صوت ديمي يقول في ضيق :  
— افتحوا الباب . . أنا قادم . .

فقال ت ميج ترد النداء :

— إنه ذلك الولد الشيطان ، لقد أمرته أن ينام وحده ، ولكن هاهوذا  
يأتي حافي القدمين على الأرض الباردة .

وأقبل ديمي في جلباب نومه الطويل المطرز ، وراح يقفز حول المائدة  
فتهتز خصلات شعره طرباً وسروراً ، ثم قال وعيناه زائغتان بين صحون  
الحلوى الموضوعه فوق المائدة :

— نحن الآن في الصباح ؟ !

قال الأب :

— لا ، الصبح لم يأت بعد ، وما زلنا بالليل ، فيجب أن تعود إلى  
فراشك وتنام حتى لا تتعب ماما ، وبعد ذلك تأخذ نصيبك من هذه الحلوى .

فقال الطفل اللبق ، وهو يشرع في الجلوس على ركبتى أبيه استعداداً  
للاشتراك في الويلة :

— أنا أحب بابا . .

ولكن چون هز رأسه وقال لميج :

— ما دمت أمرته بالنوم وحده ، فعليك أن تحمليه على التنفيذ ،  
ولإعصاك دائماً .

قالت :

— نعم ، بالطبع . . تعال يا ديمى .

وخرجت بالصغير من الغرفة ، ونفسها تراودها بضرب هذا الشيطان  
الذى يطمع في رشوة بمجرد وصوله إلى فراشه ، ولم تخيب ميج أمله هذا ،  
فما إن وصلت به إلى غرفته ، حتى أغراها قصر نظرها بمنحه الرشوة التي  
يتوق إليها ، فأعطته قطعة من السكر ، ثم أدخلته في فراشه ، وأمرته أن  
ينام حتى الصباح .

وقال ديمى : « نعم » ، وهو يمص السكر مزهواً بانتصاره في أول جولة .  
وعادت ميج إلى مكانها ، واستأنف العشاء في سرور ، ولكن سرعان  
ما ظهر الشبح الصغير يدب على الأرض مرة ثانية ، وكشف عن خطأ  
أمه حين طلب بجسارة قائلاً :

— أريد قطعة أخرى من السكر يا ماما . .

قال چون في حزم وجد :

— هذه طريقة مضرّة ، ولن نعرف السلام أبداً حتى يتعلم هذا الطفل كيف يذهب إلى فراشه بانتظام . لقد استعبدك وقتاً طويلاً ، فأعطيه درساً واحداً يضع حداً لكل هذا العبث . ضعيه في فراشه واتركه يا ميج .  
قالت :

— إنه لن يبقى في سريره إلا إذا جلست معه .

قال :

— إذاً دعيني أتولّ الأمر بنفسى ، ديمى . . هيا إلى غرفتك ، واصعد إلى سريرك كما أمرتك ماما .

وأجاب الطفل المتمرد ، وقد مديده إلى الكعكة التى اشتهاها ، وبدأ يقضم فيها فى تحد وهدوء .

— لا . . لن أصعد !

فقال الأب .

— لا تقل هذا الكلام لبابا . وإذا لم تصعد إلى سريرك بنفسك ، حملتك إليه رغم أنفك .

وتعلق ديمى بذيل أمه يحتمى بها وقال :

— اذهب أنت . . أنا لا أحب بابا .

ولكن اجتماعه بأمه لم يجده نفعاً ، فقد تخلت عنه لأبيه وهى تقول :

— كن رقيقاً به يا جون .

وأثارت كلماتها سخط المذنب ، إذ كان يعلم أن تنكر أمه له ، يعنى

اقتراب ساعة الحساب ، وفار مرجل غضبه إزاء حرمانه من كعكته وعودته إلى الفراش عنوة ، وراح يصرخ بأعلى صوته ويرفس برجليه وهو يصعد إلى غرفته . وما إن وضعه أبوه على أحد جنبيه ، حتى انقلب على جنبه الآخر ، ونزل يجرى نحو الباب ، ولكن جون جره إلى الفراش بيد قوية . وتكررت هذه التمثيلية حتى أنهكت قوى الرجل الصغير ، فاكتفى بالنحيب والصراخ والعيويل . وفعلت هذه الجهود الصوتية فعلها في ميج ، فراحت تتألم من أجل ابنها ، ولكن جون جلس بجواره ثابتاً حازماً : لا يربت على رأسه ، ولا يرشوه بالسكر ، ولا يغني له أهازيج النوم ، ولا يقص عليه قصصاً ! وحتى النور أطفأه . وكان وهج نيران المدفأة الأحمر يضيء في الظلام ، فجعل ديمي ينظر إليه بدافع من حب الاستطلاع لا الخوف . وأثارت الأوامر الجديدة سخطه ، وحن الطاغية الصغير إلى لين أمه ، فصاح محزوناً يستغيث بها في صوت ضعيف أنهكه الصراخ . وأثار نداؤه عطفها عليه ، فصعدت تجرى إلى حجرة النوم ، وقالت لزوجها في ضراعة :

— دعني أمكث معه ، وسهداً حالاً يا جون .

قال :

— لا يا عزيزتي ، لقد أمرته بالنوم ، فلا بد أن ينام ولو اضطرت إلى قضاء الليل كله معه .

قالت تدافع عن الصغير ، وتؤنب نفسها لأنها هجرته :

— ولكنه سييكي حتى يمرض .

قال :

— لن يمرضه البكاء ، ولقد بلغ به التعب أقصاه ، وسيغلبه النوم  
وتنتهى المسألة . لا بد أن أعلمه الطاعة ، فأرجوك ألا تتدخلى ، ودعيني  
أعالج أمره بنفسى .

قالت :

— إنه طفلى ، ولن أدعك تحطم نفسيته بهذه القسوة .

قال فى جد وحزم :

— وهو طفلى أيضاً ، ولا أحب أن تفسدى خلقه بهذا التدليل . انزلى

إلى البهو يا عزيزتى ودعيه لى .

وكان من عادة ميج أن تطيع زوجها عندما يتكلم بهذه اللهجة ، ولم

يحدث مرة أن ندمت على طاعتها ، فقالت :

— دعنى أقبله مرة واحدة يا جون .

قال :

— بالتأكيد . قل لماما « ليلة سعيدة » يادىمى ، ودعها تذهب لتستريح

فقد أتعبتها رعايتك طول النهار .

وكانت ميج تظن أن القبلة أقوى سلاح للنصر ، لذلك قبلته

وانصرفت ، فأنهك ديمى فى نشيج هادى ، هدأ بعده فى ركن السرير

الذى عبث غضبه بنظامه .

وبعد لحظات هادئة ، ظن جون أن النوم غلب ابنه الصغير ، فاقرب

من الفراش وهو يقول في نفسه :

— يا للرجل الصغير المسكين ! لقد أنهكه البكاء ، فلاذثره بالغطاء ،  
ثم أهبط إلى ميج وأطمشها .

وما إن نظر الأب يستطلع حال الصغير ، حتى فتح ديمي عينيه ،  
وارتجف ذقنه ومد ذراعه قائلاً وهو يشهق نادماً .

— أصبحت ولدأ طيباً . .

وعجبت ميج ، وهي تجلس على درجات السلم خارج الحجرة ،  
للصمت الطويل الذي أعقب الضجة الصاخبة . وبعد أن سرح بها الخيال  
في عالم من التكهنات ، تسللت إلى الغرفة لتهدئ مخاوفها ، فوجدت ديمي  
مستغرقاً في النوم ، وقد أمسك بإصبع أبيه ، وطوقه بذراعه ، كأنما أدرك  
أن الرحمة عماد العدل ، فنام أكثر تعقلاً وإن كان أشد حزناً . وترك جون  
إصبعه في قبضة الصغير صابراً ، حتى تراخت هذه القبضة ، فرقد بجواره ،  
وقد أضناه جهده مع ابنه أضعاف ما أضناه العمل طول اليوم .

ووقفت ميج ترقب الوجهين النائمين على الوسادة ، وقالت وهي  
تخرج من الغرفة راضية باسمه :

— لا خوف أن أترك ديمي بلحون ، فهو يعرف كيف يسلس قياده ،  
وسيكون عوناً كبيراً لي على متاعب الصغير ونزواته .

وحين نزل جون أخيراً ، وهو يتوقع أن تقابله زوجته غاضبة مهمومة ،  
أدهشه أن يجدها تطرز قلنسوة جديدة بهدوء ملحوظ ، وكانت تحيتها له



رجاء بأن يقرأ لها أخبار الانتخابات إذا لم يكن متعباً . وأحس جون بأن هناك انقلاباً لا يدرك سره ، ولعلمه بأن ميج صريحة لا تكتم سرّاً ، فقد اختار عن حكمة ألا يستفسرها سر هذا الانقلاب ، واثقاً بأنها لن تستطيع كتمانها طويلاً . وراح يقرأ لها مقالا طويلاً ، ويفسر لها ما جاء فيه بأسلوب مشوق جذاب . وأبدت ميج اهتماماً شديداً بالحديث ، فراحت توجه إليه أسئلة بارعة ، وهي تركز فكرها فيما يقول حتى لا يشرد من مشاكل الدولة إلى مشاكل القلنوسة التي تطرزها . وعلى الرغم من هذا المجهود الفكري ، كانت تؤمن في قرارة نفسها بأن السياسة معقدة كالرياضيات ، وأن رسالة السياسيين تنحصر في تبادل الشتائم والسباب ، ولكنها احتفظت بأرائها النسوية لنفسها . وحين توقف جون عن القراءة ، هزت رأسها في أسلوب دبلوماسي مبهم ، وقالت :

— حسناً ، لست أدري في الواقع إلى أى طريق نسير .

وضحك جون ، وأخذ ينظر إليها لحظة وهي تستعرض على يدها بعض الدنتلا والزهور لتزين بها القبعة ، وتبدي من الاهتمام بها أضعاف ما أبدته فيما شرحه لها من أمور السياسة ، فقال يحدث نفسه :

— إنما تحاول أن تستسيغ السياسة من أجلى ، فلأحاول من أجلها أن

أستسيغ شؤون الحياكة والتطريز .

ثم رفع صوته وهو يقول :

— إنها تحفة جميلة ، أهذه ما تسميها قلنوسة الصباح ؟

قالت :

— ليست هذه قلنسوة يا رجلى العزيز ، بل قبعة ، وستكون أجمل  
ما أرتديه فى المسارح والحفلات الموسيقية .

قال :

— أستميحك عذراً !! رأيتها صغيرة جداً ، فأخطأت وظننتها من  
تلك الأشياء الهفافة التى تلبسيتها أحياناً . خبرنى كيف تثبتيتها على رأسك؟.

قالت ، وهى تشرح كلماتها عليها ، وعلى سياها تعبير لا يقاوم من  
الرضا والهدوء :

— قطع الدنتلا هذه تربط تحت الذقن ، وتزين الربطة بوردة ، هكذا...  
قال وهو يطبع على الوجه الباسم قبلة ، ربما أفسدت الوردة التى  
تزين أسفل الذقن :

— إنها قطعة فنية رائعة ، ولكنى أفضل عليها الوجه الذى بداخلها ،  
بعد أن استرد فتوته وسعادته .

قالت :

— يسرنى أنها أعجبتك ، وأريد منك أن تصحبنى ذات ليلة إلى  
إحدى الحفلات الموسيقية ، فقد اشتقت إلى الموسيقى ، وأحب أن استرد  
بها انسجامى . . أسمع من فضلك ؟

قال :

— يسرنى أن أصحبك إلى أى مكان تحبين ، فقد طال بك الحبس ،

والخروج يفيدك إلى أقصى حد ، وسأجد في رفقتك غاية المتعة ، ولكن ،  
خبريني ، من الذى وجهك إلى هذا التفكير الجديد أيتها الأم الصغيرة ؟  
قالت :

— لقد تحدثت مع أمى منذ أيام ، وشرحت لها ما أعانيه من ملل  
وضيق وثورة أعصاب ، فنصحتنى أن أقلل من انغماسى فى هموم الأسرة  
وأعبائها ، واتفقنا أن تقوم حنة برعاية الطفلين ، وأعنى أنا بشئون المنزل ،  
وبذلك يتيسر لى فسحة من الوقت أفضيها فى ترفيه يعالج اضطرابى ،  
ويقبنى شر التحطم قبل الأوان . إنها محاولة أحب أن أقوم بها من أجلك  
ومن أجلى فى الوقت نفسه ، وسأعيد البيت جنة كما كان . لقد طال  
إهمالى لشأنك ، وأملى ألا يكون لديك اعتراض .

ونمر مرور الكرام على مقال جون ، وكذلك على القبة التى كادت  
تنهرس فى غمرة العناق ، إذ كل ما يعنيننا أنه لم يبد اعتراضاً على التغيير  
التدرىجى الذى شمل حياته العائلية من مختلف نواحيها . . حقيقة أن البيت  
لم يتحول إلى جنة خالية من العيوب ، ولكن تنظيم العمل وتوزيعه أشاع  
الراحة والاطمئنان : فقد ترعرع الطفلان تحت رعاية أبيهما ، واستتب  
دعائم الطاعة فى مملكة الصغار ، واستردت ميج مرحها ، فهدأت  
أعصابها بالإكثار من الرياضة والإقلال من المسرات الفارغة ، والاستزادة  
من أحاديث زوجها الودية . وعادت البهجة العائلية إلى البيت ، ورغب  
جون عن الخروج من غير ميج ، أما آل سكوت فقد بدأوا يكثرون من

زيارة آل بروك ، ووجد جميعهم في البيت الصغير مكاناً بهيجاً تغمره السعادة ويظله الرضا والحب . وحتى سالى موغات أقبلت على زيارة ميج وكانت تقول لها : « إن بيتك دائماً يسر الخاطر ، ووجودى فيه ينعشنى ياميج » . ثم تنظر حولها كمن تبحث عن مواطن السحر فيه لتقتنيتها فى بيتها الكبير ، الذى أضاعت الوحشة فخامته وعظمته ، ودبت الوحدة فيه نخلوه من ضجيج الأطفال ، وانصراف ندى إلى حياة لا مكان لها فيها .

ولم تأت السعادة طفرة واحدة ، ولكن الزوجين وجدا الطريق إليها ، وجاءتهما السنوات بأساليب جديدة ، يغترفان بها من كنوز الحب العائلى ، ويستعينان بها على تبادل المعونة التى قد يعرف الفقراء السبيل إليها ، ولا يستطيع الأغنياء شراءها بالمال .

إنه النوع الوحيد من الرفوف التى ترضى الزوجات والشابات والأمهات الصغيرات بأن يوضعن عليه ، آمناً من قلق الدنيا ، حيث يجلدن فى حب أولادهن وطاعتهم حمى من أحزان الفقر ومتاعب الشيخوخة ، ويتمتعن فى رفقة أزواجهن بوفاء الحارس الأمين ، الشريك المخلص فى السراء والضراء .

إن الأولاد زينة الحياة ، والزوج الطيب على حد قول الإنجليز « رباط العائلة » ، وعندما تتوافر هاتان نعمتان لامرأة ، يتبين لها - كما تبين لميج - أن البيت أسعد مملكة لها ، وما من شرف يعدل حكمها لها ، لا كملكة متوجة ، بل كزوجة عاقلة وأم ذكية حنون .



## الفصل التاسع والثلاثون

### لورنس الكسلان

عندما ذهب لورى إلى نيس ، كان ينوى الإقامة فيها أسبوعاً واحداً ، ولكنه مكث شهراً ، إذ كان قد مل السفر والترحال ، فوجد في صحبة آى ما أسبغ على المناظر الأجنبية المحيطة به سحراً من الوطن . وكان في الواقع يتوق إلى التدليل الذى حرمه طويلاً ، فعاد يغترف منه مرثانية ، قانعاً به عن كل تدليل سواه ، فلم تكن رعاية الأغرأب ومجاملتهم له تعدل بعض ما يحس به من سعادة للإعجاب الأخرى ، الذى تغدقه عليه بنات مارش

في البيت . ولم يكن من عادة آمي أن تدلله كأخواتها ، ولكنها فرحت بلقائه ، واعتبرته مندوباً عن أسرته التي جا وز شوقها إليها حد التصريح ، فتعلقت به سعيدة ، وصحبتة في روحاته وغدواته . وكانا يركبان معاً ، ويسيران معاً ، ويرقصان معاً ، ويثرثران معاً ، وهو كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله خلال الموسم السياحي في مدينة نيس ؛ ولكن هذا اللهو الظاهر كان يبطن أمراً آخر ، ففي غمرة الفراغ والدعة ، بدأ كل منهما يكشف نواحي جديدة في صاحبه ، ويكون فكرة عنه . وعلى مضي الأيام ازدادت آمي تقديراً لصديقها ، وازداد هو حباً لها ، وأدركا الحقيقة في نفسيهما قبل أن يبوح أحدهما بكلمة للآخر . وكانت آمي معترفة بجميل ما قدمه لها من أسباب السرور والتسلية ، فعملت من جانبها على إسماعده ، وكافأته على حسن صنيعه بتلك الخدمات الصغيرة التي تعرف المرأة ذات الأنوثة الفياضة كيف ترضى عليها سحراً لا يوصف . وكان لوري ينشد النسيان ، ويعتقد أن من حقه على نساء العالم كله أن يسلينه ويلاطفنه ، جزاء ما فعلته لإحداهن بعواطفه المتأججة ، لذلك ترك الأمور تسير في مجاريها ، وتحمله كما تشاء . كان كريماً بطبعه ، فتمنى لو استطاع أن يقدم لآمي كل ما حوته حوانيت مدينة نيس من أجل الحلى وأفخرها ؛ ولكنه كان يعلم تمام العلم أنها لن تقبل شيئاً منه ، إن هداياه مهما بلغت ، لن تغير رأيها فيه . ولم يكن رأيها فيه مشجعاً ، بدليل ما يلمسه في نظراتها من المعاني التي اختلط فيها الأسى بالاستخفاف والدهشة ، وقد ردتته هذه

النظرات عنها بعض الرد ، وملأت قلبه بالخشوع والرهبة .  
 وذات يوم أقبل لورى على عادته ليستريح قبيل الظهر ، فقالت له  
 آى :

— لقد ذهبوا جميعهم لقضاء اليوم فى موناكو ، ولكنى اخترت أن  
 أتخلف لأكتب رسائلى ، وقد انتهيت منها الآن ، وأريد أن أذهب إلى  
 فالروزا لأرسم بعض المناظر ، فهل ترافقنى ؟

قال فى بطء وهو يشعر بالفارق بين حرارة القبولة فى الخارج وبين  
 الجوى الرطيب الذى يغريه بالراحة فى الصالون الظليل :

-- لا مانع عاى ، ولكن ؛ ألا ترين أن حرارة الجوى لا تشجع على  
 المشى طويلا ؟ !

فقالت وهى تنظر «اخرة» إلى الفتيات الأنيقات اللواتى كن دائماً  
 موضع تقدير لورى :

— لا تخش المشى ، فسيقود لنا بابتيست العربية الصغيرة ، وما عليك  
 إلا أن ترفع مظلتك ، وتحافظ على جمال قفازك .

قال وهو يمد يده نحو كراسى رسمها ليحملها لها :

— إذا سأذهب معك بكل سرور .

ولكنها سحبت الكراسى منه ، ووضعتها تحت إبطها وهى تقول بحدة :

— لا . . اتركها لى ، فحملها لا يجهدنى ، ولكنه يرهقك .

ورفع لورى حاجبيه دهشة ، وتبعها فى استرخاء وهى تهبط السلم

جرباً ، وعندما ركبا العربة ، أمسك بأعنة الجياد ، وترك بابتيسيت ينعمس مرتاحاً في المقعد الخلفي .

ولم يتخاصم الاثنان : فقد كانت آى آية في حسن التربية ، وكان لورى في تلك اللحظة أكسل من أن يبدأ معركة . ولم تمض دقيقة حتى اختلس نظرة متسائلة إلى وجهها المختفي تحت إطار قبعها الواسعة ، فأجابت بابتسامه رشيقة هادئة ، سارا بعدها في صفاء ومحبة .

وكانت رحلة ممتعة ، انقضت في طريق متعرج تكنتفه المناظر الطبيعية الخلابة ، التي تنعش النفس بالرضا والحبور : فهنا دير أثرى قديم تتعالى بين أرجائه تراتيل الرهبان ، وهناك على صخرة جانبية يجلس راع عارى الساقين ، يلبس حذاء خشيباً وقبعة مدبية وسترة خشنة ، ويتسلى بالنفخ في الناي ، ومن حوله عنزاته تقفز بين الصخور أو ترقد تحت قدميه . وعلى طول الطريق كانت الدواب تجرى محملة بسلال الحشائش الخضراء ، وقد اعتلت السلال بنات صغيرات أو نساء مسنات في أيديهن مغازل يغزلن بها . وكان الأطفال يخرجون من الأكواخ الحجرية المنتثرة على طول الطريق ، يعرضون على المتزهين باقات الأزهار والفروع المحملة بالبرتقال الطازج ، وكانت سفوح التلال تكسوها أشجار الزيتون بأوراقها الرمادية ، وأشجار البرتقال بأحماها الذهبية ، وشقائق النعمان الحمراء تحف بالطريق من جانبيه . ومن وراء هذا كله تنحدر السفوح الخضراء حول جبال الألب الشامخة التي ترتفع قممها البيضاء ، حتى تكاد تمس سماء إيطاليا الزرقاء .

وكانت فالروزا مكاناً جميلاً حقاً : جوها الدافئ يجعل مناخها صيفاً مستديماً ، وورودها المتفتحة تتدلى من التكايب ، وتطل بروءها من بين قضبان أسوار البيوت ، كأنها تحيي القادمين بعبيرها الشذى ، هذا إلى أشجار الليمون والنخيل التي تصطف على طول الطريق الموصل إلى الفيلا . وفي كل ركن ظليل كانت المقاعد المريحة تغرى بالجلوس ، والورود اليانعة تتكفل فوق كل مرتفع أخضر ، وقد وقف في وسطها تمثال من المرمر لخورية باسمه تحرسها غلالة مزهرة ، وعلى صفحة المياه المحيطة بالنافورات كانت تنعكس صور الورود الحمراء والبيضاء والصفراء والوردية ، التي تميل وكأنها تبسم فرحاً بجمالها . وكانت الورود تغطي حوائط الفيلا ، وتمتد فوق « كرانشها » ، وتتساق أعمدتها ، وتلتف حول حواجز شرفاتها الواسعة المظلة على البحر المتوسط ، الذي تسطع على شاطئه الشمس ، وعلى نيس ذات المباني البيضاء الأنيقة .

ووقفت آمي على الشرفة تستمتع بسحر المناظر وشذى الورود ، ثم سألت لوري قائلة :

— أليست هذه اللجنة أمتع مكان يقضي فيه شهر العسل ؟ وهل رأيت مثيلاً لهذه الورود ؟

قال وهو يحص إصبعه الذي جرحته شوكة ، بعد أن حاول قطف وردة حمراء بعيدة المنال :

— لا . . . ولم أرقط مثل هذه الأشواك !

قالت آى ، وهى تقطف من فوق الجدار القريب ثلاث وردات صفراء :

— جرب الورود المنخفضة ، واقطف ما ليس به أشواك .  
 وثبتت الورود الثلاث فى عروة سترته عربوناً للسلام ، فظل الفتى يتأمل  
 الورود برهة وعلى وجهه تعبير غريب ، فقد كانت الدماء الإيطالية التى  
 تجرى فى عروقه تغريه أحياناً بالتشاؤم وأحياناً بالتفاؤل ، فجاءت هدية  
 آى ، على ما فيها من مجاملة له ، باعثاً لقلقه ، شأن الشباب الذى يغلبه  
 الخيال فيتلمس فى كل شىء تافه معنى يغذى به خياله الحبيب . كان  
 يفكر فى جو حين حاول أن يقطف الوردة الحمراء ، لأن الزهور الزاهية  
 تناسبها ، وكانت تقطفها من حديقته وتزين بها . وكانت الورود الصفراء  
 التى قدمتها له آى ، من ذلك النوع الذى يضعه الإيطاليون على قبور الموتى  
 ولا يقدمونه هدية أو يزينون به فى مناسبة مفرحة ، ولذلك وقف حائراً  
 يسائل نفسه : أهى نذير شؤم له أو لحو ؟ ولكن ثقافته الأمريكية لم تلبث  
 أن تغلبت على تطيره ، ففاضت عواطفه ، وأطلق ضحكة عالية مخلصه ،  
 لم تسمعه آى يضحكها منذ أن التقت به فى نيس ، قالت وهى تظن أن  
 كلامها أضحكه :

— إنها نصيحة مخلصه ، ومن الخير أن تعمل بها رحمة بأصابعك .  
 قال فى مجاملة فاترة :  
 — أشكرك ، سأعمل بها .

ولم يكن يدري أنه سيتحمس لهذه النصيحة بعد شهر قلائل .  
وجلست آى على مقعد خشبي خشن المظهر ، وقالت بعد لحظة :

— متى تعود إلى جلدك ؟

قال :

— بعد وقت قصير جداً .

قالت :

— سمعتك تقول ذلك عشرات المرات خلال الأسابيع الثلاثة الماضية .

قال :

— صدقت ، وبمثل هذه الإجابات المختصرة يهرب المرء من المتاعب .

قالت :

— ولكنه ينتظرك ، فينبغي لك حقيقة أن تعود إليه .

قال :

— يا لك من مضيعة كريمة ! أعرف أنه ينتظرنى .

قالت :

— ولم لا ترجع إليه ؟

قال :

— إنه عقوق طبيعى على ما أعتقد .

قالت وهى ترميه بنظرة قاسية :

— بل كسل طبيعى ، فيا للخزى !

قال وهو يتمدد راقداً على حافة السور العريض :  
 — ليس الأمر مخزياً إلى هذا الحد ، فلن ينال جدى من عودتى إلا  
 المضايقة والانزعاج ، ورأى أنك أكثر احتمالاً منه ، لذلك أفضل أن أبقى  
 هنا لأزعجك ، وأظنك تترتاحين لذلك كل الارتياح .

وهزت آى رأسها يائسة ، وفتحت كراسة الرسم فى استسلام ، ولكنها  
 قررت فيما بينها وبين نفسها أن تلقن « هذا الصبى » درساً لا ينساه .  
 قالت بعد لحظة :

— ماذا تعمل الآن ؟

قال :

— أرقب بعض السحالى !

قالت :

— بل كنت أسألك عن العمل الذى تنوى أن تشغل نفسك به .

قال :

— سأشغل نفسى بتدخين سيجارة إن سمحت !

قالت :

— يالك من رجل مزعج ! إنى لا أحب التدخين ، ولكنى أسمح لك

به إذا سمحت لى برسمك فى كراستى ، فإنى فى حاجة إلى التمرن على رسم  
 الأشخاص .

قال :

— إنك تغمريني بسرور الدنيا كلها ، فكيف تريديني ؟ صورة كاملة أم ثلاثة أرباع ؟ أأقف على رأسى أم على قدمى ؟ . . أقتراح أن ترسمينى مضطجعاً ، وترسمى نفسك بجانبى ، وتسمى اللوحة « الكسل اللذيذ » !

قالت فى حماسة :

— ابقى كما أنت ، ونم إذا شئت ، فإنى أريد أن أعمل بجد لا أمزح .

قال راضياً وهو يستند إلى جرة كبيرة مليئة بالزهر :

— هذه حماسة جميلة .

قالت وهى تحاول أن تثير اهتمامه بذكر أختها النشيطة المرححة :

— ترى ماذا تقول جو لورأتك الآن ؟

قال وهو يضحك :

— كالعادة « ابعد عنى ياتيدى ، فأنا مشغولة الآن » .

ولكنها كانت ضحكة مفتعلة اكتسى فيها وجهه بظل من الحزن ، فقد مس اسمها العزيز جرحاً فى قلبه لم يندمل بعد . وتنبهت آى إلى ما اعتراه وكانت قد لاحظت بعض الأمور من قبل ، ورفعت رأسها نحوه ، وعندئذ لاح لها وجهه عامراً بالحمود والمرارة والألم وعدم الرضا . ولكن هذه الانفعالات لم تلبث أن اختفت قبل أن تدرسها جيداً ، وعاد إليه بشره السابق . فراحت ترقبه وتفحصه من الناحية الفنية ، فرأته أقرب شياً إلى الإيطاليين ، وهو يرقد عارى الرأس تحت أشعة الشمس ، وقد تاهت

نظراته في عالم الأحلام ، وأنسته تأملاته وجودها معه .  
 قالت ، وهي تمضي في رسم وجهه من الجانب ، وقد أبرز لها الجدار  
 الأسود القائم من خلفه دقة ملاحظه :

— إنك تبدو كنت بارز لفارس صغير ينام على نصب مقبرته .  
 قال :

— ليتني كنت كذلك !

قالت :

— هذه أمنية حمقاء ، ولست أفهم لها معنى إلا إذا كنت قد  
 أفسدت حياتك . إنك تغيرت كثيراً ، وأظن أحياناً . . .  
 وتوقفت ، وقد تجلى في وجهها من علائم الحيرة والحجل والحزن  
 ما يغني عن الكلام .

ورأى لورى نظراتها ، وأدرك ما تنطوي عليه من قلق فضح عواطفها  
 التي حرصت على إخفائها طويلاً ، فواجهها بصراحة وقال ، كما كان  
 يحدث والدتها :

— كل شيء على ما يرام ، ياسيدتي .

ونزل كلامه عليها برداً وسلاماً . وانزاحت عنها الشكوك التي كانت  
 تنتابها أخيراً . فقالت له في تأثر :

— إني سعيدة بذلك ، والواقع أنني لم أظنك سيئاً في يوم من الأيام ،  
 ولكنني خشيت أن تكون قد خسرت مالا في ذلك المكان الموبوء المسمى

بادن بادن ، أو ربما وقعت في شرك غانية متزوجة ، أو تورطت فيما يتورط فيه الشبان وهم في بلاد غير بلادهم . . . لا ترقد في وهج الشمس هكذا ، تعال هنا على هذه الحشائش الخضراء ، ولتتصالح مرة ثانية .

وكانت لهجتها في الكلام شبيهة بچو حين تدعوه إلى الجلوس معها على الأريكة بجانبها ، لتتبادل معه الأخبار والأسرار .

وأطاع لورى أمرها ، ووقد على البساط الأخضر ، وراح يرشق الأزهار الصغيرة في قبعها الملقاة أمامه ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول في اهتمام واضح :

— علىّ بالأسرار ، فأنا علىّ أتم الاستعداد لسماعها .

قالت :

— ليس لدىّ ما أقوله ، فابدأ أنت .

قال :

— ولا أنا أيضاً ، ولكن ربما كانت لديك أخبار من الأسرة .

قالت :

— أنت تعلم آخر أخبارها ، وأعتقد أن چو تكتب لك مجلدات

ومجلدات .

قال :

— إنها مشغولة جداً ، وأنا لا أستقر في مكان واحد كما ترين ،

فن المستحيل أن تنتظم الرسائل بيننا .

وسكت لحظة وهو يتساءل في نفسه إذا كانت أمى تعرف بما جرى بينه وبين جو ، وتريد بهذه الطريقة أن تستدرجه إلى الكلام . قال بغير الموضوع :

— متى تبدئين عمك الفنى الخالد يا « رفائلا » ؟

قالت :

— لن أبدأه أبداً ، فقد شفتنى روما بأعاجيب فنها وتحفها ، فأمام عظمة مارأيت ، شعرت أن لاقيمة له ، فتنازلت يائسة عن آمالى الحمقاء .

قال :

— ولم تنزلين عن آمالك ، وأنت نشيطة موهوبة ؟

قالت :

— ليست الموهبة كل شىء والنشاط مهما بلغ لا يخلق العبقريه ؛ وأنا أحب أن أكون عظيمة أولاً أكون شيئاً مطلقاً . لا يرضينى أن أصبح رسامة عادية ، لذلك لم أشأ أن أقوم بمحاولة جديدة فى هذا الميدان .

قال :

— وماذا اعتزمت أن تفعلين بنفسك ؟

قالت :

— قررت أن أرمى مواهبى الأخرى ، لأصبح زينة المجتمع إذا ما سنحت الفرصة .

وكان حديثها هذا ينم عن شخصية تؤمن بالمغامرة ، وكان لها من

شبابها المتفجر ، وأطماعها الطيبة ، ما تستند إليه في تحقيق أمالها .  
 وابتسم لورى معجباً بجزمها وسرعتها في التحول إلى غرض آخر ، بعد أن  
 ضاع أول أمل تعلقت به طول حياتها . قال :

— عظيم . . . ويخيل إلى أنى أرى أثر فريد فوهن في كل ذلك .  
 ولزمت آمى الصمت التام ، ولكن النظرة الواعية في عينها المسبلتين ،  
 جعلته ينتصب جالساً ويقول في جد :

— أتمسحين لى أن ألعب الآن دور الأخ وأسألك بعض الأسئلة ؟  
 قالت :

— سل ماشئت ، ولكنى لا أعدك بالإجابة .  
 قال :

— سأقرأ الرد في وجهك إذا لم أسمع بهلسانك ، فليست المرأة المحنكة ،  
 التى تعرف كيف تخفى مشاعرها . الواقع أنى سمعت في العام الماضى  
 إشاعات كثيرة عن علاقتك بـثوهن ، وأعتقد أنه لولم يستدع على عجل  
 إلى بلاده فجأة ، ويضطر إلى البقاء فيها مدة طويلة ، لحدثت بينكما  
 أمور وأمور ، أليس كذلك ؟  
 قالت باقتضاب :

— لست أنوى الإجابة على هذا السؤال .  
 ولكن شفيتها فضحتا بسمة راضية ، وأفصح لمعان عينها الماكرتين  
 عن شعورها بسحرها ، ورضاها عن قدرتها على استغلاله .

قال فى جد ، وقد اتخذ لنفسه صفة الأخ الأكبر :

— أرجو ألا تكونا مخطوبين ؟

قالت :

— لا .

قال :

— ولكنك ستوافقين على خطبته إذا عاد من بلده ، وجئنا على ركبتيه

بالطريقة المثلئ . . أليس كذلك ؟

قالت :

— يئتمل جداً .

قال :

— أئتمينه إذا ؟

قالت :

— من السهل أن أحبه إذا حاولت .

قال :

— لن أئمولى ذلك حتى يأتئ الوقت المناسب ، فلست أراه الرجل

الذى يعجبك يا أمئ ، رغم طيبته وتهذيبه .

وأئخرجئها أطماعها ، رغم حسن نواياها ، فقالت وهئ تصطنع

الهدوء والوقار :

— إنه كريم الأخلاق ، غنى ومهذب .

قال :

— تعنين أن ملكات المجتمع لا يظهرن بغير المال ، فهل قررت أن تسمى هذه الزيجة الراجعة ، وتبدئي حياتك بهذه الصورة ؟ إنه عين الصواب في كل أنحاء الدنيا ، ولكنى أستغرب أن يصدر عن إحدى بنات والدتك !

قالت :

— ولكنها الحقيقة على كل حال .

ولم تكن الحملة الحازمة القصيرة تتفق مع صاحبها الشابة البريئة ، فانتابت لورى خيبة أمل غريزية لا يفهمونها ، لذلك استلقى على الأرض مرة ثانية ، وأمسك عن الكلام ، ولكن صمته أقلق أمي ، كما أقلقها نفورها الداخلي من الرأي الذي أبدته . قالت في حدة :

— هل تصنع فيّ معروفاً فتستيقظ لنفسك وتستفيق ؟

قال :

— إذا أردت ذلك ، فأنفذيني أنت من فضلك !

قالت ، وكأنها تقصد التنفيذ بأخصر طريق :

— يمكنني إذا حاولت .

قال وهو يتلذذ بإغاظتها بعد أن طال حرمانه من هذه الوسيلة اللطيفة

للتسلية :

— وأنا أسمح لك بذلك ، فحاولي من فضلك .

قالت

— ثم تغضب مني بعد خمس دقائق؟

قال :

— تتوالد النار عادة باحتكاك حجرين من الصوان ، وأنت كالثلج

هادئة ناعمة .

قالت :

— للثلج بريق وهّاج ، وإذا أحسن استعماله كانت له لسعة قاسية ،

وفي مقدورى أن أفعل أكثر مما تتصور. إنك تصطنع عدم المبالاة ، ومن

السهل أن أثبت لك ذلك بقليل من الاستشارة .

قال :

— استثيرني ما شئت ، فلن يصيبني ضرر ، بل ربما أجد فيما

تفعلين تسلية ، كما يقول الرجل الضخم عندما تضربه زوجته النحيلة .

فافترضى أنى زوجك أو أنى بساط تفرشينه على أرضيتك ، واضربيني

حتى بكل ساعدك ، إذا كان يلدُّ لك هذا التمرين .

ولما كانت آمى قد أوقعت نفسها بنفسها فى هذا المأزق ، وكانت فى

ذات الوقت تتوق إلى إخراجه عن جموده ، فقد شحذت لسانها مثلما

شحذت قلمها وقالت :

— لقد اتفقنا أنا وفلوان نطابق عليك اسماً جديداً ، هو « لورنس

الكسول » ، فما رأيك ؟

وكانت تظن أنها ستغضبه بهذا الكلام ، ولكنه شبك يديه تحت رأسه  
وقال بهدوء :

— اسم لا بأس به ، شكراً لكما أيها السيدتان .

قالت :

— أتريد أن تعرف رأيي فيك ؟

قال :

— إنى أذوب شوقاً لأعرفه .

قالت :

— حسناً ، إنى أحتقرك .

ولو أنها اختارت أن تقول هذه الجملة في تحدٍّ أو في دلال ، لضحك  
منها ، وتقبّل كلماتها ، ولكن لهجتها الحزينة جعلته يفتح عينيه  
ويقول :

— ولیم إذا سمحت ؟

قالت :

— لأنك رغم ما توافر لك من الفرص لتكون طيباً نافعاً سعيداً ،  
فضلت حياة الخطأ والكسل والتعاسة .

قال :

— ألفاظ قوية يا آنسة !

قالت :

— إذا كانت تروقك ، فلدىّ منها مزيد .

قال :

— استمرى من فضلك ، فإن حديثك يسلينى إلى أبعد حد .

قالت :

— كنت واثقة من ذلك ، فالأنانيون أمثالك يحبون الحديث عن أنفسهم .

قال :

— وهل أنا أنانى ؟

ونطق بهذا السؤال فى دهشة طبيعية صادقة ، إذ كان يعتقد أن إنكار الذات أبرز فضائله .

قالت :

— نعم . أنت أنانىّ جداً .

واستطردت تقول فى هدوء أشد وقعاً فى النفس من ثورة الغضب :

— وسأبرهن لك كم أنت أنانىّ ؛ فقد درست أحوالك ونحن نمرح

معاً ولم أجد فيها ما يرضينى ، ومن ذلك مثلاً أنك قضيت ستة شهور فى

أوربا ، لم تؤد فيها أى عمل من الأعمال ، اللهم إلا إضاعة الوقت والمال ،

مما خيب آمال أصدقائك فيك .

قال :

— أليس من حقى أن أتمتع بوقتى بعد كفاح دام أربع سنوات ؟

قالت :

— ولكنك لا تبدو مستمتعاً بوقتك ، ورأيت أنك لا تستحق هذه  
 المتعة ، لقد قلت لك حين التقينا إنك تحسنت كثيراً عن ذي قبل ، ولكني  
 أسحب كلامي ، فأنت الآن نصف ما كنت عليه حين تركتك في الوطن ،  
 أصبحت كسولا خاملا ، تحب الثروة والأقارب ، وتضيع وقتك في توافه  
 الأمور ، قانعاً عن تقدير العقلاء واحترامهم ، بما يضيفه عليك البله من  
 رخيص التذليل والإعجاب . ورغم ما حباك الله به من مال وجاه وموهبة  
 وصحة وجمال — تلك الحقائق التي لا يسعني إنكارها مع ما فيها من إطرء  
 يرضى غرورك — عزفت عن استغلال مزاياك هذه فيما يجعلك رجلا عظيما  
 واخترت الدعة والعبث ، حتى أصبحت . . .

وتوقفت آي عن الحديث وفي عينها أبلغ معاني الألم والرثاء ، فأكمل  
 لوري جملتها قائلاً :  
 — شرابة خُرج !!

قالها بلهجة لطيفة هادئة ، ولكن حديث آي — في الحقيقة — أصابه  
 في صميمه ، فقد التمت عيناه ، واتسعت حدقتاه ، وحلت علام الغضب  
 في وجهه محل الاستهتار وعدم المبالاة .  
 قالت آي بمرارة :

— قد تجيب على ذلك بأننا معشر النساء ملائكة ، وفي مقدورنا أن  
 نصنع منكم ما نريد ، ولكن ما إن نبدأ في المحاولة ، حتى تعرضوا عنا  
 ساخرين مستهزئين ، مما يدل على زيف إطرانكم لنا .

وأدارت أمي ظهرها لصديقتها المحنق الذي يرقد عند قدميها ، فلم تمض لحظة حتى أحست بيد تغطي الصحيفة التي ترسم فيها ، وسمعت صوت لوري يقول مقلداً لهجة الطفل التائب :

— سأكون ولداً طيباً ، سأكون ولداً طيباً .

ولم تضحك أمي ، فقد كانت جادة في حديثها متحمسة له . قالت في رزاة ، وهي تدق بقلمها على اليد التي تغطي كراسيها :

— ألا تحجل من يدك هذه ؟ إنها كيد امرأة : بيضاء ناعمة ، كأنك لم تستعملها إلا في لبس القفازات الغالية التي تشتريها من محل « جيوفاني » ، أو حمل باقات الأزهار للسيدات . لست رقيقاً والحمد لله ، فأصابعك ما زالت خلواً من الخواتم والماسات ، ولست أراك تلبس سوى هذه « الدبلة » الصغيرة التي أهدتك إياها جو منذ زمن طويل ، فياليتها كانت معي الآن لتساعدني عليك !

قال :

— ليها كانت !

وسحب يده فجأة كما وضعها ، ولكن لهجته العامرة بالحيوية والقوة أثارت أفكاراً جديدة في رأس أمي ، فالتفت إليه تبحث عن الحقيقة في عينيه . وكانت قبعته الواسعة تغطي نصف وجهه ، وشاربه يحجب فمه ، فلم تر منه إلا صدرها يرتفع وينخفض في أنفاس طويلة ، كأنما يتنهد ليخفف عبثاً يثقل عليه ، أما يده فقد غاصت بالدبلة في الحشائش ، كما

لو كان يحاول أن يخفي شيئاً عزيزاً ، أئمن وأدق من أن يتحدث عنه . وطافت برأس آى فى هذه اللحظة القصيرة أشنات من الأفكار ، وتجمعت فى ذهنها إشارات وعبارات ، وتذكرت حركات وسكنات ، ثم بدأت تكون من كل هذا صورة ناطقة بالمعاني والدلالات . أدركت لفورها أن سرّاً لا تعرفه يربط لورى بأختها ، استعادت فى ذاكرتها كيف كان يغم حين تحدّثه عن چو ، وكيف تغيرت شخصيته وتبدل مسلكه فى رحلته هذه ، وكيف وضع الخاتم القديم فى إصبعه مع أنه لا يصلح حليلة ليدّه الأنيقة . وأرشدتها غريزتها النسائية – والنساء أسرع ملاحظة لمثل هذه الأمور الصغيرة ، وأشد إدراكاً لمعانها – أن وراء هذا التغيير فى نفسية لورى قصة حب فاشل ، فزابتها قسوتها عليه ، وفاضت عينها الحادّتان أسى وعطفاً ورقة ، وقالت تحدّثه بصوت حنون تعرف كيف تصطنعه فى الوقت المناسب :

– أعلم أنه ليس من حقى أن أتحدّث إليك بهذه اللهجة بالورى ، ولولا كرم أخلاقك ما قبلت تطفلى على شئونك ، ولكن عذرى أننا جميعاً نحبك ونفخر بك ، وليس أبغض إلينا من أن تعود إلى الوطن خائباً ، وإن كنت على يقين أنهم هناك يدركون أسباب تغييرك أكثر منى .

قال لورى فى صوت أجش محطم ، وقد رفع قبعته عن وجهه :

– أظن ذلك .

قالت آى فى دهاء تريد به أن تستدرجه إلى اعتراف بالحقيقة :

— كان يجب على أخواتي أن يحدثنى بكل شىء ولا يتركننى أسىء بك الظن ، فأعنفك وألومك ، بدل أن أضعف عطفى عليك . والواقع أننى لم أكن أحب مس راندل فى يوم من الأيام ، ولكنى الآن أكرهها من صميم قلبى !

وأزاح لورى القبعة عن وجهه فى غضب ، ونظر إلى آمى نظرة قطعت بحقيقة عواطفه ، نحو مس راندل ، ثم قال بسرعة :  
— فلتذهب مس راندل إلى الشيطان !

قالت :

— أستميحك عذراً ، فقد ظننت . . .  
وتوقفت آمى عن إتمام حديثها فى مهارة دبلوماسية ، فقال لورى وهو يشيح بوجهه ثائراً :

— لم تظنى شيئاً ، لأنك تعرفين تماماً أننى ما اهتممت يوماً بامرأة غير چو .

قالت :

— لم يحدثنى أحد فى هذا الموضوع ، ولم أتلق فى رسائلى كلمة تشير إليه ، فمن أين لى أن أعرف بجفاء چو ، خصوصاً بعد سفرك إلى الوطن ومجيئك إلى هنا؟ أعتقد أنها تحبك أعمق الحب ، فلم تصرفت معك هكذا ؟  
قال :

— كانت تعاملنى دائماً بخنان ، ولكن حنانها كان من نوع آخر غير

الذى أنشده ، ولعلها أحسنت بذلك ما دمت رجلاً تافها كما تقولين .  
 لقد أخطأت في حقى على كل حال ، ويمكنك أن تبلغها هذا الكلام .  
 وعادت النظرة الصارمة المريرة إلى وجهه ، فأشفقت عليه آى ،  
 واحترت أى بلسم تستخدم لتخفف آلامه . قالت :

— أعتذر عن ثورتى عليك ، وقد أخطأت لجهلى بالأمر ، وعلى كل  
 حال لم يكن فى استطاعتى أن أمنعها ، ولكنى كنت أظنك أهلاً لاحتمال  
 رفضها بطريقة أفضل ، يا تيدى العزيز !

قال :

— لا تقولى « تيدى العزيز » فليس لغيرها أن ينادينى بهذا الاسم !  
 ورفع يده إلى فم آى كأنه يريد أن يوقف الكلمات قبل أن تنطق بها  
 فى لهجة جو ، التى تجمع بين الحنان والتأنيب ، ثم أردف فى صوت  
 خفيض وهو يقتلع الحشائش من الأرض بكلتا يديه :  
 — انتظرى حتى تمرى بمثل هذه التجربة !

قالت :

— إذالم أفرز بالحب المنشود ، فإن أتردد عن احتمال الفشل فى رجولة ،  
 وبذلك أصون كرامتى .

وكان لورى يظن أنه احتمال الصدمة صامتاً صابراً ، وطوى صدره  
 على عذابه ليعانيه وحيداً . ولكن حديث آى فتح له آفاقاً جديدة ، فرأى  
 لأول مرة ، أنه من الضعف والأنانية أن يفقد المرء اتزانته عند أول فشل

يصدمه ، فيعتزل الدنيا غير مبال بما يدور حوله فيها . وأحس بما يحس به  
النائم إذا استيقظ فجأة من كابوس ثقيل طير النوم من عينيه . سأل  
أمي في تمهل :

— أحتقرنى چو كما احتقرتنى أنت ؟

قالت :

— أخشى أن تفعل إذا ما رأتك على هذه الحال ، فهى تكره الكسالى  
ورأى أن تأتى عملاً عظيماً يجعلها تحبك !

قال :

— بذلت غاية جهدى بلا جدوى .

قالت :

— أعنى تخرُجك فى الكلية بامتياز ؟ كان هذا واجباً يتحتم عليك أن  
تؤديه لإرضاء لحدك ، وكان من العار أن تفشل بعد ماضيت من مال  
ووقت ، خصوصاً وقد كنا جميعاً نعلم أنك أهل للنجاح ، وفى مقدورك أن  
تنال أعلى درجاته إذا شئت .

فقال لورى ، وقد أسند رأسه على راحته فى قنوط :

— بل فشلت رغم كل ما تقولين ، فقد رفضت چو أن تحببى !

قالت :

— لا ، لم تفشل ، وستدرك ذلك فى النهاية ، فقد أفدت وبرهنت على  
أنك تستطيع كثيراً متى شئت . ويقينى أنك إذا بدأت محاولة جديدة من

هذا الطراز ، تسترد بشاشتك وسعادتك ، وتنسى همومك وأحزانك .

قال :

— مستحيل !

قالت :

— جرب تَرّاً ! . . لا تهز كتفيك وتقل « هذه الفتاة لاتعرف شيئاً »  
 فلست أدعى الحكمة والمعرفة ، ولكنى أرقب سير الأمور ، وأرى الأشياء  
 أكثر مما تتصور . قد لا أستطيع تفسير أحوال الناس ، غير أنى أهتم  
 كثيراً بتجارهم وأخطأهم ، وأحاول أن أتذكرها دائماً ، لأستفيد بما فيها  
 من عظات وعبر . لا مانع من أن تحب چو طول حياتك ، ولكن لا تدع  
 هذا الحب يفسد عليك أمرك . فحرام أن يدمر الإنسان مواهبه من أجل  
 امرأة يريدنها ولا يستطيع الحصول عليها . لن أمضى فى نصاصى ، وعلى  
 كل حال ، فعن قريب تستجمع شتات نفسك ، وتصحو من غفوتك ،  
 فتسلك مسلك الرجال رغم قساوة قلب هذه الفتاة .

وساد الصمت برهة ، كان لورى خلالها يعبث بالخاتم فى إصبعه ،  
 وتشاغلت آى عنه بوضع اللمسات الأخيرة فى الصورة التى كانت ترسمها ،  
 وعندما انتهت منها ، وضعتها فوق ركبتيه وقالت :

— ما رأيك فى هذه الصورة ؟

وابتسم لورى أمام ما رأى فى هذه الصورة من مهارة وإتقان ، إذ  
 كانت آى قد رسمته فيها ممدداً على الحشائش فى استرخاء وكسل ، عيناه

مسلتان ، وعلى وجهه سماء الشرود ، وكان يمسك سيجاراً ينعقد دخانه في حلقات حول رأسه الخالم .

وتأمل لورى الصورة ملياً ، ثم قال في غبطة ودهشة :

— إنك تحسّن الرسم .

ثم أضاف ضاحكاً :

— نعم هذا أنا . . وهذه صورتى بعينها .

قالت آى وهى تضع صورة أخرى بجانب الأولى :

— هذه صورتك الآن ، أما هذه فصورتك كما كنت أولاً . .

ولم تكن الصورة الثانية متقنة كالأولى ، ولكن أخطاءها اختفت وراء ما فيها من حياة وحركة . كانت تمثل الماضى بسعاده وجماله ، فتدافعت الذكريات إلى ذهن لورى ، واكتسى وجهه بسحابة حزينة لم يخف أمرها على الفتاة الحصيصة . ولم تكن الصورة إلا خطوطاً مبدئية ، تمثل لورى وهو يروض حصاناً بعد أن خلع قبعته وسترته ، وكان منظرأ عامراً بالحوية المتدفقة : فقد خضع الحصان الجامح لمدربه الماهر ، وحنى رأسه لقوة الفارس الذى يشد عنانه ، وأخذ يضرب الأرض بإحدى قدميه فى صبر نافذ ، فى حين انتصبت أذناه كأنما ينصت لصوت مدربه . وكانت صورة الفارس ، بقوامه المشوق وشعره المتعرج ، تنطق بالقوة والشجاعة والفتوة والانشراح ، مما يتعارض كلية مع الصورة الأخرى التى أطلقا عليها « الكسل اللذيذ » .

ولم يتكلم لورى ، ولكن آمى أحست بحيرته ، وهو ينقل بصره من صورة إلى أخرى ، وقد احمر وجهه وزم شفثيه ، كأنما فهم الدرس الصغير الذى ألقته الفتاة عليه . واغتبطت نفسها بذلك ، فلم تنتظر حتى يتكلم ، بل بادرت تقول فى لهجة صافية :

— أتذكر يوم روضت الفرس الجموح على مشهد منا ، فخافت ميج وبث ، ولكن چو راحت تصفق لك وتقفز إعجاباً ؟ جلست يومها على السور أرسم صورتك ، ثم وضعتها فى حافظتى ونسيت أمرها ، حتى عثرت عليها أمس الأول بمحض المصادفة ، فأكملت اللمسات الأخيرة فيها قبل أن أريتها .

قال :

— أنا شاكر ممن ، وأشهد أنك تقدمت فى الرسم كثيراً منذ ذلك الوقت فلك مزيد التهانى . وبعد ، فهل لى أن أذكرك ، ونحن فى جنة شهر العسل هذه ، أن الساعة الخامسة هى موعد تقديم الطعام فى فندقنا !

ووقف لورى أمامها ، وأعاد إليها الصورة بابتسامة وانحناء ، ثم نظر إلى الساعة كأنه يذكرها بوجوب الانتهاء من المواعظ والمحاضرات . وقد حاول أن يستعيد مظهر الاستهانة وعدم المبالاة ، ولكنه بان مصطنعاً ، لأن آمى أصابت الهدف باستثارتها له ، وتركت فيه أثراً أعظم كثيراً مما يجب أن يعترف به . وأحست آمى بظل من البرود فى طريقة معاملته ، ولكنها قالت لنفسها :

— يسعدنى أن أغضبته لصالحه ، ويؤسفى أن يكرهنى لما قلته ،  
ولكنها الحقيقة ولا تراجع عنها .

وفى طريقهما إلى الفندق ، راح السائق باتست يرقبهما من مقعده ،  
ويقول لنفسه : « إن السيد والمدموازيل منسجمان جداً » ، إذ كانا  
يثرثران معاً ويضحكان طول الوقت ، ولكنهما كانا يشعران بحرج داخلى ،  
ويحسان كأن نعمة غشيت صفاء مودتهما السابقة . وبالرغم من تظاهرها  
بالمرح ، حل بقلب كل منهما بعض النفور والقلق .

وحين وصلا إلى باب عمتهما ، سألته :

— أنراك هذا المساء يا أخى ؟

قال وهو ينحنى ، كأنما يهيم بتقبيل يدها على الطريقة الأوربية التى  
يتقنها أكثر من غيره من الرجال :

— يؤسفى أنى ارتبطت بموعد سابق . فوداعاً يا آنسة !

ورأت آى فى وجهه ما أقلقها ، فقالت بحمارة :

— خل عنك هذا التصنع بالورى ، ولنفترق بطريقتنا القديمة الحلوة ،

فأنا أفضل أن تصافحنى بحمارة على هذه التحيات الفرنسية العاطفية .

فقال وهو يشد على يدها حتى أوجعها :

— مع السلامة يا عزيزتى .

وفى صباح اليوم التالى ، لم يأت لزيارتها كالمعتاد ، وجاءتها بدلا

منه رسالته ، فإذ قرأت آى السطور الأولى منها ، حتى نهدت باسمه .

قال في رسالته :

« مرشدتى العزيزة

أرجو أن تبلغى عمك تحية وداعى ، وتهنى نفسك لأن « لورنس الكسول » عاد إلى جده كأحسن الأولاد . أتمنى لك شتاء سعيداً ، وشهر عسل مباركاً فى فالروزا . وأظن أن « فريد » سيفيد كثيراً من إرشاداتك ، فأبلغيه ذلك مع تهائى .

« الشاكر الضال »

قالت لنفسها وهى تبسم راضية :

— إنى مسرورة بذهابه ، فيا للولد الطيب !

ونظرت حولها فى الحجرة الخاوية فاغتم وجهها وقالت :

— سأفتقده كثيراً ، ولكنى سعيدة بذهابه .



## الفصل الأربعون

### وادي الظلال

حين انقضت لوعة الحزن الأولى ، تقبل أفراد الأسرة باستسلام قضاء الله الذي لا مفر منه ، وحاولوا جهدهم أن يخففوا وطأته بالتفاني في بذل المحبة التي تقوى روابط الأسرة في أوقات الشدائد ، فتركوا أحزانهم جانباً ، وتعاونوا على أن يشيعوا السعادة في كل يوم من أيام السنة الباقية لبث .

وخصصت أهبج الغرف في البيت لإقامة بث ، وجمع فيها كل ما تشبه الفتاة وتحبه من زهور وصور ، وكذلك وضع فيها معزفها و « طاولة »

أشغالها وقطيظاتها العزيزة . وأودع الأب في هذه الغرفة خير كتبه وأكثرها تشويقاً للنفس ، وبعثت الأم إليها بمقعدها المريح ، وجاءت آمي بأحسن رسومها ووجوه بذخيرتها من المؤلفات العظيمة . وحرصت مبيج على أن ترسل أطفالها كل يوم لزيارة خالتهما بث ليعتوا السعادة فيما تبقى من حياتها . وخصص جون جانباً من ماله لشراء الفواكه التي قد تحتاج إليها المريضة أو تشتهيها ، ولم تدخر حنة جهداً في إغرائها على الأكل بصنع ألد الأطعمة وأطيبها ، وكانت تعد تلك الأطعمة ودموعها تسيل على خديها حزناً وإشفافاً ، وكانت الهدايا المفرحة تأتيها من وراء البحار ، فتجلب معها نسائم عطرة من بلاد لا تعرف برودة الشتاء .

وجلست بث في هذه الصوبعة العامرة بالحب . هادئة مشغولة كعادتها ولم يغير المرض طبيعتها الحلوة المنكرة لذاتها ، فظلت إلى آخر ساعات حياتها تشيع الهناء في قلوب أولئك الذين ستركهم وراءها . ولم تنقطع أناملها الواهنة لحظة عن العمل بلا كلل ولا ملل ، وكان يسعدنا أن تصنع تحفاً صغيرة تهديها لأطفال المدارس الذين يمرون بنافذتها كل يوم في ذهابهم وعودتهم ، فكانت تلقى إليهم أشياء صغيرة مبهجة : مثل قفاز يحمي اليدين اللتين هراهما البرد ، أو ثوب صغير للدمية ، أو ممسحة لقلم لكاتب صغير تائه في بيداء الكتابة ، أو كتيب مصور لمحبي الفنون ، إلى آخر هذه المبهجات البسيطة التي تسعد السائرين في طريق المعرفة والعلم . وكان الأطفال يقدسون تلك الراعية الكريمة ، التي تمطرهم من برجها العالی

بأجل الهدايا وأحبها إلى نفوسهم . وإذا كانت بث تنتظر جزاء على عملها هذا ، فقد وجدته وفيراً في الوجوه المشرقة التي تتطلع دائماً إلى نافذتها محيية باسمه ، وفي الرسائل العجيبة التي كانت تصلها عامرة بالوفاء وبقبح الخبر .

ومضت الشهور القلائل الأولى في سعادة ، فكانت بث تنتظر إلى المجتمعين حولها في حجرتها المشمسة وتقول : « ما أبدع هذا ! ! » ؛

فالتوأمان يلعبان على الأرض ، وأمها وأخواتها يشتغلن بجاذبها ، وأبوها يقرأ لها بصوته الرخيم ، ويسمعها أجمل ما احتوته الكتب القديمة من حكم غابت القرون بقوتها وسحرها . وكانت غرفتها أشبه بكنيسة صغيرة يفتن راعيها في توجيه أتباعه إلى ما يجب أن يعرفوه من أن المحبة تنتعش بالأمل ، وأن الإيمان يروض النفس على الرضا بحكم القدر . كاذت دروساً بسيطة تلك التي يلقيها الأب ، ولكنها كانت عامرة بالإيمان الراسخ ، فأصابت من القلوب صميمها ، وزادها أثراً في النفوس ، رجفة صوته ، واختلاجة نبراته .

وخيم السلام على تلك الفترة الحزينة ، وأشاع الإيمان في نفوس أفراد الأسرة هدوءاً أعدهم لقبول أحكام المحنة المقبلة عليها ، فقد استبدت العلة ببث وأتت على قواها ، حتى عجزت أصابعها الواهنة عن حمل الإبرة فركنها إلى الأبد . وأصبح الحديث يجهدا ، والوجوه الحزينة تقلقها ، واستولى عليها الألم كلية ، واكتست روحها الهادئة بغلالة من الحزن اللذين في جسدها النحيل الضعيف . وكم كان عسيراً على أفراد الأسرة أن يروا الأيام تحمل بث إلى نهايتها المحتومة في بطاء يجعل من الساعة دهنراً . . . وكم

كان مضنيا لقلوبهم أن تمد إليهم ذراعيها النحيلتين تطلب المعونة ، وهم على فرط حبهم لها ، عاجزون عن تلبية طلبها . كان صراعاً عنيفاً بين فتوة الروح وجبروت الموت ، ولكن رحمة الله لم تلبث أن أدركتها ، فكفت عن الصراع ، وسكنت روحها راضية مرضية ، وأصبحت نفسها أبهى ما تكون إيماناً واطمئناناً ، وأحس من حولها أنها قد أعدت العدة لتلبية نداء ربها رابطة الجأش ، وقنعت بالوقوف على حافة الحياة في انتظار الملائكة الذين أقبلوا ليصبحوا روحها ، وهي تعبر المضيق إلى الأبدية الخالدة .

ولم تفارق جو مكانها بجانب أختها منذ أن سمعتها تقول : « إني أشعر بالقوة ما دمت معي ، » فكانت تنام على أريكة بغرفتها ، وتستيقظ بين ساعة وأخرى لتغذى نيران المدفأة بالوقود ، أولتطمع المريضة ، أو تساعدها على الحركة ، أو تؤدي لها خدمة . لأن بث كانت تكره أن تكون عبئاً على غيرها فلا تطلب شيئاً من أحد . وفي أثناء النهار كانت جو لا تسمح لغيرها بتمريض أختها ، فخورة بأنها اختيرت لهذه المهمة ، التي تؤمن بأن قيامها بها ، هو أعظم مجد نالته في حياتها . وكانت هذه الساعات عزيزة على نفس جو ، فقد تعلمت منها ما كان ينقصها من صبر وتسامح ، مع استعداد مخلص لغفران أخطاء الآخرين . وهكذا صقلت الحنة عن ذي قبل ، ومنحتها التجارب قدرة على تذليل الصعب ، ومجابهة الأخطار في إيمان عميق لا يعرف الخوف أو اليأس .

وكلما استيقظت جو وجدت بث تستعين على قطع الليل الطويل

بالقراءة في كتبها الصغير العتيق ، أو بالغناء في صوت شجي واهن ، أو تراها وقد اعتمدت وجهها على كتفها ودموعها تتساقط في بقاء بين أصابعها البيضاء النخيلة ، وينفطر قلب جو وهي ترى أختها تحاول بطريقتها السهلة ، أن تقطع ما بينها وما بين الحياة العزيزة بترديد الأدعية والصلوات وبالموسيقى التي تحبها كل الحب .

وكانت هذه المناظر أعمق أثراً في فؤاد جو ، من المواعظ الحكيمة ، والأناشيد المقدسة ، والصلوات الحارة ، فقد أدركت بعينها الدامعتين وقلبا الذي أصفاه الحزن ، مدى جمال الحياة الفارغة التي عاشتها أختها ، جمال الحياة التي نخلت من الأحداث والمطامع ، وإن عمرت بخير الفضائل التي يزهر نبتها ناضراً في ثرى دنيانا الفانية ، فينعش النفوس بعبيره الزكي ، كما أدركت من سلوك أختها تجاه نهايتها المحنومة ، أن نكران الذات يجعل أقل الناس شأناً على الأرض ، أعلاهم مقاماً في السماء ، وهو أجل نجاح يناله إنسان .

وبينا كانت بث ذات ليلة تقلب في كتبها الموضوعة على المائدة ، باحثة عما ينسبها ضيقها بالدنيا ، وهو ما كانت تجد مشقة في احتمالها كالألم سواء بسواء ، عثرت في طيات كتابها الحبيب المفضل « رحلة الحجيج » على ورقة صغيرة مكتوبة بخط جو . واستوقفت نظرها في هذه الورقة ، حروف طمسها دموع كاتبها ، فقالت في نفسها وهي تلتقي نظرة حانية على أختها الراقدة على السجادة ، وبجوارها قضيب حديدى وضعته

فى متناول يدها لتحرك به نيران المدفأة حالما تستيقظ من نومها :  
 إن جو المسكينة مستغرقة فى نومها ، ولست أظنى فى حاجة إلى أن  
 أوقفها لأستأذنها فى قراءتها ، قد تعودت أن ترى كتاباتها كلها .  
 وراحت تقرأ :

إلى عزيزتى بث

جلستُ صابرة فى طيات الظلال  
 تنتظر سطوع النور المقدس .  
 يا لها من روح راضية مرضية  
 تنشر الرحمة فى بيتنا المكود .  
 مسرات الدنيا ، وآمالها وآلامها ،  
 تنكسر مثل أمواج صغار  
 ترتطم بشاطئ النهر المقدس ،  
 حيث تقف أقدامها فى استسلام .

أواه يا أختاه ! يا من سرحلين  
 بعيداً عن هموم البشر وكفاحه ،  
 أعطينى بعضاً من فضائلك الغالية ،  
 التى سبغت على حياتك منتهى الجمال ،  
 أعطينى ، أيتها العزيزة ، صبرك العظيم ،

الذى أطلق روحك بالرضا والانسراح

وأعطاها من لدنه قوة ،

وهى حبيسة فى سجن الألم

أعطينى بعض حاجتى ،

من حكمة شجاعتك الحلوة

التي عبرت طريق الأبدية المرير

تحت خطواتك الثابتة المطمئنة ،

هينى طبيعتك المنكرة للذات ،

التي استطاعت ببرها القدسى .

أن تغفر الأخطاء من أجل الحب !

أيها القلب السمع ، اغفر لى بدورى ما أخطأت ،

وبهذا يهون ألم الفراق ،

وتخف مرارة وقعه على النفس ،

وتصقلنى المحنة بدرسها العصيب ،

فأخرج من خسارتى بكسب عظيم ،

يهدى المصاب من طبعى الوحشى ،

ويسبل عليه السكينة والهدوء ،

ويجمل أحزاني آمالا وإيماناً

وثقة بما يأتي به الغيب المجهول .  
 وإذا جاء دورى  
 لأعبر النهر إلى ذات المصير  
 نحو روح عزيزة تقف فى الانتظار  
 لتلقانى على شاطئى الأبدية الفسيح ،  
 سأسير إليها ثابتة الجنان  
 مع الأمل والإيمان ملكى الحارسين ،  
 فتلقانى أخت سبقتنى للرحيل ،  
 ويأخذ كلهم ييدى إلى مقرى الحديد .

وعلى الرغم مما أصاب هذه السطور من المحو وعدم الظهور ، وعلى  
 الرغم من ركاكتها وضعف لغتها ، فقد أشرق وجهه بث الراحة والهدوء ،  
 فقد كانت تظن آسفة ، أنها لم تفعل شيئاً فى حياتها ، ولكن هذه السطور  
 أكدت لها أن حياتها لم تنقض هباء ، وأن موتها لن يجلب اليأس الذى  
 كانت تخشاه .

وبينما هى جالسة والورقة مطوية فى يدها ، سقطت قطعة خشب من  
 نيران المدفأة ، فاستيقظت چو من غفوتها ، وقامت تغذى النيران ثم  
 زحفت إلى جانب فراش أختها وهى ترجو أن تجدها نائمة ، ولكن بث  
 قالت فى حماسة وتواضع حزين :

— لست نائمة ، ولكنى سعيدة جداً يا چو . انظري ! لقد وجدت هذه الورقة فقرأتها ، ولا أظنك ترين بأساً في ذلك . . هل حقاً تحبيني كل هذا الحب يا چو ؟

قالت چو ، وهي تضع رأسها على الوسادة بجانب أختها :  
— أواه يا بث ! بل أحبك أكثر من هذا . . أكثر كثيراً !  
قالت :

— إذا فلم تذهب حياتي هباء ، لست طيبة بقدر ما تصفين ، ولكنى بذلت جهدي لأفعل الصواب دائماً ، والآن ، وقد فات الأوان لعمل أفضل ، يسعدني غاية السعادة أن أجد من يحبني إلى هذا الحد ، ويعتقد أنني فعلت شيئاً يستحق الذكر .  
قالت چو :

— لقد أحببتك أكثر من أي إنسان آخر في هذه الدنيا يا بث ، وكنت أظن أنني لن أستطيع فراقك أبداً ، ولكني أعرف الآن أن الموت لن يفرق بيننا وستكونين لي على الدوام أكثر مما كنت .  
قالت بث :

— إنني أعرف أنه لن يفرق بيننا ، ولذلك لم أعد أخشاه ، وسأظل دائماً حبيبتك بث التي تحبك وتساعدك إلى الأبد . يجب أن تأخذني مكاني يا چو ، فتملئي حياة أبي وأمي عند ما أرحل ، سيلجان إليك بطبيعة الحال فلا تخيبي رجاءهما ، وكوفي لهما صدرأ حنوناً ؛ وإن شق عليك

أن تقوى بهذه المهمة اذكرى أنى معك ، وتأكدى أن سعادة هذه الذكرى  
تفوق متعة التأليف والأسفار ، فالحب هو كل ما نستطيع أن نحمله معنا  
حين نرحل ، وهو وحده الذى يسهل النهاية ، ويجعل وقعها مقبولاً على  
النفس .

فقالَتْ جُو :

— سأحاول يا بث !

وهكذا تخلت جُو عن مطامحها القديمة ، وآثرت أن تحيا حياة  
جديدة أفضل ، معترفة بتفاهة الشهوات الدنيوية ، شاعرة بما فى الإيمان  
بخلود الحب من أقدس عزاء على الألم .

وجاءت أيام الربيع وتوالت ، وصفت السماء واخضرت الأرض ،  
وأينعت الأزهار مبكرة ، وعادت الطيور فى موعتها ، كأنما تودع بث  
التي تعلقت كالطفل المتعب المستسلم بالأيدى التي تعهدتها طوال حياتها ،  
أيدى أبيها وأمها اللذين قاداها فى رقة وحنان خلال وادى الظلال ،  
ليتركها وديعة عند الله .

ويندر ، اللهم إلا فى القصص ، أن يقول الذى يموت كلمات تذكر  
له بعد موته ، أو أن يرى حلماً ، أو يفارق الحياة بوجه صبيح . ويعرف  
الذين ودعوا كثيراً من أعزائهم ، أن النهاية تكون فى أغلب الأحيان  
طبيعية سهلة ، كالنوم سواء بسواء . ولقد حقق الله أمانى بث ، فانحسر  
الجزر فى بساطة ويسر ، وفى الساعة الحالكة التي تسبق الفجر ، لفظت

الفتاة أنفاسها الأخيرة هادئة ، وهي تستند على الصدر الذي تنسمت فوقه أول أنفاسها . لم تنبس بكلمة وداع ، وكل ما فعلته ، أن نظرت إليهم بعينين يفيضان حباً ، ثم شهقت شهقة صغيرة ، وصعدت بعدها روحها إلى بارئها .

وبين الدموع والصلوات والأيدي الرحيمة ، أعدت الأم والأخوات



بث لاستقبال الرقدة الأخيرة الطويلة المريجة ، وقد حمدن الله حين رأين  
السكينة الوداعة تكسو وجه بث ، وتمحل محل الصبر الحزين الذى كانت  
تقطع له نياط قلوبهن . وأثلج صدورهن أن عزيزتهن الغالية تلقت  
الموت لا كشبح مخيف بغيض ، بل كملك للرحمة عزيز .

و حين أقبل الصباح ، نجت نيران المدفأة فى الغرفة لأول مرة منذ  
بضعة شهور ، وخلا المكان من جو ، وبدت الغرفة ساكنة واجمة ؛  
ولكن طائراً حط على غصن تفتحت أزهاره بجوار النافذة ، وبدد السكون  
بتغريده الشجى ، ثم تدفقت شمس الربيع فى الغرفة ، كأنها فيض من  
البركات يهبط على الوجه المسجى فوق الوسادة . هذا الوجه الذى فاض  
بالسلام الوديع ، سلام بعث بين دموع المحزونين بسمة ، وجعلهم  
يحمدون الله أن أنقذ بث من آلامها المريرة .



## الفصل الحادى والأربعون

### دروس فى النسيان

أفاد لورى كثيراً من الدرس الذى ألقته آى عليه ، ولكنه لم يحتفظ به طويلاً ، شأن الرجال إذا نصحتهم امرأة . فأصحاب الشخصية من هذا الجنس القوى ، لا يعملون بمشورة نسوية قبل أن يقنعوا أنفسهم بأنها تعبير عما كانوا يعتزمون ، وعندئذ فقط يتبعونها ، فإذا نجحت اعترفوا للمرأة بنصف الفضل ، أما إذا فشلوا فيحملونها الوزر كله فى سخاء .

ولقد عاد لورى إلى جده ، وكرس نفسه لخدمته أسابيع عدة ، حتى

صرح السيد العجوزبان چو مدينة نيس أفاده بشكل عجيب ، فمن الخير أن يعود إليها مرة أخرى . وكانت هذه النصيحة في الواقع أقصى أمنية للفتى ؛ ولكن قطعاً من الأفيال ما كان يستطيع أن يحمله على العودة إلى المدينة التي تلتى فيها ذلك التعنيف . وكان حين يشتد به الشوق إلى متع نيس ومباهجها ، يستعين على شعوره بترديد ما آذاه من قول آى : « إني أحتقرك . . اذهب وافعل شيئاً مجيداً يجعلها تحبك » !

وراح يقلب الأمر في فكره مرة بعد مرة ، حتى اضطر أن يعترف لنفسه بأنه كان بالفعل أنانياً وكسولاً ، ولكنه كان يعتذر عن ذلك بالحزن الذى يغرى بالنزوات طلباً للسلوان . وأحس أن عواطفه النائرة هدأت عن ذى قبل ، فلا معنى لإعلان أحزانه على الناس رغم وجيعته على حبه الضائع . وما دامت السبل قد تقطعت به إلى قلب چو ، فالأمثل له أن يقوم بعمل مجيد يحملها على احترامه ، ويثبت لها أن فتاة مثلها لا تستطيع تحطيم حياته بكلمة « لا » . وإرضاء لكبريائه راح يقنع نفسه بأن نصيحة آى لم تكن لها ضرورة ، لأنه كان يعتزم دائماً أن يقوم بعمل كبير مشرف ، وما أخره عن تحقيق هذا المجد إلا جراح قلبه ، التي أراد أن يمنحها فسحة من الوقت لتندمل . أما الآن فقد تم له الشفاء ونخفت وطأة الحب ، فأصبح لزاماً عليه أن يسعى إلى العمل الجلد المفيد .

ومثلما كان « جوته » يصوغ همومه وأفراحه في قصائد من الشعر ، فقد استقر رأى لورى على أن يغرق آلامه في الموسيقى ، ويؤلف منها

مقطوعات رائعة تفتتح لها نفس چو . وتطرب بها قلوب من يسمعونها . وبناء على ذلك ، حين نصحه جده بالسفر ، بعد أن رآه قلق المزاج حزيناً ، شد رحاله إلى فينا ، حيث يقيم بعض أصدقائه من الموسيقيين ، وهناك عكف على الدراسة بعزيمة صادقة طلباً للشهرة والمجد . وسواء أكان حزنه أكبر من أن تطويه الموسيقى ، أم كانت الموسيقى أضعف من أن تحمل هموم القلب البشري ، فقد اكتشف لورى صعوبة شديدة في وضع اللحن الذي يريده . ولم تكن آراؤه قد استقامت بعد ، ولا تبلورت أفكاره بشكل نهائى ، فكان ذهنه يشرد أثناء محاولته التأليف ، حتى ليجد نفسه يترنم بلحن راقص يذكره بحفلة عيد الميلاد في نيس ومن حضروها ، خصوصاً الرجل الفرنسى السمين . وفى ظل هذه الظروف اضطر إلى التوقف مؤقتاً عن التلحين والتأليف .

وحاول بعد ذلك أن يؤلف أوبرا موسيقية ، وهانت عليه المهمة في بداية الأمر ، ولكن سرعان ما انهالت صعوبات لا يتوقعها : فقد كان يريد أن يجعل من چو بطل الأوبرا المنشودة ، وراح يشهد ذاكرته بذكرياته العاطفية وصورهما الخيالية الرائعة ، فإذا بذكرته تخونه ، كأنما ركبها عناد چو ، فلم تطالعه إلا بصور مشاكساتها وأخطأها وشذوذها . لم يذكر لحو موقفاً عاطفياً يليق بخيال الموسيقى ، إنما تذكر كيف كانت تصب على عواطفه الملتببة ماءً بارداً حين تحتفى منه على الأريكة بوسادتها الخشنة القاسية . وتوالت عليه مثل هذه الصور الفكهة ، فلم يستطع أن يكتم

ضحكة أفسدت الخيال الذى كان يريد أن يصنع منه أجواء أوبرا ، وعندئذ أدرك أن جو لا يمكن بحال من الأحوال أن تلعب دوراً فى هذه الأوبرا . قال لنفسه وقد عدل نهائياً عن تنفيذ فكرته : « لله كم عذبتنى هذا الفتاة ! » ، وأمسك بشعر رأسه يشده فى عنف حتى اختلط وتشعث فأصبح شكله يشبه الفنانين الحائرين .

وعاد يبحث من جديد عن بطلة أخرى لأوبرا ، ويفتش فيمن يعرفهن عن فتاة تصلح لأن يخلدها بألحانه ، فهدته ذاكرته إلى واحدة تملك المؤهلات اللازمة لهذا الدور ؛ ولكنه لا يستطيع تحديدها بدقة ، لأن صورتها تراءت مع نساء أخريات ، كانت تتميز عليهن دائماً بشعرها الذهبى ، وغلاتها الشفافة التى تسبح فى الهواء ، وسط خليط مشتت من الورود والطواويس والأمهار البيض والأشرطة الزرقاء . ولم يحاول لورى أن يطلق على هذا الطيف اسماً ما ، ولكنه اتخذ منه بطلة الأوبرا ، وأسرف فى التعلق بهذه البطلة ، حتى خلع عليها مواهب الدنيا ومحاسنها ، وذهب فى الترفق بها إلى حد يحنق أنفاس أى امرأة ، إذا تحقق فى واقع الحياة .

وحمله الخيال على أجنحته السحرية ، وحلق به رويداً رويداً ، حتى فقد الرغبة فى العمل والتأليف ، وقنع بلذة الأحلام التى كانت تستولى عليه وهو يجلس إلى القلم والورق ، أو يجوب المدينة المرححة ترويحاً عن ذهنه المكدود ، الذى بلغ فى هذا الشتاء أقصى حدود القلق والركود . ولم يكن

إرهاقه الذهني نتيجة للإسراف في العمل ، فهو لم يفعل شيئاً يذكر ، ولكنه كان يفكر كثيراً جداً ، ويشعر بأن تغيراً ما سيقع في حياته بالرغم منه فيقول : « إذا كانت هذه تفاعلات العبقرية ، فلأدعها تأخذ مجراها الطبيعي » . ولكنه كان يحس في قرارة نفسه أن هذه التغيرات مسائل عادية جداً ، لا تمت إلى العبقرية بصلة . ومهما تكن هذه المسائل ، فقد كانت مراجلها تغلي في صدره إيداناً بتحقيق هدف معين ، فازداد مع الوقت سخطاً على حياته المفككة ، وبدأ يحن إلى أداء عمل ملموس ، يستغرق فيه جسداً وروحاً . وخرج من ثورته الفكرية إلى حقيقة حكيمة تقول : ليس كل من يعشق الموسيقى فناً أو مؤلفاً للأنغام .

وذاث ليلة ، عاد من الأوبرا الملكية ، بعد أن استمع إلى إحدى أوبرات موزار العظيمة ، وكانت الفرقة قد أحسنت عزفها ، فأوحى إليه ذلك بإعادة النظر في أوبراه التي ألفها ، وتقدير أحسن مقطوعاتها دون تحيز أو مجاملة ، وانكب عليها يدرسها قطعة قطعة ، فلما انتهى ، راح يحملق فيما حوله من التماثيل النصفية لعباقرة الموسيقى ، أمثال مندلسون وبيتهوفن وباخ ، ويتأمل ما أنتجوا من روائع الفن ، ثم أمسك فجأة بالأوراق التي سجل عليها أنغامه ، وجعل يمزقها بحزم وهدوء ، حتى أتى عليها كلها . ثم قال لنفسه في رزانة :

— كانت علي حق حين قالت إن الموهبة ليست عبقرية ، والعبقرية لا يخلقها الإنسان . لقد شفتني الموسيقى من غروري ، كما شفتها روما من



غرورها ! إنى لا أريد أن أكون مشعوذاً ، فإذا أفعّل الآن ؟  
 وبدا السؤال عسيراً أمام رغبته الملحة فى اكتساب رزقه بعرق جبينه ،  
 وتذكر قوله عن نفسه ذات مرة : « فلأذهب إلى الشيطان ! » ، ورأى  
 أن فرصته لتحقيق ذلك أصبحت الآن أوسع منها فى أى وقت مضى بفضل  
 المال والدعة ، فمن دأب الشيطان أن يستغل الأيدي المنعمة العاطلة .  
 كانت المغريات الآتمة القوية تطوقه ، ولكنه صمد لها ، فقد كان بالرغم  
 من تقديسه للحرية ، يقدر الإيمان والاستقامة والثقة بالنفس . وصانته هذه  
 الصفات من الفساد والانزلاق فى الرذيلة ، وشجعه على التمسك بأهداب  
 الخير ، وعدّ قطعته بلحده ، ورغبة خالصة فى أن يكون صالحاً أميناً عندما  
 يقول لأولئك الفتيات اللواتى أحبينه من صميم قلوبهن : « كل شىء  
 على ما يرام » .

وقد تقولُ ثرثرة كسزجراندى : « لا أصدق أن الأمور حقيقة على  
 ما يرام ، فالفتيان لا يستغنون عن الملذات ، ومن الحمق أن نطالبهم بإتيان  
 المعجزات » . ولثل هذه السيدة نقول : قد لا تصدقين يا مسزجراندى أن  
 الأمور على ما يرام ، ولكنها الحقيقة ، ومن النساء من تصنع المعجزات ،  
 وفى مقدور المرأة الصالحة أن ترفع الرجولة إلى مستواها الحق ، إذا كفت  
 عن مثل ما تقولين . دعى الصغار يتصرفوا كالصغار ، وكلما طال أمد  
 ذلك كان خيراً وأبقى . اتركى الشبان يأخذوا حظهم من الدنيا إن أرادوا ،  
 فى إمكان الأمهات والأخوات والصدقات أن يساعدهن على الخروج

من فترة الطيش في أقصر وقت ، ما دمن يثقن بهم ، ويعرفهم أن أحب فضائل الرجل إلى النساء ، الاستقامة والإيمان . وإذا قلت يامسر جراندى إن كلامنا هذا من أوهام النساء ، فدعينا نستمتع بوهمننا ما شئنا ، فبدونه تفقد الحياة نصف جمالها وخيالها وبهجتها ؛ ولولا هذا الوهم لحطمت المرارة آمالنا في الفتیان الشجعان الصالحين ، الذين ما زالوا يحبون أمهاتهم أكثر من أنفسهم ، ويقولون ذلك في صراحة تامة .

كان لورى يعتقد أن نسيان حبه لحو سينهك قواه سنين وسنين ، وكم كانت دهشته عظيمة حين اكتشف أن النسيان يأتيه مع الأيام سهلاً ميسوراً . ورفض في بادئ الأمر أن يقبل هذا التحول أو يصدقه ، بل ثار غضباً يتهم نفسه بالغدر ، ويتساءل عن سره ، إذ كان يجهل أن القلوب تأتي بالمتناقضات ، ومن طبع الزمن أن يؤثر فيها رغم أنوفنا .

أحس لورى بأن جرح قلبه قد اندمل بسرعة ، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر جو بعد أن كان يبذل الجهد في نسيانها ، ولم يكن الفتى مستعداً لمثل هذا التغير ، فعلى قلبه بالغضب على نفسه ، وغلبه شعور تمتزج فيه الراحة بنجبية الأمل ، فجعل يحرك جذوة حبه الخافية ، عساها تنقد ، ولكنها أبت إلا أن تتحول إلى وهج خفيف يشيع الدفء في جوانحه ، دون أن يعرضه للحمى . واضطر أخيراً إلى الاعتراف بأن ثورة هواه الصيباني قد هدأت بالتدرج ، حتى أصبحت عاطفة مستقرة لطيفة يغشاها الحزن أحياناً ، ولكنه حزن قصير الأجل لن يلبث أن يفسح الطريق

لحب أخوى يدوم إلى الأبد . وحين جال الحب الأخوى بفكره ، نظر باسمًا إلى صورة موزار المعلقة أمامه ثم قال لنفسه : « الحق أنه كان رجلاً عظيماً ، فحين أعياه الفوز بإحدى الأختين اتجه إلى الأخرى ، وعاش معها هانئاً سعيداً » . ولم ينطق لورى بهذه الكلمات ، ولكنها جالت بخاطره فانحنى على الخاتم القديم الصغير يقبله ، وقال لنفسه مستدركاً : — لا . . . لن أفعل ذلك ! لم أنس ولن أنسى . سأحاول مرة ثانية ، فإذا فشلت ، فعندئذ . . .

ولم يكمل لورى كلامه ، بل أسرع إلى القلم والورق يكتب إلى چو ليخبرها بأنه لا يستطيع الاستقرار على أمر ، ما دام هناك أمل في أن تغير رأيها ، ثم يسألها ملهوفاً إذا كان في مقدورها أن ترجع عن رفضها ، فيعود إلى الوطن ويسعد بالحياة معها ؟

وبقى ينتظر حائراً قلقاً ، وأخيراً أتاه ردها قاطعاً ، فحسم الموقف نهائياً إذ أرسلت تقول بإصرار وصراحة إنها لم تغير رأيها ولن تغيره ، وإنها مشغولة بيت ، ولا تريد أن تسمع كلمة الحب مرة ثانية ، فرجاؤها إليه أن يبحث عن السعادة مع غيرها ؛ على أن يحتفظ بركن صغير في قلبه لأخته چو . وكتبت على هامش الخطاب تطلب منه أن يخفى عن آوى سوء حالة بث ، وما دامت تنوى العودة في الربيع القادم ، فلا داعى لتعكير صفوماتبقى لها من أيام في الخارج ، ثم توجهت إلى الله بالدعاء أن يمنح بث فسحة من الوقت حتى ترى أختها . وطلبت من لورى أن

يواظب على الكتابة إلى أمي ، ولا يتركها فريسة للوحدة والقلق والحنين إلى الوطن .

وقال لوري يحدث نفسه ، وهو يفتح مكتبه استعداداً لتحرير رسالة لأمي ، وكأنما وجد في الكتابة لها النهاية الطبيعية للجملة التي لم يثمها منذ أسابيع .  
— سأفعل ذلك فوراً ! ويا للفتاة المسكينة ! أخشى أن تكون عودتها إلى البيت مؤلمة محزنة !

ولكنه لم يكتب الرسالة في ذلك اليوم ، فبينما كان يقلب في أوراقه بحثاً عن شيء تاه منه وسط قوائم الحساب وجوازات السفر ووثائق الأعمال ، عثر في أحد أدراجه على رسائل كثيرة من جو ، وثلاث رسائل من أمي ، ربطت بشريط أزرق أنيق ، وفاحت منها رائحة الزهور المحففة بداخلها . وجمع لوري خطابات جو ، وقد كسا وجهه تعبير من العجب والألم ، ثم رتبها ونفض عنها الغبار وطواها ، وأودعها درجاً صغيراً من أدراج مكتبه . وتوقف لحظة يفكر ، وهو يدير الحاتم الصغير في إصبعه ، ثم أخذ يخلعه في بطة ، ووضعها مع الخطابات ، وأغلق الدرج . وأحس كأنما هو عائد من مأتم ، فخرج إلى كنيسة القديس ستيفان ليستمع إلى عظة راعيها ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحس بألم طاغ ، فقد بدا له أن هذا التصرف أليق به من الجلوس لكتابة رسائل إلى فتيات جميلات وأرسل الخطاب سريعاً ، وأجابت أمي دون تأخير ، إذ كانت تشعر ببالغ الحنين إلى الوطن ، ولم تجد غضاضة في أن تعترف بذلك في

كتابها وازدهرت المراسلة بينهما ، وانتظمت الخطابات جيئة وذهاباً طيلة  
بواكير الربيع . وباع لورى ذخيرته من تماثيل الموسيقيين ، كذلك أحرق  
أوراقه وكراساته التى سجل فيها ألحان أوبراه ، ثم عاد إلى باريس راجياً أن  
تصل إليها لإحداهن قبل مضى وقت طويل . وكان يتحرق شوقاً إلى مدينة  
نيس ، ولكنه ابتعد عنها من تلقاء نفسه ، ولم تشأ أمى من جانبها أن تدعوه  
لأنها كانت عمر بتجربة جديدة ، لاتبج أن يعرف بها الفنى الذكى .

كان فريد فوهن قد عاد من سفره ، وسألها ذلك السؤال الذى كان فى  
نيتها أن تجيب عليه قائلة : « نعم » وأشكرك ، ولكنها اختارت الآن أن  
تقول له بصراحة وأدب : « لا ، أشكرك » . . والحق أن شجاعتها خانتها فى  
اللحظة الحرجة ، بعد ماتيين لها كم غيرت التجارب أهدافها ، فأصبحت  
ترى فى حياتها إلى ما هو أسمى من المال والجاه ؛ ورنى فى أذنها كلمات  
لورى حين قال : « فريد شاب لطيف المعشر ، ولكنى لا أعتقد أنه  
الرجل الذى تتشوقين إليه » . ولم تستطع إبعاد كلمات لورى عن ذهنها ،  
لا ، ولم تستطع أيضاً أن تنسى قولها له : « سأنزوح من أجل المال » ،  
وآلمتها ذكرى هذا الرأى المخجل الذى يتنافى مع دواعى الأنوثة ، فتمنت  
أن لو كان فى مستطاعها أن تسجبه ، حتى لا يظن لورى أنها امرأة مادية  
لا قلب لها ولا إحساس ، لأنها لم تكن تبتغى فى الواقع سيادة المجتمعات ،  
قدر ما تبتغى أن تكون محبة محبوبه . ومن حسن حظها أن لورى لم يكرهها  
من أجل هذه الكلمات المريعة ، إنما تغاضى عنها وبدا أشد عطفاً عليها

من ذى قبل . وكانت خطاباته الأخيرة تأتيا بفيض من السرور يعوض عليها معاني الأسى المكبوت التي كانت تلمسها في رسائل أهلها المتباعدة ، فانتظمت في الرد عليها بلذة مضاعفة . كانت تشعر بأنه واجب يتحتم عليها أن تؤديه نحو الفتي المسكين الوحيد ، الذي عاندهت جو في موقفها منه ، ولم يرق قلبها القاسى لتوسلاته . وعجبت آى كيف لم تبذل جو جهداً في حبه ، مع أنه أمر ليس بالعسير ، وكثيرات غيرها يتمنين نظرة منه . ولكن جو تختلف عن الفتيات الأخريات ، ولذلك استعصى عليها أن تكون له أكثر من صديقة ، فأثرت آى أن تظل له أختاً شقيقة عزيزة .

ولو أن كل أخ لقي من المعاملة مثلما لقي لورى أثناء هذه الفترة ، لأصبح الإخوة أسعد أهل الدنيا قاطبة : امتنعت عن مضايقته بالمحاضرات والعضات ، وراحت تسأله الرأى في كل أمر تقدم عليه ، وكانت تبدى منتهى الاهتمام بأحواله ، وتبعث إليه بهدايا صغيرة جميلة ، وتكتب له كل أسبوع خطابين تزيئهما بأجمل الرسوم ، وتملؤهما بأرق عبارات الثقة والإخلاص .

وبعض الأخوات يسعدهن أن يحملن في جيوبهن رسائل إخوتهن ، ليعدن قراءتها مرة بعد مرة ، في إعزاز بالغ وشوق عظيم : يبكين إذا كانت قصيرة ، ويضحكن إذا كانت طويلة ويحرصن في المحافظة عليها كأنها كنز ثمين .. ولكن آى لم تفعل ذلك على وجه التحقيق ، إنما شغلها التفكير حتى ذبل وجهها ، وفقدت اهتمامها بالمجتمعات ، فأعرضت عن الحفلات

والتفتت إلى الرسم تسلى به نفسها . ولم تكن ترسم صوراً جديدة بأن تحملها معها إلى أسرتها ، ولكنها كانت تقضى جل وقتها في دراسة الطبيعة وتجلس الساعات الطوال مكتوفة اليدين في شرفة قصر « فالروزا » ، تسرح الطرف حولها ساهمة ، أو تخطط صوراً لما يجول بخاطرها المشغول . فمرة ترسم تمثال فارس مفتول العضل منحوت على قبر ، ومرة ترسم شاباً يستلقى على الحشائش وقبعته تغطي عينيه . . أو فتاة ذات شعر متموج تخطر أنيقة في حلقة الرقص ، وهي تستند إلى ذراع سيد فارع الطول ، وكانت الوجوه في تلك الرسوم غير واضحة المعالم ، تمثيلاً مع التقاليد الفنية في ذلك العهد .

وظنت عمها بأنها نادمة على رفضها الزواج من فريد ، ولكن آى نفت ذلك مراراً وتكراراً ، حتى إذا أعيتها الحيلة إلى إقناع عمها بخطبها ، تركتها لشأنها تظن ما يجلولها ، مكتفية بأن تطمئن لورى إلى أن فريد سافر إلى مصر . ونزل الخبر عليه برداً وسلاماً ، فهدأت هواجسه ، وقال في نفسه :  
 — كنت واثقاً من أنها ستغير رأيها . يا للفتى المسكين ! إني أقدر شعوره ، وأرثى لحاله ، فقد مررت بتجربة مماثلة .

وشعر بارتياح كمن أزيح عن عاتقه عبء ثقل ، ثم أسند قدمه إلى الأريكة ، وعاد إلى خطاب آى يقرؤه بلذة ، كأنه قام نحو الماضي بالواجب كاملاً .

كانت هذه الأمور تجري في الخارج ، والأحزان تبلغ أقصاها في

بيت آل مارش ، ولكن آى لم تتسلم الرسالة التى تنبئ بضيعة الأمل فى حياة بث ، وحين أتمها الرسالة التالية فى مدينة فيفاى ، كانت الحشائش قد اخضرت على قبر أختها الراحلة .

كانت حرارة الجو فى شهر مايو قد أغرت آى وصحبها بالرحيل عن نيس إلى سويسرا عبر جنوة والبحيرات الإيطالية ، وهناك جاءها الخبر المحزن فاحتملته ، ولكنها لم تقطع رحلتها عملاً بمشورة أهلها ، الذين رأوا أن تطلب السلوى فى السفر ، بعد أن فاتتها رؤية أختها قبل موتها . ومضت بها الأيام مثقلة القلب بالهموم ، وغلبتها أحزانها فأثرت أن تقضى وقتها أمام البحيرة ، ترنو إلى الأفق ، راجية أن يعود لورى ، ليسرى عنها ويعزيها . ولم تكذبها آمالها ، فعند ما تلقى الفتى النبأ الحزين متأخراً ، بسبب سفره إلى ألمانيا ، حزم أمتعته ، وودع أصدقاءه ، ثم رحل إليها فوراً ، وقلبه ملى بالحنن والسرور ، والقلق والأمل .

وكان لورى يعرف مدينة فيفاى جيداً ، فما إن مست سفينته رصيف الميناء ، حتى قفز إلى البر وهو يبحث الخطى نحو مبنى « لافور » حيث يقيم آل كارول . وقابله الخادم بدهشة ، وأخبره بانصراف جميع أفراد الأسرة إلى النزهة فى البحيرة إلا المدموازيل الشقراء ، فقد تكون فى الحديقة ، ثم رجا السيد أن يتفضل بالجلوس لحظة حتى يخطرها بحضوره . ولكن السيد لم ينتظر ولا نصف لحظة ، بل غادر المكان مسرعاً ، ليبحث بنفسه عن المدموازيل !

وعلى شاطئ البحيرة الجميلة ، كانت الحديقة مثل جنة رائعة ،  
تظللها أشجار الكستناء الفارعة وتزينها شجيرات اللبلاب المتسلقة ، ومن  
بين الأغصان تنعكس صورة البرج الأسود على صفحة المياه الساطعة .  
وكانت أمى فى ركن منها تجلس على مقعد اعتادت أن تخلو إلى نفسها فيه  
لتقرأ أو ترسم أو تمتع نفسها بما حولها من الجمال الطبيعى . وكانت ، حين  
أقبل لورى ، تعتمد رأسها بيديها ، وقد فاض قلبها بالحنين للوطن ،  
ودمعت عينها حزناً على بث ، فلم تنتبه إلى وقع أقدامه وهوى عبر الفناء ،  
لا ، ولم تره وهو يقف فى الطريق الموصل إلى الحديقة المزينة بالأقواس .  
ولزم الفتى مكانه لحظة يتأملها بعين جديدة ، فىرى فيها العاطفية الرقيقة ،  
ذلك الجانب من شخصيتها الذى لم يره من قبل . كان كل ما حولها يوحى  
فى صمت بالحب والأسى ؛ من الخطابات التى تحت سطورها الدموع  
إلى الشريط الأزرق الذى ربطت به شعرها ، إلى الألم والصبر اللذين تجليا  
على وجهها ، وحتى الصليب الأبنوسى الأسود الذى كانت تزين به  
جيدها ، أثار فى نفسه شتوناً وشجوناً ، إذ كان قد أهداها إياه فى إحدى  
المناسبات ، فاخترت اليوم أن يكون حليتها الوحيدة . وإذا كان لورى  
فى شك من وقع زيارته عليها ، فقد تبخر شكه فى اللحظة التى وقع فيها  
نظرها عليه . والحق أنها أخذت بمجيئه ، فأسقطت ما فى يدها وحجرها  
وهرعت إليه تصيح فى لهجة تفيض بالحب والشوق :

— أواه يا لورى ! كنت واثقة من حضورك !

وجاءت لحظات الصمت التالية أبلغ من الكلام ؛ وقفاً جنباً إلى جنب خاشعين ، رأسه الأسود ينحني عطوفاً على رأسها الذهبي ، كأنما يريد أن يحمىها من أحداث الزمن . وأحست أمى أن أحداً غير لورى لا يستطيع أن يعيد السكينة إلى نفسها ، وشعر لورى أنه ما من امرأة فى العالم غير أمى تستطيع أن تملأ مكانة چو فى قلبه . ولم يفصح الفتى عن شعوره ، ولم تتضايق أمى لذلك ، فقد أدرك الاثنان الحقيقة بمنتهى الرضا ، وتركنا للصمت البليغ تنمة ما بدأته العيون .

وبعد قليل عادت أمى إلى مقعدها وهى تجفف دموعها ، فتشاغل عنها لورى بجمع الأوراق المتناثرة على الأرض ، متفائلاً بما فيها من صور وأضواء تبشر بمستقبل سعيد . وحين جلس إلى جانبها احمر وجهها خجلاً على ما بدر منها عند لقاءهما منذ لحظة ، وقالت وهى تحاول عبثاً أن تستعيد هدوءها :

— لم تكن لى حيلة فى أمر نفسى ، فاعذرنى ! كنت وحيدة حزينة ، فجاءت رؤيتك مفاجأة سارة ، بعد ما كدت أفقد الأمل فى حضورك .  
قال :

— ما إن بلغنى الخبر حتى أسرعرت إليك . ليتنى أعرف كيف أعزبك عن فقد الصغيرة العزيزة بث . ولكنى فقط أحس . . .  
وتولاه هو الآخر خجل مفاجئ ، فتلعثم عاجزاً عن الكلام . كان يوده أن تسند رأسها إلى كتفه ، وتبكى أحزانها وآلامها ، ولكنه لم يجرؤ

على التقدّم بهذا الاقتراح ، فاكتفى بأن أخذ يدها بين يديه وضغط عليها في عطف أبلغ من الكلام . قالت أمى في رفق :

— لا داعى للكلام ، ففي إحساسك أجمل العزاء . إن بث الآن أسعد حالا ، وما من أحد يتمنى لها العودة إلى عذاب المرض ، ولكنى أتهدب الرجوع إلى أهلى رغم شوقى البالغ إليهم .. دعنا من هذا الحديث فإنه يثير أشجانى ، وأنا أريد أن أسعد بوجودك معى ، فهل تبقى معنا أياماً ، أم تترك مضطراً إلى العودة سريعاً .

قال :

— لن أعود إذا كنت تريدنى معك .

قالت :

— بل أريدك أن تبقى ، فأنا شديدة الحاجة إليك ، لست أنكر حنان عمى وقلو ، ولكنى أعتبرك واحداً من أهل بيتى ، وصحبتك تعالج أحزاني وتسرى عنى .

وبان الحنين إلى الوطن فى لهجتها ، فكانت وهى تتكلم مثل طفل طالبت غيبته ، فاستبد به الشوق إلى بيته . وإزاء ذلك تخلى لورى عن خجله ، وراح يسبغ عليها ما وسعه من التذليل ، فيقول لها بعطف امتزج فيه الرجاء بالأمر :

— يا للصغيرة المسكينة ! ! يبدو أن الحزن أورثك السقم والمرض ، فعلى أن أعنى بك وأرفه عنك . كفاك بكاء يا عزيزتى ، وهيا بنا نتمشى

قليلا ، فجلوسنا في مثل هذا الجو البارد غير مستحب .

وتأبط ذراعها ، وسارا يذرعان الممر المشمس جيئة وذهاباً تحت أغصان الكستناء الخضراء الجديدة . وانتعش لورى بالسير على قدميه ، واغتنبت آى إذ وجدت إلى جانبها ذراعاً قوية تعتمد عليها ، ووجهاً مألوفاً يبتسم لها ، وصوتاً حنوناً يتحدث إلها في غبطة وسرور .

كانت الحديقة القديمة قد سبق أن أظلت كثيراً من المحبين ، ولكنها بدت في ذلك اليوم كما لو كانت أنشئت لهما وحدهما ، فالشمس تغمرهما في عزلتهما ، والبرج الأثرى يطل عليهما دون غيرهما ، والبحيرة لا تردد إلا صدى صوتيهما . ومضت ساعة وهما يسيران ويتحدثان ، أو يستريحان على السور المنخفض في نشوة بسحر اللقاء والمكان . ثم قطع حبل الخيال صوت ناقوس الغداء ذوالرنين الخالى من الجمال ، منذراً لياهما بالافتراق ، فسارت آى إلى البيت وهى تشعر كأنما انزاح عن صدرها كابوس الوحدة والحزن ، وكأنما تركت أشجانها جميعاً وراءها في تلك الحديقة .

وما إن وقع نظر مسزكارول على وجه آى ، ورأت ما حدث فيه من تغير ملحوظ ، حتى برقت في ذهنها فكرة جديدة ، فقالت تحدث نفسها بدهشة : الآن عرفت كل شيء ، فقد كانت الفتاة تحن طول الوقت إلى رؤية لورنس ، فليرحمى الله !! لم يدر ذلك في خلدى قط !!

وكتمت السيدة الطيبة خبر ما رأت ، ولم تحدث أحداً به أو تفضح سرورها ، واكتفت بملاطفة الفتى ، راجية إلى آى أن تستمتع بصحبته

بعد ما أمعنت في الوحدة والانزواء . وأثبتت آى أنها مثل يحتذى في طاعة العمة ، فانصرفت إلى تحية صديقتها والترحيب به في منتهى الحماسة والتوفيق ، وساعدها على ذلك تشاغل العمة عنها بأمر ابنتها فلو .

وتغيرت حال لورى في فيفای عنها في نيس تغيراً أثار إعجاب آى وسرورها . فبعد أن كان خمولا كسولا ، أصبح متحمساً نشيطاً ، لا يرى إلا وهو يمشى أو يركب ، أو يجدف في قاربه بشدة ، أو يدرس في همة واجتهاد ، وكان يعزو تغيره إلى جو فيفای المنعش فتؤمن آى على قوله ، لتفسر هى الأخرى تحسن صحتها باعتدال روحها المعنوية .

وكان للجو المنعش فعله الطيب فيهما ، كما أفادتهما الرياضة جسداً وعقلا ، وترتب على ذلك أن تكشفت لهما الأمور على حقائقها ، ووضحت معالم الحياة وحدود الواجبات في ربوع تلك البقعة الجبلية ، وبددت الرياح المنعشة سحب الشكوك وصباب الأحزان ، وأيقظت شمس الربيع الدافئة ألواناً حلوة من الأفكار والآمال والأحلام ، وغسلت مياه البحيرة الرقراقة متاعب الماضى القاسية ، وأطلت عليهما الجبال الشاهقة تهمس في أسماعهما حانية مترفقة : « أيها الطفلان الصغيران ، دعا الحب ينم في قلبيكما . » ومضى الوقت بهما سعيداً ، رغم مصابهما في بث ، وكانت السعادة دافقة بحيث لم يجرؤ لورى أن يعكر صفوها بكلمة أو إشارة . ولقد أدهشت الفتى تلك السرعة التي شفى بها من حبه الأول ، فخلا إلى نفسه يجمع شتات أفكاره ؛ كان يعتقد أن حبه لچو هو حبه الأول والأخير ، فراح يعزى

نفسه على عدم ولائه لها بأن أمى أخت چو ، فكأنها چو نفسها ، ولولم تكن كذلك ما انشغل قلبه بها .

لقد كان حبه الأول عاصفاً ، وكان ينظر إليه كحلقة طويلة من الأحداث التي تبعث في النفس خليطاً من العاطفة والندم ، دون أن يكون فيها ما يدعو إلى الحجل ، وقد نجح ، بعد طول تفكير ، في تنحية هذا الحب جانباً كتجربة حلوة مرة ، ومن حسن الحظ أن مرت بآلامها وأشجانها .

أما حبه الجديد ، فقد قرأن يجعله هادئاً ما استطاع : فأى تعرف ما يمكنه لها ، وليس هناك ما يدعو إلى تعقيد الأمور بموقف يبثها فيه غرامه ، والواقع أنها أدركت الحقيقة من البداية ، ورضيت بالوضع مطمئنة ، وتم الأمر في أسلوب طبيعي هادئ سوف يسر له الجميع حتى چو نفسها ، ولكن صدمته في غرامه الأول جعلته أكثر حذراً في تصرفاته وأشد تمهلاً في شق طريقه إلى تجربته الجديدة ، ولذلك ترك الأيام تمر ، وراح يستمتع بكل لحظة منها ، تاركاً للظروف خلق الفرصة التي يبوح فيها بغرامه .

وكان الخيال يرسم له ختام هذه القصة الغرامية في موقف جميل بالحديقة الرائعة تحت ضوء القمر الساحر ، وفي أسلوب جذاب رشيق ، يتفق وجمال القصة والمكان ، ولكن الحوادث هدمت تخيلاته كلها ، إذ جاء الختام على مياه البحيرة في وقت الظهر ، وبكلمات قليلة بسيطة : كانا يتنزهان معاً في القارب منذ الصباح ، يتنقلان من سان جينجولف

الرزينة إلى مونتر و المرحة ، تحف بهما جبال الألب من ناحية ، وقمة جبل سان برنارد من الناحية الأخرى ، وأمامهما تظهر فيفاى وسط الوادى و بجوارها لوزان فوق التلال ، ومن فوقهما سماء صحو زرقاء ، ومن تحتهما مياه البحيرة التى انتشرت القوارب الجميلة على صفحاتها اللازوردية ، كأنها نوارس بيضاء ، تضرب الماء بجناحيها .

كانا يتحدثان عن بونيقارد وهما ينزلقان بالقارب أمام شيلون ، ثم ذكرا روسو وهما يبران بكلازنس . . المدينة التى كتب فيها قصته « هلواز » . ولم يكن أحدهما قد قرأ تلك القصة ولكنهما كانا يعرفان أنها قصة غرام ، ويتساءلان : هل كانت كحبهما قصة ممتعة ؟ . . وران عليهما الصمت لحظة كانت آتى خلالها تتأمل يدها المغموسة فى ماء البحيرة ، وحين رفعت رأسها رأت لورى يميل بجسده على المجاديف ، وفى عينيه تعبير جعلها تقول فى عجلة :

— إنك متعب ولا شك ، فاسترح قليلاً ودعنى آخذ المجذافين منك ، فانالم أجذف منذ جئنا إلى هذا المكان ، وحياتى كلها تنقضى فى خمول وكسل .

قال ، وكأنما الفكرة التى يعرضها ترضيه .

— لست متعباً ، ولكن لا مانع من أن تمسكى بأحد المجذافين ، والمكان يتسع لكلينا ، وإن يكن من الضروري أن أجلس فى وسط المقعد حتى لا يدور بنا القارب .

ولم تجد آمى فى هذا الاقتراح حلا للموقف ، ولكنها قبلت ثلث المكان الذى قدمه لها ، ورفعت شعرها المتهدل على وجهها ، وأمسكت بالمجذاف وأخذت تحركه فى مهارة ، شأنها فى كل عمل تقوم به . وعلى الرغم من أنها كانت تستعمل كلتا يديها ولورى يستعمل يداً واحدة ، فقد تناسقت قوى المجذافين ، وسار القارب يشق الماء فى هدوء .

وقالت آمى تقطع جبل الصمت :

— ما أحسن تعاوننا على تسيير القارب !

قال :

— تعاون بديع . . . بودى لو يدوم ، فهل توافقين يا آمى على

أن ترتبط بمصير واحد ؟

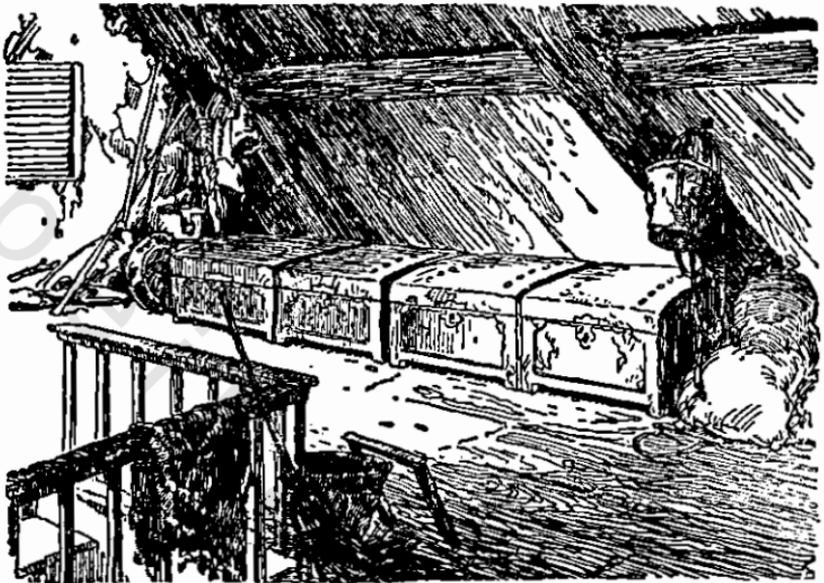
همست قائلة :

— نعم . . . يا لورى !

ودون أن يشعر بما يفعلان ، توقفا عن التجذيف ليضيفا منظراً

جديداً جميلاً إلى لوحة الحب البشرى السعيد ، التى تنعكس صورها

على صفحة البحيرة . .



## الفصل الثاني والأربعون

### بين زوايا الوحدة

يسهل على المرء أن يقطع على نفسه وعوداً بالتضحية وإنكار الذات ،  
إذا اندمجت نفسه وتلاشت في شخص آخر حبيب إليه ، يراه دائماً أمامه  
كمثل يحنّديه في صفاء الروح ونقاوة المثل العليا . ولكن يشق على المرء أن  
يفي بوعوده هذه إذا غاب صوت الوحي عنه إلى الأبد ، وذهب المثل الأعلى  
إلى غير رجعة ، واحتجب الحبيب عن العيون في ثنايا الأبدية ، تاركاً  
وراءه أحزاناً لا نهاية لها . . . في مثل هذا الوضع وجدت جو نفسها بعد

رحيل بث ، ورأت صعوبة الوفاء بعهودها على التضحية وإنكار الذات . فكيف تستطيع أن تبعث السكينة والهدوء في قلبي أمها وأبيها وهي لا تقوى على تهدئة سعي قلبها الذي يحترق بنيران الشوق إلى أختها الراحلة ؟ وكيف يمكنها أن تشيع البهجة في البيت بعد أن هجره النور والدفء والجمال حين غادرته بث إلى مرقدتها الأخير ؟ وأين تجد في العالم كله عملاً نافعاً تسعد به وتُشغل ، بعد أن انقضى عهد الخدمات العريضة التي كانت تؤديها لأختها الراحلة ، فتلقى من تقديرها أجمل العزاء والسلوى ؟ لقد حاولت بكل جهدها أن تؤدي واجبها مغمضة العينين بلا أمل ؛ ولكن ثورة مكبوتة تملك قلبها ، فقد بدا لها ظلاماً أن تسلب منها مسراتها القليلة المحدودة ، في الوقت الذي يثقل فيه حمل أعبائها ، وأن تشد عليها الحياة حين يتضاعف نصيبها من العمل والكفاح . ليس من العدل في شيء أن يجد بعض الناس الحياة أمامهم كلها نضرة ونعيم وإشراق ، ولا يجد بعضهم الآخر إلا ظلالاً باردة موحشة . لقد جاهدت كي تصير فتاة طيبة صالحة أضعاف ما فعات آتى ولكنها لم تنل حقها من جزاء ، ولم تفرز إلا بالشقاء والنصب وخيبة الأمل .

يا لحو المسكينة ! لقد مرت بها في تلك الفترة أيام حالكة ، كان اليأس يستبد بها فيها حين تفكر في أنها ستقضى بقية عمرها في هذا البيت الهادئ ، لا تجد من المسرات إلا قليلاً ، ولا من الأعمال إلا مُمَلِّتها ، ولا من الواجبات إلا أنقلها !

وعندما فشلت جهودها في قهر أحزانها ، وغلبتها التعاسة التي تولد

عندما تخضع الإرادة القوية لواقع الأمر مضطرة ، قالت لنفسها : إنى لا أستطيع القيام بمهمتى ، لأنى لم أخلق لحياة كهذه ، وإذا لم يبادر أحد بمعونتي ، فلا بد أن تثورنفسى ، فأرتكب عملاً طائشاً .

ولم يجب رجاء چو ، فقد جاءها المعين دون أن تدرك ، وقبض الله لنجدتها ملكاً بشرياً ، وجهه مألوف لها ، وعباراته محببة إلى نفسها . . . كانت چو ، منذ رحيل بث ، تتخيل وسط الليل أن أختها تناديها ، فتقوم من نومها مليئة النداء مذعورة ، وما إن تنظر إلى الفراش الصغير الخالى من صاحبه ، حتى تبكى بكاء حاراً ، يكشف عن حزن عميق ، لم تستطع الأيام أن تتغلب عليه . ووسط هذه الدموع المبهمة تصيح من أعماق قلبها : « بث ! أواه يا ربى ! عودى إلى ! . . . عودى إلى ! » ، ثم تمد ذراعها فى ضراعة ، فلا تمتد عبثاً ، إذ سرعان ما تسمع الأم صوت نحيبها فتُهرع إليها كما كانت تفعل مع بث حين تسمع أنها المتوجعة المكبوتة ، فتهرع إليها لتخفف عنها باللفظ الحلو والحنان البالغ ، فتمسح آلامها بلمسة خفيفة ثم عن حزن أعمق من حزن چو ، أو بهمة متقطعة أبلغ فى أثرها من الدعوات . ولا غرابة فقد كان تسليمها بقضاء الله لا يقل عن أملها فى رحمته . وفى هذه اللحظات المقدسة ، التى يتحدث القاب فيها إلى القلب فى سكون الليل ، فتتحول الشدائد نعماً بما تغرسه من حب وما تزيحه من حزن . . . والى يتدفق فيها الحب الأموى ، فيخفف عن النفس همومها ، استطاعت چو أن تحمل العبء بسهولة ، وأن تقبل على



أداء واجبها راضية النفس ، وبين ذراعى أمها الحنون أصبحت الحياة محتملة مقبولة .

و حين سكنت آلام القلب قليلا ، واسترد العقل المتعب بعض هدهوته ، دخلت چو ذات يوم إلى غرفة المكتب ، وانحنيت على رأس أبيها الأشيب الطيب ، فرفع بصره إليها بحبيها ببسمة هادئة . قالت فى تواضع :  
 - هلا حدثنى يا أبى كما كنت تحدث بث ؟ ! إنى أحتاج إلى حديثك أكثر مما كانت هى تحتاج إليه ، لأنى غارقة فى الخطأ إلى قمة رأسى !

قال فى صوت خفيض متقطع ، وهو يحتويها بين ذراعيه كما لو كان هو الآخر فى حاجة إلى معونتها ولا ينجله أن يطلبها منها :  
 - ليس أبعث إلى راحة نفسى من ذلك !

وجلست چو بجواره على مقعد بث الصغير ، وراحت تقص عليه أحزانها الثائرة أفقد أختها ، ثم فشل جهودها فى التغلب على تلك الأحزان حتى تزعزع إيمانها ، وأصبحت حياتها مظلمة موحشة . . . منحته ثقمتها كاملة ، فأعطاها العون الذى تنشده ، ووجد كلاهما العزاء كل العزاء فى هذه الجلسة التى مكنتهما من أن يتحدثا معاً ، لا كأب وابنته ، بل كرجل وامرأة يسرهما أن يتبادلا المعونة عن حب وعطف .

وفى هذا المكتب القديم ، الذى كانت چو تسميه « كنيسة الفرد الواحد » ، قضت الفتاة الحزينة وقتاً عامراً بالتفكير والسعادة ، وخرجت

منه وقد جددت شجاعتهما ، واستعادت بشرها ، وسيطرت على روحها ، وصفت نفسها . وهكذا تكاتف الوالدان ، اللذان استطاعا أن يعدا طفلتهما لاستقبال الموت راضية شجاعة ، على أن يعدا طفلتهما الأخرى لاستقبال الحياة في ثقة تعلمها كيف تنهز الفرص الجميلة ، وتستمتع بها قوية راضية شاكرة .

وتوالت المعونات على چو ، فاستطاعت أن تدرك أن في أداء الواجبات المتواضعة مسرات صغيرة تخفف عن نفسها ، فتضاءلت كراهيتها للمكانس والمناشف التي كانت من اختصاص بث فيما مضى ، وراحت طبيعتها المحبة لبث تدفعها إلى استعمال مكنسة بث وفوطتها ، اللتين لم يلق بهما في سلة المهملات أبداً . واعتادت على حملهما بالتدريج ، ثم وجدت نفسها تترنم بالأغاني التي اعتادت بث أن تترنم بها وهي تشتغل ، كما سلكت في تنظيم البيت سلوكها أيضاً ، فتضفي لمسة هنا ولمسة هناك لتعيد إلى الغرف رونقها السابق . هكذا بدأت چو طريقها إلى إعادة السعادة المنزلية دون أن تشعر ، ولم تدرك كم بذلت في هذا الطريق من خير ، حتى قالت لها حنة ذات يوم ، وهي تضغط على يدها تقديراً وإعزازاً :

— يا لك من مخلوقة ذكية ، يبدو أنك قد قررت ألا تدعينا نفتقد جهود راحلتنا العزيزة ، فقممت عنها بكل ما كانت تفعله . . إننا نرى ولا نتكلم ، فبارك الله فيك من أجل معونتك لنا !

وذات يوم جلست چو وميج تطرزان معاً ، وطال الحديث بينهما ،

فأدركت جو مدى التقدم الذى أحرزته أختها فى إدارة بيتها ورعاية شئون أسرته ، وارتاحت نفسها لما سمعتها تتكلم عن أطيب دوافع النساء وأرق مشاعرهن ، وتصف بحماسة كيف أصبحت سعيدة بزوجها وأطفالها ، وإلى أى مدى تتبادل وچون المعونة فى سبيل تحقيق الهناء المنزلى . قالت ، وهى تصنع طائرة لابن أختها ديمى فى حجرة الأطفال ، التى انقلبت رأساً على عقب :  
 - الزواج حياة جميلة على كل حال ، ولكنى أتساءل هل يكون فى استطاعى إذا ما تزوجت أن أحرز نصف ما بلغته من سعادة ؟

فقال ميج :

- إنه الأدر الوحيد الذى يكشف عن الجانب الرقيق من طبيبتك النسوية ، أنت كشمرة الكستناء يا جو ، خشنة اللمس فى ظاهرها ، ناعمة كالحرير فى داخلها ، حلوة المذاق إذا استطاع إنسان أن يصل إلى غورها . سيكشف الحب يوماً عن دخيلة قلبك ، وعندئذ تسقط عنك هذه القشرة الخشنة ويظهر لبك الجميل .

قالت جو وهى تعالج طائرة ديمى ، وقد تعلقت بها ديزى كحمل ثقيل يمنعها من الطيران :

- لا أود ياسيدتى أن أكون كالكستناء ، فإن الصقيع يشقق قشورها الخشنة ، ولا بد من هزة عنيفة لإسقاطها من أشجارها ، ثم إن الصغار لا يسكتون عن محاولة جنيتها ، ولست أحب أن أوضع فى الحقايب التى يجمعونها فيها .

وضحكت ميج وقد سرها أن ترى وميضاً من روح چو القديمة ، وأحست في ذات الوقت بواجبها في إقناع أختها برأيها ، فراحت في حديثها تقدم الدليل بعد الآخر ، وتوضح ما كان منه متصلاً بالأطفال الذين تحبهم چو . ولم يذهب حديثها سدى ، فالخزن عند بعض الناس خير مفتاح للقلوب المغلقة ، خصوصاً أن چو كانت كالثمرة التي شارفت على النضج ، ولم يعد ينقصها سوى مزيد من أشعة الشمس لتبلغ كمالها . لم يكن يصلح لقطافها هزة صبي صغير ضيق الصدر ، إنما كانت في حاجة إلى يد رجل قوى ، يخرجها برفق من بين الأشواك المحيطة بها ، ليستمتع بها سليمة كاملة . ولو أن مثل هذا الخاطر جال بفكر چو ، ما ترددت عن إبراز أشواكها في صمت وعنف ، ولكنها لم تكن عندئذ تفكر في نفسها من حسن الحظ ، فلما حان الوقت سقطت ثمرتها الناضجة ، من غير أن تدرك أو تحس .

والعادة في بطلات القصص الأخلاقية ، أن يظهرن في صورة القديسات ، ويفقن أهل العالم في عمل الخير ، ويملأن جيوبهن بالكتب الدينية . ولكن چو لم تكن بطلة بحال من الأحوال ، وإنما كانت امرأة تجاهد في الحياة وتكافح ، شأنها شأن مئات من مثيلاتها . ولقد تصرفت بما توحيه عليها طبيعتها المتقلبة بين الحزن والغضب ، وبين الشرود والنشاط . وجميل أن يقول المرء : سأكون طيباً ، ولكنه لن يستطيع أن يكون كذلك فوراً ، فالأمر يحتاج منه إلى مجهود طويل شاق ، وتعاون بالغ مع

الناس ، حتى تتضح له طريق الخير ، فيستطيع أن يسير فيها . ولقد وضعت جو قدمها في أول الطريق ، بعد أن تعلمت كيف تؤدي واجبها ، ثم قطعت فيها خطوة أخرى حين روضت نفسها على الرضا بأداء هذا الواجب . كانت أمنيته دائماً أن تقوم بعمل مجيد ، وأن تبلغ به غاية الكمال مهما اعترضها من صعاب ، فكان من حسن حظها أن تحققت أمنيته بأنبيل عمل تستطيع أن تقوم به في حياتها ، ألا وهو خدمة والديها ، وإسعادهما في شيخوختهما ، مثلما أسعدها في طفولتها . وإذا كانت الصعاب والشدائد ضرورية لتنمية الجهاد، فليس أشق على فتاة طموح من أن تنزل عن آمالها وأمانيتها مختارة، لتحيا وتنفى في خدمة الآخرين راضية ! لقد أخذتها المقادير عند كلمتها ، فأبرزت لها هدفاً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن أهدافها الأولى ، ولكنه يفوقها جمالاً ولاخاوه من النفع الشخصي ، فهل تنجح في بلوغه ؟ كان في نيتها أن تحاول ، وقد شاءت الظروف أن تنجح في محاولتها بفضل معونة والديها ، ثم عرضت لها معونة أخرى قبلتها شاكرة ، لا كجزء تستحقه ، بل وسيلة إلى الترفيه عن النفس ، فقد قالت لها أمها ذات يوم ، بعد أن انقشعت عن نفسها موجة القنوط :

— لم لا تكتيين ، وقد كانت الكتابة تسعدك دائماً ؟

قالت :

— قلبي لا يطاوعني على الكتابة ، وحتى إذا استطعت أن أتغلب عليه فلن يهتم أحد بما أكتب .

قالت الأم :

— إننا معنيون جميعاً بما تكتبين ، فاكتبي لنا ولا تهتمي ببقية العالم .  
حاولي يا عزيزتي ، فلا شك أن الكتابة تفيدك مثلما تسعدنا .

قالت جو :

— لا أستطيع ذلك على ما أعتقد .

ولكنها رغم ذلك ، أخرجت محتويات مكتبها ، وبدأت تنظم مخطوطاتها التي لم تتم .

وبعد ساعة من هذا الحديث ، استرقت أمها نظرة من ثقب الباب ، فوجدتها غارقة في الكتابة وقد لبست ميدعتها السوداء ، وبدأ عليها منتهى الاهتمام والاستغراق ، فانسحبت مسرّ مارش بهدوء وعلى شفيتها ابتسامة الرضا بنجاح فكرتها .

ولم تدر جو كيف تسربت روحها إلى القصة فسمت بها حتى جعلتها تصل إلى صميم قلب من يقرأها . وعلى غير إرادة منها أرسل أبوها القصة إلى إحدى المجلات المعروفة ، فنلقته الجريدة لا بالإعجاب فقط بل بدفع أجر عنها ، وطلب المزيد من أمثالها . وعندما نشرت القصة توالى على جو خطابات التقريظ التي بعث بها إليها أناس يعتبر مديحهم شرفاً عظيماً ، وتناقلت الصحف اليومية القصة ، وأعجب بها الأعراب والأصدقاء على السواء . ولقيت القصة ، على قصرها ، نجاحاً كبيراً أدهش جو أكثر مما أدهشها مديح الناس وذمهم لقصتها الطويلة السابقة .. قالت وقد عقدت الحيرة لسانها :

— لست أفهم شيئاً ! ماذا وجد الناس في القصة ليغدقوا عليها هذا

الثناء كله ؟

فقال أبوها :

— وجدوا فيها الصدق يا بنتي ، فالقصة واقعية ، وهذا سر نجاحها .

لقد أضنى عليها اجتماع الحزن والمرح حيوية بالغة ، وسما فيها الأسلوب وبلغ منتهى الكمال ، لأنك كنت تكتبين بوحى من ذاتك ، لا من أجل الشهرة أو المال . كتبها بقلبك فأخلصت وأبدعت . لقد ذقت المرّ يا عزيزتي ، وها أنت تتمتعين بالحلو أخيراً ! ابذلي جهدك يا چو واسعدى بنجاحك مثلما نحن سعداء .

قالت وقد غلبها التأثر لكلمات أبيها :

— إذا كان في القصة شيء صادق أو جميل فهو ليس من صنعى ،

والفضل لك ولأُمى ولبت .

وهكذا تعلمت چو من الحزن والسرور أموراً كثيرة سطرتها في قصصها فكسبت لنفسها ولقصصها من بين القراء أصدقاء يعتد بهم . ولقد وجدت أيضاً أن العالم بار بهذه الشوارد الذهنية المتواضعة يتقبلها في رفق ، ليعيدها إليها في صورة تقدير جميل .

وحين كتبت آمى ولورى ينبئان الأسرة بخطبتهما ، خشيت مسز مارش أن يشق الأمر على نفس چو ، فلا تستقبل الخبر بما يستحقه من غبطة وسرور ، ولكن سرعان ما تبددت مخاوفها ، فبالرغم من أن چو دهشت

للنبأ في بداية الأمر ، غير أنها لم تلبث أن استردت هدوءها ، وراحت تسلي نفسها بإعداد مشروعات عظيمة للخطيبين الصغيرين . وكان الخطاب في الحقيقة أشبه بمبارزة غرامية ، تسابق فيها كل من المحيين إلى الإشادة بصاحبه في أسلوب جميل ينطق بالإعزاز ، فجاء الخطاب مبهجاً لمن يقرؤه ، مرضياً لمن يفكر فيه ، وليس لأحد اعتراض عليه .

قالت جو لأمها ، بعد أن وضعت الخطاب الضخم جانبا :

— أيسرك هذا الأمر يا أماه ؟

قالت :

— نعم ، وكنت دائماً أتمنى ذلك . لقد أدركت يوم أنباتنا آتى برفضها خطبة فريد فوهن ، أن شيئاً أغلى مما أسميته « الروح التجارية » قد غلب على نفسها . وأحسست من بعض الإشارات والكلمات التي وردت في رسائلها أن الحب ولورى سيكسبان المعركة .

قالت جو :

— ما أقوى ملاحظتك يا أماه ، وما أشد صمتك ! كنت تتوقعين الأمر ، ولكنك لم تشيرى إليه بكلمة واحدة .

قالت :

— على الأمهات إذا أردن تسوية أمور بناتهن أن يلاحظن في صمت ، وكنت أخشى ، إلى حد ما ، أن أصارحك بما يجول في ذهني ، فتسرعى بهنثهما قبل الأوان

قالت جو :

— لم أعد طائشة الذهن يا أماه ، أنا الآن عاقلة رزينة ، ولى من الحكمة ما يجعلنى أحرص على ثقة الناس ، وأصون أسرارهم .

قالت الأم :

— نعم أنت حريصة وكتوم يا بنيتى ، وكان بودى أن أستودعك سرى . ولكنى خشيت أن تتألمى إذا عرفت أن عزيزك « تيدى » قد أحب فتاة غيرك .

قالت :

— لا يا أماه . لست غبية أو أنانية لأتألم بعد أن رفضت حبه حين عرضه فى أبهى صورة .

قالت الأم :

— لست أشك فى أنك كنت مخلصه حين رفضت حبه يا جو ، ولكن لا أخفى عليك أن نفسى كانت تحدثنى أخيراً أنه إذا عاد وطلب يدك مرة أخرى ، فقد تقولين له قولاً آخر . ساعينى يا صغيرتى ، فلم يكن يسيراً على أن ألمس عذابك فى وحدتك ، وأرى فى عينيك أحياناً نظرة جائعة تقطع نياط القلوب . ظننت الفتى قد يملأ فراغ نفسك إذا عاد إلى طلب يدك من جديد .

قالت جو :

— لا يا أماه ! الخير فيما اختاره الله ، وأنا سعيدة أن أحبه آتى .

ولكنك محقة في أننى أشعر بالوحدة والوحشة ، وربما قلت نعم للورى إذا حاول مرة ثانية ، لا لأنى ازددت حباً له ، بل لأنى أصبحت أهتم بأن أكون محبوباً أكثر من ذى قبل .

قالت أمها :

— ما أعظم سرورى بهذا القول يا چو! فهو يدل على أنك تتقدمين فى معنوياتك . هناك كثير يحبونك ، فحاولى أن تقنعى بمحبة أبيك وأهلك وأخواتك والطفلين والأصدقاء ، حتى يخرج من بينهم خير المحبين ، فتتالى بذلك أحسن الجزاء .

قالت چو :

— إن الأمهات خير المحبين فى الدنيا ، ولكن لا ينجلنى أن أهس فى أذنك يا أماه بأنى أريد تجربة كل أنواع الحب . وهذا شعور عجيب . فكلما حاولت لإرضاء نفسى بأنواع الحب الطبيعى ازدادت شوقاً إلى المزيد . ولم أكن أعتمد أن القلوب يمكن أن تتسع لكل هذا ، وقلبي فى غاية المرونة وأخشى أنه لم ينل غايته بعد . لقد اعتدت أن أقنع بمحبة أمى ، ولست أفهم سر هذا التحول الذى انتابنى .

وانحنت چو على خطاب أمى تعيد قراءة ما كتبه أختها عن لورى ، فقالت مسز مارش وهى تبتمس برزاة :

— ولكنى أفهمه !

وقرأت چو ما كتبه أمى :

« إنه لشعور جميل أن يكون الإنسان محبوباً بالقدر الذى يجب لورى به . إنه لا يتكلم عن الحب إلا قليلا ، ولكنى أشعر بعواطفه فى حركاته وسكناته وفى كل ما يقول وما يفعل . وهذا الشعور يجعلنى سعيدة جداً وضييلة جداً أمام هذا الحب العظيم . الحقيقة أنى تغيرت ولم أعد الفتاة التى كنتها من قبل . وما عرفت طيبة لورى وكرمه ورقته كما عرفتھا الآن ، فهو يسمح لى أن أستشف ما انطوى عليه قلبه من دوافع نبيلة وآمال واسعة أفخر بها . لأنى أعلم أنها كلها لى . إنى أحب لورى من صميم قلبى وروحى ، وبكل ما فى من قوة وعزم ، ولن أنخلى عنه ما أمد الله من عمرنا معا ، أو اه يا أماه ! لم أكن أدرى أن الحب المتبادل يحول هذه الأرض لى جنة سماوية ! ! » .

وطوت جو صحائف الخطاب معاً بعناية ، كما تطوى صحائف قصة جميلة تستهوى القارئ وتستأثر بمشاعره حتى يتمها ، فإذا أتمها وتلفت حوله وجد نفسه وحيداً وسط مشاغل الحياة اليومية .

قالت لأمها :

— أهذه أختنا آى العاقلة المتحفظة المهادنة ؟ حقاً إن الحب يصنع المعجزات ! ما أعظم سعادتهما ! لا بد أنهما غارقان فى بحور الهناء . وبعد قليل أخذت جو تطوف أنحاء البيت وهى فى طريقها لى الطابق العلوى ، فقد كان الجو مطيراً لا يسمح بالمشى ، وتملكتها روح القلق ، وطفى عليها ذلك الشعور الذى كاد يجرفها بتياره أول الأمر ، ولكنه لم يكن

قاسياً في هذه المرة ، بل كان مجرد أصدقاء حزينة لأسئلة تتردد في نفسها  
 قائلة : لماذا تنال أخت كل ما تطلب وتحرم أخت من كل شيء ؟ . .  
 وكانت چو أعلم بما في ذلك الخاطر من سوء ، فحاولت إبعاده من رأسها ،  
 ولكن رغبتها في أن تكون محبوبة كانت قوية متمكنة ، فأيقظت سعادة  
 أمي تعطش نفسها إلى أن يكون لها من يحبها قلباً وروحاً ، ويتمسك بها ما  
 أمد الله في عمرهما معاً . وظلت چو تطوف بالبيت على غير هدى ، حتى  
 ساقها قدمها إلى غرفة السطح ، حيث وجدت أربعة صناديق مصفوفة ،  
 يحمل كل منها اسم صاحبه . وكانت الصناديق مليئة بمخلفات الطفولة  
 التي انقضت من حياتهن جميعاً ، فألقت چو على الصناديق نظرة فاحصة  
 ثم استقرت عيناها على صندوقها ، وأسندت ذقنها على حافته ، وراحت  
 تحمق مشدوهة في محتوياته المشوشة ، حتى رأَت حزمة من الكراسات  
 القديمة . فأخرجتها ، وأخذت تقلب صفحاتها وتستعيد ذكريات أيام  
 الشتاء الحلوة ، التي عاشتها مع مسز كيرك العطوف . وابتسمت في أول الأمر ،  
 ثم استسلمت لموجة من التفكير انتهت بها إلى الحزن ، وحين عثرت على  
 رسالة صغيرة مكتوبة بخط الأستاذ ، بدأت شفتها ترتجفان ، وسقطت  
 الكتب من حجرها ، وجلست تنظر إلى الكلمات العريضة ، كأنما تقرأ فيها  
 معاني جديدة تمس شغاف قلبها ، كانت الكلمات تقول :

« انتظري يا صديقتي . . قد أتأخر قليلا ، ولكنني سأحضر حتماً ! »

قالت لنفسها : أواه ! ليته يأتي حقاً ! إنه طيب حنون صبور ، ذلك

العزیز فریتز ! لم أكن أقدره حق قدره حين كان معى ، أما الآن ،  
فبوى أن أراه ، بعد أن تخلى الناس عنى ، وتركونى وحيدة حزينة .

وضمت الورقة الصغيرة إلى صدرها بقوة ، كأنما هى وعد ما زال قائماً ،  
ثم أسندت رأسها إلى حقيبة مريجة ، وأخذت تبكى بدموع لا تقل غزارة  
عن الأمطار المنهمرة فوق السطح .

أكان البكاء رثاء لنفسها وما صارت إليه ؛ أم كان للوحدة ، أم لانهيار  
روحها المعنوية ؟ أم تراها بكت ليقظة عاطفة جديدة ظلت حبيسة فى  
صدرها ، تنتظر الفرصة التى حان وقتها ؟ ترى ، من يعرف الحقيقة ؟؟



## الفصل الثالث والأربعون

### مفاجآت

رقدت چو على الأريكة القديمة وحيدة ، تقضى ساعة الغسق على طريقته الخاصة ، دون أن يعكر صفوها أحد ، وقد استغرقت في التفكير وسرحت ببصرها إلى النار . كانت قد اعتادت أن تستند إلى وسادة بث الحمراء وهي تصرغ أفكارها في قصص ممتعة ، أو تفكر حزينة في أختها الراحلة . وكانت في ذلك اليوم بادية الحزن والتعب والإرهاق ، فقد كان عيد ميلادها الخامس والعشرون في اليوم التالي ، فراحت تفكر كيف

تعاقت السنوات بهذه السرعة ، وكيف تقدم العمر بها هكذا ولم تحقق إلا قليلا من آمالها . كانت تعتقد لأول وهلة أنها لم تأت عملا قيماً ، فاما استوضحت أحوالها ، وجدت أنها فعلت كثيراً في الواقع . قالت وهي تنهد :

— ترى ما المصير ؟ ! لقد تقدم العمر بي ، ولست أكثر من عانس أديبة ، زوجها القلم ، وقصصها أسرتها وأطفالها ! وقد يمضي عشرون عاماً حتى أنال بعض الشهرة ، ولكن ما الفائدة ؟ سأكون عجوزاً فلا أتمتع بها ، وحيدة لا أجد من يقاسمني إياها ، قانعة فلا أحتاج إليها ! على أي حال ، لا داعي لأن أصبح لاذعة اللسان أنانية ، فبعض العوانس يعشن حياتهن في راحة ، بعد أن يعتدن عليها ، ولكن . . .

وتهدت چو . فقد كانت الصورة التي تتخيلها قائمة مؤسفة ، لا ترضى فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعتقد أن سن الثلاثين التي تقرب ، هي نهاية كل شيء في الحياة ، والحقيقة غير ذلك ، فباستطاعة الفتاة أن تعيش إلى تلك السن سعيدة إذا كان في ماضيها ما يعمر حاضرها بالذكريات الحلوة . والفتاة في الخامسة والعشرين تتكلم عن نفسها كأنها عانس ، مع أنها لا تنوي أن تكون عانساً بأى حال من الأحوال . فإذا بلغت الثلاثين ، لا تذكر كلمة عانس مطلقاً ، ولكنها تقبل الواقع صامته ، وإذ كانت فتاة عاقلة ، تعزت بأن أمامها عشرين عاماً أخرى من الحياة النافعة ، التي تتعلم خلالها كيف تصير عجوزاً طيبة . . .

لا تضحكن من العوانس يا فتياتى ، فكثيراً ما كانت ملابسهن القائمة تحفى تحتها مآسى عاطفية صنعتها التضحيات البالغة بالشباب والآمال والصحة ، بل بالحب أيضاً .. وهذه التضحيات الكريمة تكسب الوجوه الذابلة أمام الله جمالاً ما بعده جمال . يجب أن نترفق بأخواتنا العانسات ، حتى الحزينات منهن أو سليات اللسان ، فقد فآتهن التمتع بأحلى وقت فى حياتهن . . انظرن لآلهن نظرة رحيمة لا ازدراء فيها ، وعلى كآل فتاة فى زهرة العمر أن تذكر دائماً أنه قد يفوتها موسم القطف ، وأن ورد الحدود لا يدوم ، وأن الشيب يغزو الخصلات الفاحمة فى يوم من الأيام ، وعندئذ تصبح للشفقة والاحترام حلاوة تضارع الحب والتقدير .

وأنتم أيها السادة ، أو بالأصح أيها الفتيان ، احترموا العوانس مهما كن فقيرات أو دميات أو عجيبات ، فإن أشهم الرجال أقدرهم على احترام الشيخوخة ، وحماية الضعف وخدمة الجنس اللطيف ، بغض النظر عن المركز أو الشكل أو اللون . اذكروا العمات الطيبات ، لا لنصائحهن ومحاضراتهن ، بل لما تجشمن من عناء فى تربيتكم وتدريبكم ولم يتلقين شكراً أو تقديراً . . واذكروا الورطات التى أنقذتكم منها ، والهبات المالية التى فقحنتكم بها . ، واذكروا الثقوب التى رتقها بأصابعهن الواهنة ، والخطوات التى مشينها من أجلكم بأقدامهن الواجفة . . اذكروا كل هذه الصنائع وقدموا فروض الاحترام اعترافاً بجميل أولئك العانسات ، وأحيطوهن بمظاهر العناية التى يحبها النساء ما حين . واعلموا أنه لو فرق

الموت بين أحدكم وأمه ، وليس غير الموت من قوة تستطيع ذلك ، فسيجد العوض في الحالة بريسلا مثلاً ، التي ما زالت تحتفظ لابن أختها المحبوب بأدفاً ركن في قلبها العجوز .

لا بد أن چو قد استسلمت للنعاس — كما استسلم له القارى أثناء هذه الموعظة الصغيرة — إذ تخيلت أن لورى واقف أمامها ، ولكنها لم تلبث حتى تبينت أن الأمر حقيقة لا خيال فيها ، فقد كان الفتى يقف أمامها ، وفي عينيه تلك النظرة التي تفيض بالعاطفة المكتومة ، ولم تصدق أنه لورى بلحمه ودمه ، فظلت تحملق فيه في صمت واجف ، حتى انحنى عليها وقبلها . وعندئذ هبت من رقدتها وهي تصيح مسرورة :

— أوه ! أنت ياتيدى ! أهذا تيدى العزيز؟

قال :

— إذن فأنت مسرورة برؤيتى يا عزيزتى چو ؟

قالت :

— مسرورة ؟ إن الكلمات لا تستطيع ان تعبر عن مدى سرورى

يا ولدى المحبوب ! أين أمى ؟

قال :

— عرجنا فى الطريق على بيت ميچ ، فتركت زوجتى هناك مع أفراد

الأسرة بعد أن أخفقت فى إنقاذها من قبضتهم .

صاحت چو ، وقد لمست فى صوته إعزازاً يكشف عن حقيقة شعوره :

— زوجتك ! ؟ ماذا تعنى ؟

قال وقد بدا عليه الحرج :

— يا إلهى ! لقد بحت بسرى عن غير قصد !

فأردفت جو تقول بسرعة :

— إذن فقد تزوجت ؟

فركع على ركبتيه وقد ضم يديه كمن يطلب المغفرة ، ثم قال وفى

عينيه أجلى معانى المرح والنصر :

— نعم ، تزوجت ، ولن أفعلها مرة ثانية !

قالت :

— تزوجت فعلا ؟

قال :

— نعم ، تزوجت إلى أقصى حد !

فجلست جو على كرسيها وقالت وهى تتنفس الصعداء :

— رحمتك يا إلهى ! ترى أى عمل مخيف ترتكب بعد ذلك ؟

قال وهو يبتسم فى رضا وسرور ، وما زال راكعاً على ركبتيه أمامها :

— طريقتك المعهودة فى التهئة ، وما زالت غير مشجعة !

قالت :

— وهل كنت تتوقع غير ذلك بعد أن تسللت إلى كاللصوص

فأفرعتنى ؟ انهض أيها الفتى المضحك ، وحدثنى بقصتك كلها .

قال :

— لن أنطق بكلمة واحدة إلا بشرطين : أن تسمحنى لى بالجلوس فى مكانى القديم ، وألا تقيمنى حاجزاً بينى وبينك !  
 وضحكك چو كما لم تضحك منذ زمن طويل ، وربنت على الأريكة بيدها تدعوه ، ثم قالت فى صوت حنون :  
 — وضعنا الوسادة القديمة فى المخزن بعد أن زال الاحتياج إليها ، فتعال واعترف لى بما حدث ياتيدى .

قال وهو يجلس على الأريكة ، وقد تملكه شعور بالرضا :  
 — ما أحلى أن أسمعك تقولين « يا تيدى » ، فما من أحد ينادينى بهذا الاسم إلا أنت .  
 سألته :

— وبماذا تدعوك أمى ؟

قال :

— تقول : « مولاي » !

قالت وقد امتلأت عينها إعجاباً بفتاها الذى ازداد ظرفاً ووسامة عما كان :

— هذه طريقته ! ولكنك أهل لهذا النداء .

لم تكن هناك وسادة تمجيز بينهما ، ولكن كان هناك حاجز غير منظور ، أقامة الزمن والبعد وتغير القلوب ، وأحس الاثنان به ، فأمعن

كلاهما النظر في وجه صاحبه ، كأنما هذا الحاجز قد ألقى عليهما ظلاً خفيفاً لم يلبث أن انقشع . قال لورى وهو يصطنع الوقار :

— ألا أبدو كرجل متزوج ورب أسرة ؟

قالت :

— أبدأ ! ولن تبدو كذلك في يوم من الأيام . ولقد كبرت قليلاً وازددت وزناً ، ولكنك ما زلت كما كنت ، ولا أمل في إصلاحك .

قال :

— لا يا جو . يجب أن تعاملينى الآن باحترام أكثر من ذى قبل .

قالت ، وقد أشرق وجهها بالابتسام :

— وكيف أحترمك ، ومجرد التفكير في أنك تزوجت يضحكنى ويذهب بوقارى ؟

وانخرطت في الضحك ، وسرت العدوى إلى لورى ، فراح يضحك معها ، ثم هدها بعد لحظة وجلسا يتبادلان الحديث بطريقتهما القديمة المحبوبة ، قالت :

— لا فائدة من أن تخرج لإحضار آمى في هذا الجو البارد ، وسيحضرون جميعهم فوراً .

قال :

— لم أستطع الصبر ، وأردت أن أكون أول من ينبئك بالمفاجأة الكبرى . تماماً كما كنت ألق أول قطفة ، ونحن نتشاحن على القشدة !

قالت :

— أشهد أنك وفقت ، ولكنك بدأت القصة من نهايتها فأفسدتها .  
والآن ، عد إلى أولها ، وأخبرني كيف حدث ذلك ، فأنا مشوقة لسماع  
أخبارك من أولها .

قال وقد التمت عيناه :

— حسناً ، لقد فعلتها لأدخل السرور على أمي !

فصاحت جو :

— هذه أول كذبة مفضوحة ! قل إنك فعلتها لتدخل السرور على  
قلبك . عليك بالصدق إذا استطعت ياسيدي !

فقال لوري ، وقد سره أن يرى بريقاً من صورة طبعها القديم :

— الأمر سواء في الحاليتين . كنا قد قررنا العودة إلى الوطن في صحبة  
آل كارول منذ شهر أو أكثر ، ولكن آل كارول قرروا ، في آخر لحظة  
أن يقضوا شتاء آخر في باريس ، ولما كان جدي يريد العودة إلى الوطن ،  
وهو كما تعلمين لم يسافر إلى الخارج إلا من أجل ، فلم يكن في الإمكان  
أن أبقى مع أمي ونتركة يعود وحيداً ، ولم يكن في الإمكان كذلك أن أترك  
أمي وحدها وأعود مع جدي . ولما كانت مسز كارول شديدة التمسك  
بالتقاليد الإنجليزية المحافظة ، فقد رفضت أن تسمح لأمي بالعودة معي  
وحدي دون مرافقة ترعاها . وتعددت المشكلة بهذا الشكل ، فرأيت أن  
نتزوج ثم نفعل ما نريد .

فقلت چو :

— ونفذت رأيك بالطبع ، لأنك تفعل عادة ما يعجبك !

قال :

— ليس دائماً !!

وأحست چو في نبرات صوته بما جعلها تبادر بسؤاله قائلة :

— وكيف أمكنك أن تقنع العمه بالموافقة ؟

قال :

— كانت مهمة عسيرة ، ولكننا تذرعنا بأقوى الحجج ، فهزمتها .

حلبة المناقشة ، وذكرناها بأن الوقت لا يتسع لاستئذانكم كتابة ، وليس من داع إلى ذلك ، ما دمتم وافقتم على الخطبة ورحبتم بها ، وهكذا وقفت الظروف إلى جانبنا ، وأصبحت المسألة لا تحتاج إلا إلى خطوة حازمة كما قالت زوجتي .

فقاطعته چو ، وقد رأت في عينيه لهيب العاطفة ، وأسعدتها أن ترى

ذلك اللهب يحتل مكان الحزن الذي غلبه حين تقابلا آخر مرة :

— ألا تشعر بالفخر وأنت تردد كلمة « زوجتي » ؟

قال :

— قليلاً وأحياناً ، إنها امرأة صغيرة فاتنة لا يملك المرء إلا أن يفخر بها .

وعلى كل حال ، استطعنا أن ننال موافقة العمه والعم كارول ، فتوليا الأمر كوالديها . وكان الترتيب الذي اقترحته سبباً في تيسير الأمور كلها ، فقد

كنت وآمى غارقين فى الحب تماماً ، ولو افترقنا لصرنا عديمى القيمة ،  
ولذلك نفذنا الاقتراح كما ترين .

قالت چو ، وقد تملكها همى الفضول النسوى ، فأرادت أن تعرف  
كل صغيرة وكبيرة :

— ومتى كان ذلك ، وأين كان ، وكيف كان ؟  
قال :

— تزوجنا منذ ستة أسابيع فى القنصلية الأمريكية بمدينة باريس ،  
ولم ننس فى عمرة سعادتنا عزيزتنا بث ، لذلك أقمنا شعائر الزواج  
بلا احتفال .

وتأثرت چو لكلامه فضغطت بيدها على يده ، وتشاغل لورى بتسوية  
الوسادة الحمراء الصغيرة ، التى يذكرها جيداً ولا ينساها . ونخيم الصمت  
عليهما لحظة ، ثم عادت چو تسأله فى لهجة أشد هدوءاً :

— ولم لم تخبرنا بالأمر بعد ذلك ؟

قال :

— أردنا أن نفاجئكم به ، وكنا نظن أننا سنعود فوراً للوطن ، ولكن  
الجد العزيز أجّل السفر حين عرف بالخبر ، وسمح لنا بشهر عسل نقضيه  
أيها نريد . وكانت آمى قد وصفت الحياة فى فالروزا بأنها شهر عسل  
مستديم ، فذهبنا إليها وسعدنا كما لم يسعد أحد من قبل . . كان غراماً بين  
الورود !

واغتنبت چو إذ لمست في حديثه دلائل نسيانه التام لما كان بينه وبينها ، وأكد لها أسلوبه الصريح الواضح أنه سامحها ونسى حبها . وهمت بسحب يدها من يده ، ولكنه تشبث بها ، وقد أدرك الشعور الذي أوحى ليلها بهذه الحركة ، ثم قال في رزانة لم تعرفها فيه من قبل :

— أريد أن أقول لك شيئاً واحداً يا عزيزتي چو ، ثم نترك الأمر كله جانباً إلى الأبد . . . عندما ذكرت لك في خطابي أن آمي تعطف عليّ ، أكدت إلى جانب ذلك حبي لك ، وكنت صادقاً كل الصدق ؛ ولكن حبي تغير إلى الأحسن ، بعد أن تبادلت وآمي مكانيكما في قلبي . وكان لا بد أن ينتهي الأمر إلى ذلك ، لو أنني أخذت بنصيحتك وانتظرت للتأكد من عاطفتي ، ولكنني لم أستطع على الموقف صبراً ، فأصبت بوجيعة في قلبي . . . كنت صبيحاً عنيفاً عنيداً ، فاحتاج الأمر إلى درس قاس لأتبين خطئي . وأقسم لك أنني تحيرت في وقت ما ، اختلطت على عواطفى نحوكما ، حتى لم أميز أيكما أحب إلى من الأخرى . . . حاولت أن أقسم حبي بينكما مناصفة فلم أستطع ، وحين تقابلت معها في سويسرا ، تكشفت عواطفى فوراً ، واحتلت كل منكما مكانها الصحيح في قلبي ، وتأكد لي أن الحب القديم قد ذهب قبل أن يحل محله حب جديد ، كما أدركت أنى أستطيع أن أقسم قلبي بين أختي چو وزوجتي آمي وأحبهما معاً حباً خالصاً . فهل تصدقيني الآن ، وهل تعديني أن نعود سيرتنا الأولى ، كما كنا في الأيام السعيدة الماضية ؟

قالت :

— نعم ، أصدقك من كل قلبي ، ولكن ألا ترى ياتيدى أننا لن نستطيع أن نعود صبيهاً وفتاة ، ولا يصح أن نتوقع ذلك ، بعد أن ذهبت الأيام السعيدة وانتهى أمرها ؟ إننا الآن رجل وامرأة ، علينا واجباتنا نؤديها ويجب أن نكف عن المحجون ، فوقت اللهو قد انقضى . لست أشك في أنك توافقني على ذلك ، فلإني أراك قد تغيرت ، وأظنك تراني قد تغيرت كذلك . . أؤكد لك أنني سأفتقد لورى الصبي ، ولكني سأحب لورى الرجل وأحترمه من صميم قلبي ، لأنه سيحقق آمالي فيه . دعك من صداقة المزاح واللعب ، والأفضل أن نكون أختاً وأختاً يتبادلان المحبة والمعونة طيلة حياتهما . . أليس كذلك يا لورى ؟

وفى صمت تام أخذ لورى اليد التي قدمتها له ، وأسند وجهه إليها لحظة ، وهو يشعر بأن صداقة جميلة قوية تنبعث من بين أنقاض هوى الشباب الماضي . . وانشرح قلب جو ، فبادرت تقول بسرعة ، كارهة أن ينسبه الحزن جمال عودته إلى الوطن :

— لا أكاد أصدق أن طفلي قد تزوجا ، وأنهما في طريقيهما للعناية بشئون بيتهما ، فما زلت أتخيل الماضي كأنه أمس قريب ، حين كنت أثبت أزرار آبي في مروتها ، وأشد شعرك عندما تغيظني ! رحمتك يا إلهي !  
كم يسرع الوقت في مضيه ! ؟

قال لورى ، وهو ينظر إليها مسروراً بلهجتها الأمية :

— كفى عن لهجة الجدلّات هذه ، فأحد الطفلين اللذين تذكّرنيهما يكبرك سنّاً . إني لأفخر أحياناً بأنني كبرت ، وأصبحت سيّداً ناضجاً ، وعندما تأتي أمي سترين بعينيك كم نمت الطفلة قبل الأوان ! !

قالت چو :

— قد تكون أكبر مني سنّاً ، ولكنني أكبر منك حسّاً وشعوراً ياتيدي ، شأنى في ذلك شأن النساء ، أشعر أنني بلغت الأربعين بعد ما اخترتني من السنة الماضية .

قال لورى وهو يشد شعره أسفاً :

— مسكينة أنت يا چو ! لقد تركناك تحمّلين العبء وحدك ، ورحنا نجري وراء مسراتنا . نعم ، أنت أكبر مني ، والدليل على ذلك هذه التجاعيد والخطوط . . عيناك حزينتان إلا عندما تبسّمين ، ودموعك ما زلت ألمسها على الوسادة . . لقد تحمّلت وحدك أعباء جسيمة ، فيالى من وحش أنانى !

وقلبت چو الوسادة التي أفشت سرها ، وقالت في صوت حرصت أن تملأه بالبشاشة والمهجة :

— لا ، لم أكن وحدى ، فقد وقف أبى وأمى إلى جانبي يساعداًني ، وراح طفلاً ميج يروحان عنى ويسليانى ، وكان مجرد التفكير في سعادتك مع أمي تخفيفاً عظيماً للألم . إن الشعور بالوحدة ينتابني أحياناً ، ولكنه شعور مفيد لى ، و . .

وقاطعها لورى وهو يضع ذراعه حولها ، كأنه يحميها من كل شر :  
 — لن تكونى وحيدة بعد الآن . أنا وآمى لا نستطيع السير بدونك ،  
 فيجب أن تأتى إلينا ، لتعلمى طفليك كيف يدبران شؤون بيتهما ، على أن  
 نتقاسم كل شىء على عادتنا القديمة . . دعينا ندلك ونعنى بك ، فنعيش  
 معك أسعد الناس .

قالت :

— إذا لم يعكر وجودى صفوكما ، فليس أحب إلى من صحبتكما ،  
 ولقد بدأت أشعر بالشباب من جديد .

ومالت برأسها على كتفه ، كما كانت تفعل منذ سنوات ، عندما  
 كان مرض بث يشقيها ، فيهيب بها لورى أن تعتمد عليه . ونظر لورى  
 إليها وهو يسأل نفسه : أما زالت تذكر تلك الأوقات ؟ ولكن چو كانت  
 تبسم راضية ، كأنما متاعها قد اختفت بقدمه . وضحك لورى وقال :  
 — ما زلت على عهدك يا چو ، تبكين لحظة ، ثم تضحكين بعدها ،  
 المكر واضح فى عينيك الآن ، فما الأمر يا جدتاه ؟

قالت :

— إنى لأتساءل كيف تسير الأحوال بينك وبين آمى ؟

قال :

— كأننا ملائكة !

قالت :

— البداية هكذا دائماً ، ولكن أيكما ياترى الحاكم الأمر ؟

قال :

— لا يضيرنى أن أعترف بأنها الحاكمة ، أو هذا على الأقل ما أشعرها به لأسعدها ، ولكن الأوضاع ستتغير بمضى الوقت ، فالزواج — كما يقولون — يقسم الحقوق ويضعف الواجبات .

قالت :

— ستبقى الأوضاع على ما بدأت به ، وستحكملك أمى طول حياتك .

قال :

— يسرنى أن تحكمنى دون أن أشعر ، فهى قديرة على سياسة الرجال ، وبوسعها أن تلف الواحد منهم حول إصبعها كخيوط من الحرير ، وتجمعه يعتقد فى ذات الوقت أنها تكرمه بذلك وتبعله .

فصاحت جو وهى ترفع يديها :

— من كان يظن أن يطول بي العمر حتى أرى رجلاً سعيداً بسيطرة

زوجته عليه ؟ !

وكان منظرًا ممتعاً أن فرد لورى كتفيه فى زهو وخيلاء كأنه يقول :

« يا أرض ما عليك إلا أنا » !

قال :

— ليس أبغض إلى نفسى من الطغيان ، ولا أظن تربية أمى تسمح بذلك ،

وأنا وزوجتى نتبادل الاحترام بما لا يدع سبيلاً إلى العراك أو الاستبداد .

وأعجبت چو بما رأت من اعتداده بنفسه ، واختلط إعجابها على الصبي الذى يتحول بسرعة إلى رجل ، قالت :

— إنى واثقة بذلك ، ويقيني أن أمى لن تتعارك معك مثلما كنا نفعل أنا وأنت ، فهى الشمس المشرقة ، وأنا الرياح العاصفة ، والقصص الخرافية تقول إن الشمس المشرقة أقدر على حكم الإنسان .

فضحك لورى وقال :

— قد تشرق الشمس ، وقد تحرق أيضاً ! أوكد لك أن المحاضرة التى ألقها على فى مدينة نيس ، كانت أقسى من أى تعنيف سمعته منك . .

إن لها قدرة عجيبة على الاستثارة ، وسأقص عليك يوماً ماقالته إذ ذاك ، ولكنها لن تكرر أقوالها مرة أخرى ، فبعد أن أعلنت احتقارها لشأنى ، عادت فأحبتنى ثم تزوجتنى .

فقال چو :

— يا للوضاعة ! إذا أساءت إليك مرة أخرى فتعال إلى لأدافع عنك!

قال :

— كنا لو كنت محتاجاً إلى هذا الدفاع !

وهب واقفاً ، وقد انقلب من الصرامة إلى المرح ، حين سمع صوت أمى تنادى :

— أين همى ؟ أين عزيزتى چو ؟

ودخل صف « طابور » الأسرة كله ، وابتدأ العناق والتقبيل

من جديد ، وبعد عدة محاولات يائسة ، استطاع الرّحّل الثلاثة أن يجلسوا أمام النظرات الفاحصة : كان مسرّ لورنس قوياً معافى كشأنه دائماً ، وأفادته رحلته إلى الخارج كما أفادت الآخرين تماماً ، فزال عنه تصلبه ، وتهذبت طريقتة القديمة في الحفاوة والترحيب ، وازدادت لهجته رقة وحناناً . وكان جميلاً أن يشرق وجه مسرّ لورنس كلما نظر إلى « طفليه » ، كما كان يسمى العروسين الشابين ، وكان أجمل من ذلك أن نرى أمي تأسر قلبه بحبها البنوي الخالص . وكان أجمل من كل هذا وذاك أن ترقب لوري وهو يدور حول الأختين ، كأنه لا يمل النظر إلى جمالهما .

وحين وقع نظر ميج على أمي ، أدركت لفورها أن الثياب التي ترتديها خالية من الطابع الباريسي الظاهر في ثياب أختها ، وأن روعة مسرّ لورنس الشابة ستكسف مسرّ موفات نهائياً ، وأن العروس الجديدة غاية في الأناقة والرشاقة . وقالت جو لنفسها وهي ترقب الزوجين : « ما أجملهما معاً ! كنت على حق في رفضه ، فقد وجد لوري من تلامّته أنيقة وتهذيباً ، وبوسعها أن تحسن إدارة بيته أضعاف جو العجوز الحرقاء ، وتكون مدعاة لفخره لا مجلبة لشقائه . » وابتسمت مسرّ مارش لزوجها ، وأوماً كل منهما للآخر برأسه ، وقد علت وجهيهما علامّ السعادة والبشر ، إذ أدركا أن ابنتهما الصغرى قد فازت كل الفوز ، لا من الناحية المادية ، بل من الناحية المعنوية ، فكسبت بمهارتها ثروة لا تقدر من الحب والثقة والسعادة .

وكان وجه أمي مشرقاً بالبشر الذي ينبعث عن قلب عامر بالسلام ،

وكان صوتها ناعماً عذباً هادئاً ، وزالت مسحة الحمود عنها أمام روح  
الوقار التي زادتها حسناً وجمالاً . ولم يكن في مظهرها أثر للتصنع ، وانسابت  
تصرفاتها في حلاوة طبيعية ، أكثر جاذبية من جمالها الجديد ورشاقها القديمة ،  
وكان من الواضح أنها أصبحت السيدة الكاملة ، التي كانت تحلم بها طول عمرها .  
قالت أمها في رقة :

— لقد غير الحب ابتنا كثيراً .

وهمس زوجها في أذنها يقول ، وهو يلتقي نظرة على وجهها الذي  
أنهكته الأيام ، وشعرها الذي بيضته الأحداث :

— والفضل لك ، فقد كنت لها مثلاً أعلى طول حياتها . .

ووجدت ديزى أنه من المستحيل عليها أن ترفع نظرها عن عمها  
الصغيرة ، فتعلقت بها ، وتبعها أينما سارت مثل جرو صغير ؛ أما ديمي ،  
فقد شغل في بداية الأمر بدراسة هؤلاء الأقارب الجدد ، ثم أقنع نفسه  
بقبول رشوة مغرية ، أحضرها له عمته من برن . وكانت الرشوة عبارة عن  
مجموعة من الدببة الخشبية ، لم يستطع ديمي بعدها إلا التسليم بلا قيد ولا شرط .  
قال العم لورى العملاق ، وهو يهز الطفل يميناً وشمالاً ، بطريقة  
أفسدت وقاره :

— اسمع أيها الرجل الصغير ، حين تشرفت بمعرفتك أول مرة ،  
لكمتنى في وجهي ، وأنا الآن أطالبك ، كسيد مهذب ، بالترضية اللازمة .  
وقالت حنة :

— فليباركهما الله ! إنها تجلس وقد كساها الحرير من رأسها إلى قدمها ، أليس جميلاً أن نرى آى تخلب القلوب بحسنها ، ويناديها الناس بمسز لورنس ؟ !

رحمة يا إلهى ! كيف كان يتحدث هؤلاء الناس ؟ يبدأ الواحد ، ويتلوه الثانى ، ثم ينفجرون فى الكلام معاً ، ليسردوا تاريخ ثلاث سنوات فى نصف ساعة ! !

ولو طال الحديث بهم على هذه الصورة ، لتعبوا وبحت أصواتهم ، ولكن الشاى كان قد أعد فى هذه اللحظة ، فهبأت لهم فرصة الهدوء . وانتقل الركب السعيد إلى غرفة المائدة ، وقد صحب مسز مارش ابنته العزيزة مسز لورنس ، ومالت مسز مارش على ذراع « ابنا » لورى ، وسار السيد العجوز مع چو وهو يهمس فى أذنها قائلاً :

— ستكونين من الآن ابنتى .

وألقت چو نظرة سريعة على الركن الخالى جانب المدفأة وهست بشفتين مرتجفتين :

— سأحاول أن أملاً مكانها يا سيدى .

وسار التوأمان خلف الصفوف ، يمرحان فى غفلة من الجمع . وانتهزا فرصة انشغال أفراد الأسرة بتحية الضيفين ، فأعملا أسنانهما فى الفطائر دون حرج ، ثم حشوا جيوبهما بما تبقى من فطائر الزنجبيل والبسكويت الساخن ، التى لم تلبث أن تفتتت وعلقت حلواها بملابسهما . وأثقل عليهما

تأنيب الضمير ، لما ارتكبا من خطايا ، وخافا أن تكشف عيون « بابا »  
حجب القماش الرقيق الذى يخفى غنائمهما ، فلاذا بحمى جدهما ،  
مطمئنين إلى أنه يجلس بلا نظارتيه . .

وعادت آى ، التى كانت تتناقلها الأيدى كالمربطات ، إلى حجرة  
الاستقبال مستندة إلى ذراع الجدلورنس ، وسار الباقون منى ، منى كما  
دخلوا حجرة المائدة ، وبذلك الترتيب بقيت چو بلا رفيق ، ولكنها لم  
تشعر بوحدتها ، لأنها كانت فى شغل مع حنة تحدثها وتجيب عن أسئلتها ،  
قالت حنة :

— ترى هل تركب آى العربة المقفلة ؟ وهل تستعمل الصحون الفضية  
المخزونة فى القصر ؟  
أجابت چو راضية :

— لن يدهشنى أن تركب عربة يجرها ستة جياذ بيضاء ، ولا أن  
تستعمل صحوناً ذهبية ، ولا أن تلبس الدنتلا أوتتحلى بالماس ، فلا يمكن  
أن يبخل عليها تيدى بشىء .  
قالت حنة :

— جميل ! وعلى فكرة ، ماذا ستأكلون فى الإفطار ، لحمأ أم سمكأ ؟  
ولم تر چو أن الوقت مناسب للمناقشة فى مثل هذه الأمور ، فقالت  
وهى تقفل الباب :

— الأمر يستوى عندى .

ووقفت چو تتأمل الجماعة وهم يخفون في أعلى السلم ، وما إن غادرت  
 قدما ديمي آخر درجة أمامها ، حتى غلبها شعور مفاجئ بالوحدة . وكان  
 شعوراً طاعياً ، جعلها تتلفت حولها بعيون غائمة ، وكأنما تبحث عن شيء  
 تستند إليه ، فقد تركها الجميع حتى تيدي . ولو علمت ما يعده لها الغيب  
 في عيد الميلاد ، ما قالت تحدث نفسها :

— سأذرف دموعي الحارة حين أذهب إلى فراشي ، أما الآن فلا  
 يليق بي أن أكتب .

ووضعت يديها على عينيها ، فهي ، كعادتها الصبيانية ، لا تعرف  
 أبداً مكان منديلها . وفيها هي تحاول أن تبتسم ، إذ دق الباب الخارجي .



وأسرعت تفتح الباب في حفاوة ، ولكنها ما كادت تفتحه ، حتى روعت كأنما رأت شبحاً يفاجئها بمقدمه . كان بالباب سيد فارغ الطول يبتسم لها في الظلام كشمس تشرق في منتصف الليل ! وصاحت جو وهي تتشبث به ، كأنها تخشى أن يعود الظلام فيبتلعه ، قبل أن تتمكن من إدخاله إلى البيت :

— أوه ! أهذا أنت يا مستر باير؟ إني مسرورة جداً برؤيتك !  
قال الأستاذ ، وقد توقف قليلاً حين سمع ضجيج الأصوات ، ووقع أقدام الراقصين :

— وأنا مسرور جداً برؤية مس مارش . ولكن ، لا ، إن لديكم حفلة !  
قالت :

— لا ، إنها الأسرة فقط ، فقد عادت أختي وبعض الأصدقاء من الخارج ، ونحن جميعاً سعداء ، فتعال وانضم إلينا كواحد منا .  
وكان مستر باير رجلاً اجتماعياً يعرف أصول المجاملة ، ويعرف أن اللياقة تقتضيه الانسحاب إلى يوم آخر ، ولكن ماذا يفعل بعد أن أغلقت جو الباب وأخذت منه قبعته ؟ وأغلب الظن أنه بقي بتأثير السرور الذي بدا واضحاً على وجهه جو ، وتحيتها التي فاقت في حرارتها ما كان يتوقع .  
قال :

— يسرني أن أراهم جميعاً ، إذا لم يكن في وجودي معكم أي إزعاج .  
وعندما سقط النور على وجهها وهي تعلق معطفه ، لم تفت عينيه

التغيرات التي أصابتها ، قال :

— أكنت مريضة يا صديقتي ؟

قالت :

— بل كنت حزينة متعبة ، فقد مرت بنا أحداث كثيرة منذ رأيتك

آخر مرة .

قال :

— أعرف بما حدث ، وحزنت من أجلك حين سمعت بالأنباء .

وعاد يصفافحها من جديد ، بوجه ينم عن عطفه عليها ، وبالغ مشاركته الوجدانية في أحزانها ، وأحست چو ، وهو يصفافحها ، أن شعوره أفضل بلسم لآلامها ، ولا شيء في دنياها يعدل نظرتة الحانية التي أدخلت السكينة على نفسها .

واصطحبت چو صديقها مستر باير إلى الجماعة ، وقالت في زهو ،

وكانها تريد أن تقدم صديقها لأسرتها بين دق الطبول :

— أبي ، أمي ، هذا صديقي الأستاذ باير .

وإذا كان القادم الغريب قد ساورته الوسوس حول استقباله ، فقد

زالت هواجسه في اللحظة التي دخل فيها على الأسرة . إذ حياه كل فرد

برقة زائدة من أجل چو ، وإكراماً لشخصه كذلك . ولم يمض على وجوده

وقت طويل حتى أحبوه جميعهم ، ولا فضل لهم ، فقد كان مستر باير

يحمل معه ذلك الطلسم الذي تتمتع له القلوب مطمئنة . . واستطاع

الاستاذ أن يدق القلوب التي استقبلته بالحبة ، وازدادت مكانته في تقديرهم لفقره ، فالفقر يغني النفوس التي تعيش فيه بالود والعطف والحبة .

وجلس مستر باير وسط الأسرة يتطلع حوله ، وعلى وجهه سمات السائح الرحالة الذي يدق باباً غريباً ، فاذا انفتح وجد نفسه وسط أهله وأصحابه . وانجذب الطفلان نحوه كما ينجذب النحل إلى العسل ، وجلس كل منهما على إحدى ركبتيه ، وبدءا يعبثان في جيوبه ويشدان لحيته ، ويفحصان ساعته الضخمة في جراحة الطفولة . وتبادلت السيدات نظرات الرضا ، وفتح مستر مارش خزانة معارفه المختارة ، وقد أحس أنه وقع على روح تألفت مع روحه ، وقبع چون صامتاً يستمع إلى ما يدور من أحاديث ويستمتع بها ، كما وجد مستر لورنس العجوز أنه من المستحيل أن يترك هذا الحديث الشائق ليذهب إلى فراشه .

ولو لم تكن چو مشغولة بأشياء أخرى ، لوجدت في مسلك لوري ما يسليها ، فقد أحس بألم خفيف يحز في صدره ؛ كان ألم الشك لا الغيرة ، فراح يرقب الأستاذ من بعيد في تحفظ واحتراس . ولم يدم الشك طويلاً ، فقد أثار الرجل اهتمامه بالرغم عنه ، ووجد نفسه مسوقاً إلى الاشتراك مع من يستمتعون بحديث مستر باير الساحر ، ولم يتوجه الأستاذ إليه بالكلام ولكنه كان يلقي إليه نظرة ثم يعود إلى حديثه ، وقد اكتسى وجهه بالأسف على ضياع شبابه ، ثم ينقل بصره من لوري إلى چو في انتباه زائد ، لعلها ترد على نظراته بما يريح فؤاده الحائر . وكان حرياً بچو أن تجيب على

نظراته هذه بما يريح قلبه ، ولكنها كانت مشغولة عنه بالسيطرة على نفسها هي ، خشية أن يستشف الجالسون حقيقة شعورها ، فحنت رأسها على جوب صغير ترفوه ، وركزت اهتمامها فيه ، حتى لا تم عيونها عما يعتلج في قلبها . وبين آن وآخر تختلس إليه نظرة تنعش فؤادها ، مثلما ينعش الماء التائه في الصحارى والقفار . وكشفت لها نظراتها المختلصة عن بشائر مطمئنة ، فقد كان مسرر باير غاية في اليقظة والانتباه ، بعد أن زابله شروده القديم ، وبدأ سعيداً بوجوده معها ، مهتماً بما يدور حوله ، أما وجهه فكان وسيماً بحرارة الشباب المتفجر . وانساب الرجل في حديثه ، فانتقل إلى وصف العوائد الجنائزية عند القدماء ، وهو موضوع لا يمكن أن يوصف بالمبهج ، وانتفخت أوداج جو زهواً وخيلاء لما غلب لورى على أمره في نقاش بينه وبين الأستاذ باير ، وقالت تحدث نفسها وهي تنظر إلى وجه أبيها الذي استغرق في الحديث : « ترى ما ذا يقول أبى في إبقاء هذا الرجل معه دائماً ؟ »

وكان باير يرتدى حلة سوداء جديدة ، بدا فيها سيداً فاضلاً بمعنى الكلمة ، وكان شعره ، الأشعث عادة ، مقصوفاً ممشطاً مرتباً ، ولكنه لم يبق على هذا الحال طويلاً ، إذ راح كعادته يشد خصلاته إذا حمى وطيس المناقشة ، فلم تمض لحظة إلا ووقفت خصلة من الخصلات في وسط رأسه ، وكانت جو تفضل شكله بنخصلته الناشزة ، لأنها تضيف على جبهته مزيداً من الوقار . ولم تكتف المسكينة بالإعجاب فقط ، وإنما راحت

تعظم من شأنه ، وترقبه في هدوء فلا يفوتها شيء ، حتى أزرار قميصه الذهبية ، وقالت لنفسها وهي ترمقه في تقدير :

— يا للصديق العزيز! لقد بالغ في تأنقه كأنه ذاهب لعقد خطبته !  
وبعث هذا الخاطر في رأسها فكرة مفاجئة تخضب لها وجهها بحمرة الحجل ، وارتبكت يدها حتى سقطت بكرة الخيط منها . فأنخت تلتقطها راجية أن تخفى بذلك مشاعرها عن الجالسين . ولكن المناورة لم تنجح كما كانت تأمل ، فما إن رأى الأستاذ البكرة تسقط ، وكان منهمكاً في وصف كيفية إشعال النيران في بعض الشعائر الجنائزية ، حتى ترك النار والحنازة ، وقفز وراء كرة الخيط الزرقاء ، فاصطدمت رأسها برأسه صدمة شديدة ، واستقام كلاهما بعدها مغرماً في الضحك ، ولكنه خجل لما بدر منه ، فعاد إلى جلسته نادماً ، ولم ينقد البكرة . .

ومضى الوقت سريعاً ولا من يشعر بمضيه ، فقد هدأت الجلسة بعد أن انصرفت حنة بالطفلين إلى فراشهما ، واستأذن مسر لورنس في العودة إلى بيته ، واجتمع الباقون حول النار يتسامرون ويتحدثون ، حتى قامت ميج تشد العودة إلى بيتها خشية أن تكون ديزى قد سقطت من سريرها ، أو أن يكون ديمي قد أحرق قميص نومه وهو يعالج تركيب عيدان الثقاب .  
قالت جو وقد أغراها المرح بالغناء :

— فلنشد أغنيتنا المعهودة بطريقتنا القديمة ، احتفالاً باجتماعنا كاملين

مرة ثانية .

ولم يكن عددهم كاملاً في الواقع ، ولكن أحداً لم ير في كلامها تجنياً على الحقيقة ، لأن بث وإن غابت بجسدها ، فروحها حاضرة تنشر السلام والمحبة ، والموت لا يستطيع أن يفرق أسرة وثق الحب العميق عراها : كان الكرسي الصغير ما زال في مكانه القديم ، وسللة التطريز تقبع حيث تركتها يد صاحبها على الرف المعتاد حين ثقلت الإبرة على أصابعها ، والمعزف الذي قل أن يمسه أحد ، لم يتحرك من موضعه ، وفوقه صورة بث في أيامها الأولى ، تطل عليهم بوجهها الباسم الهادي ، وكأنها تدعوهم قائلة : « كونوا سعداء فهأنذا دائماً معكم » .

وقال لورى يدعو زوجته فخوراً بتلميذته النابهة :

— اعزفي لهم يا أمي ، وأريهم كيف تقدمت في الموسيقى .

فهمست أمي ، وعيونها مغرورقة بالدموع :

— لا ، ليس الليلة يا عزيزي . .

ولكنها في تلك الليلة بالذات كشفت عن شيء أكثر من النبوغ والمهارة ، فقد غنت أغنيات بث بصوت عذب رقيق ، لا يستطيع أن يلقنه أمهر الأساتذة ، ومست برخامة صوتها قلوب سامعيها ، واستحوذت على مشاعرهم بقوة تفوق أى إلهام . وكانت الغرفة هادئة يسودها الصمت حين وصلت إلى البيت الأخير من الأغنية ، فخفضت صوتها وهي تقول في حزن بالغ :

« ليس في الأرض حزن لا تستطيع السماء أن تشفيه » .

ومالت أمى برأسها تسنده إلى صدر زوجها الواقف خلفها ، وقد أحست بأن سعادة الاستقبال والعودة تنقصها قبلة من بث .

وبادرت جو تقول بسرعة ، لتتخذ الموقف قبلي أن يتحول الصمت إلى حزن مؤلم :

— لنختم الليلة بأغنية « مينيون » ، فستر باير يجيد غناءها .  
وتنحج مستر باير واستعد للغناء ، بعد أن تقدم إلى الركن الذي وقفت فيه جو ، ثم قال لها :

— شاركييني في الغناء ، فنحن ننسجم معاً انسجاماً رائعاً .  
وكان في قوله هذا خيال كبير ، فجو لا تعرف من الموسيقى أكثر مما تعرفه جراحة هاتمة ، ولم تكن لتتردد في تلبية رجاء أستاذها ، ولو طلب منها أن تغني أوبرا كاملة .

وبدأت تردد معه الأغنية في سرور ، بغض النظر عما أصاب النغم .  
لم يكن للنشاز أهمية ، فقد كان مستر باير يغني بحماسة الألمانى القح في إتقان زائد ، مما جعلها تقنع من الغناء بالهمهمة ، راضية بالإنصات إلى صوته الشجي ، الذى بدا كأنه ينشد لها وحدها ويقول :

« أتعرفين هذه البلاد ، حيث تنمو أشجار الليمون وتزدهر ! »  
وكان هذا البيت أحب ما فى الأغنية إلى نفس الأستاذ ، فهذه البلاد تغنى عنده ألمانيا ، ولكنه تحول باهتمامه وحماسه إلى الأبيات التى تقول :  
« هناك . . نعم هناك سنذهب معاً »

أنا وأنت يا معبودتى »

واغتبط قلبها وهي تصغى لدعوته العاطفية ، وكان بودها لو استطاعت أن تقول له إنها تعرف هذا المكان ، وليس أحب إليها من أن تذهب إليه معه .

ولاقت الأغنية من الحاضرين إعجاباً شاملاً ، ولكن لم تمض لحظات بعد ذلك حتى حدث ما جعل الأستاذ ينسى آداب السلوك كلية ويتصرف تصرفاً أرعن . . كانت چو قد قدمت له آمی بقولها « هذه أختى » ، وطوال السهرة لم ينادها أحد باسمها الجديد ، فلما قامت تَضَع قبعتها على رأسها ، نهض لورى إلى مستر باير يودعه ويقول :

— لقد سررت أنا وزوجتى بلقائك يا سيدى ، وأرجوك أن تذكر أننا نرحب دائماً بلقائك .

وإذ ذاك نسى الأستاذ نفسه وراح يحمق فى آمی وهي تضع قبعتها ، وطغت عليه الغبطة فراح يبالغ فى شكر لورى على دعوته ، حتى ظن الفتى أن الأستاذ أظرف شخصية قابلها فى حياته . ثم قال الأستاذ يحدث مسز مارش ، وإن كان ينظر إلى چو :

— وأنا أيضاً أستأذن فى الذهاب يا سيدتى ، ولكن يسرنى أن أعود لزيارتكم ثانية ، إذا سمحتم ، فبعض الأعمال الصغيرة تستلزم بقائى أياماً فى هذه المدينة .

ولم تكن مسزما رش لتغمض عينها عن مصالح بناتها — كما قالت

مسز موفات في يوم من الأيام - فأجابته على قوله بمنتهى الترحيب .  
قال مسز مارش بعد انصراف الضيوف ، وكان لا يزال في موقفه  
أمام المدفأة :

- أعتقد أنه رجل حكيم عاقل .

وقالت مسز مارش وهي تملأ الساعة :

- لا شك أنه رجل طيب .

واكتفت جو بأن تقول وهي تنسحب إلى غرفة نومها :

- أعتقد أنكم ستحبونه .

وراحت تسائل نفسها في عجب عما جاء بمسز باير إلى المدينة ،  
وأخيراً ، خيل إليها أنه جاء لحضور حفل تكريم يقام خصيصاً من أجله ،  
ولكن تواضعه يجعله يخفى هذه الحقيقة . ولو أنها رأت ما ارتسم على وجهه  
من تعابير ، حين أوى إلى حجرته ، ووقف ينظر إلى صورة فتاة صارمة  
الملامح ، ذات شعر كثيف منسدل ، تتطلع عيناها إلى المستقبل الغامض  
لعرفت نوع المهمة التي جاء من أجلها إلى المدينة .

ولو أنها رآته وهو يطنقُ المصباح ، ثم يقبل تلك الصورة في الظلام ،  
لتأكد لها ذلك بصورة قاطعة .



## الفصل الرابع والأربعون

### مولاي ومولاتي

دخل لوري في اليوم التالي بيت آل مارش ، فوجد مسز مارش وقد  
أجلست مسز لورنس على حجرها ، كأنما عادت هذه طفلة صغيرة ،  
فقال :

— أتسمحين لي يا سيدتي الأم أن أستعير منك زوجتي لمدة نصف  
ساعة ، فقد وصل متاعنا ، وكدت أفسد أدوات الزينة الباريسية في بحثي  
عن بعض أشياء أريدها ؟

قالت مسز مارش وهي تضغط على اليد البيضاء التي ازدانت بنخاتم الزواج ، وكأنها تعتذر عن استحواذها لها :

— بالتأكيد . اذهبي يا عزيزتي ، لقد نسيت أن لكما بيتاً غير هذا .  
قال :

— ما كنت أطلبها لولا حاجتي إليها . . إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون معونة زوجتي الصغيرة ، وبغيرها أشعر كأنني . . كأنني . .  
وتوقف يبحث عن التشبيه المناسب ، فقالت چو ، وقد استعادت سلاطة لسانها ، منذ عاد لورى إلى الوطن :

— كأنك دواة رياح . . بلا رياح !

قال :

— بالضبط . فأنى تجعلنى أشير دائماً إلى الغرب مع لفته إلى الجنوب بين آن وآخر ، ولم أتجه نحو الشرق منذ تزوجت ، ولا أكاد أعرف شيئاً عن الشمال ولكنى دائماً فى جو صحو معطر . . أليس كذلك يا سيدتى ؟  
قالت آى بلهجة الأمومة المحببة إلى لورى :

— الطقس غاية فى الجمال الآن ، ولست أدرى إلى متى يستمر كذلك ! ولكنى لا أخشى العواصف ، فقد تعلمت كيف أسير سفينتى فيها . هيا بنا إلى البيت يا عزيزتى ، لأجد لك ما كنت تبحث عنه فى متاعى ، وأظن أنه « لبيسة » الأحذية . إن الرجال قليلو الحيلة يا أماه !  
وقالت چو وهي تزر معطف آى كما كانت تزر لها مرولتها فى الماضى :

— ماذا تفعلان حين يستقر بكما المقام ؟

قال لورى :

— لدينا خطط كثيرة نفضل أن نبقيا الآن فى طى الكتمان . ما زلنا جددآ فى وظيفتنا ، نكره إضاعة الوقت فى الحمول والكسل ، وفى نيّتي أن أشغل نفسى بعمل يسعد جدى ، ويثبت له أننى لست مدللا . لقد سئمت الثرثرة ، ولى رغبة فى أن أشغل كرجل كامل الرجولة ، وأظننى فى حاجة إلى عمل جدى يحفظ وقارى .

قالت مسز مارش ، وقد أعجبت بقرار لورى وعزيمته :

— وآمى ؟ ماذا فى نيّتها أن تصنع بنفسها ؟

أجاب لورى :

— بعد أن ننتهى من واجب المجاملات ونستريح بعض الوقت ، سندعوكم بما نقدمه فى القصر من كرم الضيافة ، وبمن ندعو من كرام القوم ، ستجدون ما يرضيكم من نشاط طيب فى عالمنا كله . هذه مشروعات آمى المستقبلية . أليس كذلك يا مدام ريكاميه ؟

قالت آمى ، وفى نيّتها أن تكون أصلح الزوجات ، قبل أن تفتح صالونها كملكة للمجتمع :

— دع الأمر للأيام ، وكفاك قحة أمام أسرتى ، فهيا بنا ننصرف .

قال مستر مارش بعد أن خرج الزوجان وقد عجز عن تركيز ذهنه في كتب أرسطوطاليس :

— ما أسعد الطفلين معاً ! !

قالت زوجته ، بلهجة الربان الذي قاد سفينته إلى شاطئ الأمان  
سائلة :

— نعم لإنهما سعيدان ، وستدوم سعادتهما على ما أعتقد .

وقالت جو وهي تنهد :

— وأنا واثقة بذلك . والله ، ما أسعدك يا أمي !

وأشرق وجهها حين رأت الأستاذ باير يدفع البوابة فيفتحها متعجلاً .  
وفي المساء ، بعد أن أخذ لوري قسطه من الراحة ، وعثرت له زوجته  
على ما كان يبحث عنه ، قال لها وهي غارقة في تنسيق كنوزها الغنية  
الجديدة :

— مسز لورنس !

أجابت :

— مولاي !

قال :

— أيتزوج ذلك الرجل من جو ؟

قالت :

— أأست تمنى معى أن يحدث ذلك ؟

قال :

— نعم يا حبيبى ، فهو رجل فذ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكنى كنت أفضل لو كان أنصر شباباً ، وأكثر مالاً .

قالت :

— لا تكن مادياً إلى هذا الحد يا لورى ، فالحب لا يعترف بعمر أو ثروة ، ومن الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال .

وأمسكت آى لسانها بعد أن أفلتت هذه الكلمات منها ، ونظرت إلى زوجها متطلعة ، فأجابها بنحيث :

— مؤكذ . . من الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال وحده ، وإن كنا نسمع من بعض الفتيات الرشيقا غير ذلك ، فقد جاهرت مرة — على ما أذكر — برغبتك فى الزواج من ثرى ، ولعل ذلك كان السبب فى زواجك من رجل مثلى لا يصلح لشىء .

قالت :

— لا تنظن ذلك يا عزيزى ، فأنا لم أفكر فى ثرائك حين قبلتك زوجاً ، وما كنت لأتردد لو كنت معدماً . . وإنى لأتمناك فقيراً فى بعض الأحيان ،

حتى أثبت لك إخلاص عاطفتي .

وفي خلوة الحب هذه ، قدمت له آمي التي يعرفها الناس وقورة ، أدلة مقنعة على صدق كلامها . ثم أردفت تقول :

— لا أظنك تعتقد حقاً أنني المرأة المادية التي كنت أريدها فيما مضى ، فإنه ليتعسني أن تتصورني طامعة في مانك . . فالله يعلم أنني ما تزوجتك إلا لأضع مصيري بين يديك ، وأفاسمك حياة سعيدة ، وما كان ليبتقص من حبي أن تكون معدماً تكسب قوتنا من التجاذيف على سطح البحيرة .

قال :

— أبله أنا أم أحمق ليجول بخاطري مثل هذا الظن ، بعد أن رفضت الزواج من رجل أغنى مني ، ثم منعتني من أن أعطيك نصف ما أحب أن أمنحك من هدايا ؟ إن المسكينات يتزوجن من أجل المال كل يوم ، كسبيل إلى الخلاص من همومهن ، ولكنك ذات خبرة وتجربة ، وليست حقائق الحياة خافية عليك . وأعترف بأنني خفت عليك في وقت من الأوقات ، ثم لم ألبث أن اطمأنتت إلى حكمتك وعقلك ، ولا غرابة فالبتت سر أمها . لقد صارحت ماما برأيي هذا أمس ، فأشرق وجهها بالبشر ، كأنما أعطيتها صكاً بمليون من الجنيهات لتصرفها في أوجه البر . وتوقف لورى عن الحديث لحظة عند ما رأى عيني آمي تنظران إليه في

شروود تام ، ثم قال :

— إنك لا تتبعين موعظتي الأخلاقية يا مسز لورنس !

قالت :

— إنى أتبع حديثك وفى ذات الوقت أتأمل بإعجاب طابع الحسن الذى يزين ذقنك . لا أريد أن أثير خيلاءك وغرورك ، ولكنى أعترف أنى فخورة بوسامة زوجى أكثر مما أنا فخورة بثرائه .

ثم ربتت على أنفه الجميل ملاطفة ، وقالت بابتهاج :

— لاتضحك منى ، فأنفك يبعث الراحة إلى نفسى .

وكان لورى معتاداً على سماع عبارات الإطراء ، ولكن عبارة مما سمعها لم تبلغ من نفسه ما قالته آمى ، فبان عليه الفرح بوضوح رغم أنه ضحك من مزاح زوجته الغريب :

قالت آمى فى بطاء :

— أسمح بأن أسألك سؤالاً واحداً يا عزيزى ؟

قال :

— طبعاً ، سلى ما شئت !

قالت :

— هل يضايقك أن تتزوج چو من مستر باير ؟

قال :

— أهذا كل ما يقلقك ؟ ظننت أن في طابع الحسن شيئاً لا يروقك !  
تأكدى أنى سأكون أسعد مخلوق بزواجها منه ، وسأرقص يوم زفافها  
بقلب يفيض طرباً وابتهاجاً ، فهل يكفيك هذا أم لديك سؤال آخر ؟  
وكانت أمى ترقبه وهو يتكلم ، فاطمأنت نفسها ، وتبخرت مخاوفها ،  
وانقشعت عن قلبها ظلال الغيرة إلى الأبد . قالت بمنتهى الحب والثقة :  
— ليتنا نفعل شيئاً لهذا الأستاذ العجوز العظيم ! ألا نستطيع أن نخلق  
له قريباً غنياً مات في ألمانيا عن ثروة صغيرة يرثها ؟

وتأبط لوزى ذراع أمى ، وسار الاثنان في الغرفة جيئة وذهاباً ، وهى  
طريقة لقطع الوقت أغرما بها لما فيها من تذكرة بالساعات الهنيئة التى  
قضياها معاً فى حديقة القصر بفيفاى .

قالت أمى :

— ستكشف چو أمرنا وتفسد حيلتنا ، فهى فخورة برباجها كما هو ،  
وقد سمعتها أمس تشيد بجمال الفقر .

قال :

— فليبارك الله قلبها الطاهر ! قد تغير رأياها فى الفقر حين يتحتم عليها  
أن تعول زوجاً أديباً وذرية كبيرة من صغار الأدباء والأديبات ! الأفضل

ألا نتدخل حتى تحين الفرصة الملائمة ، فنقدم لهما المعونة رغباً عنهما .  
إني مدين لجو بجزء كبير من ثقافتى وهى تؤمن بضرورة وفاء الديون ،  
وبهذه الحجة أستطيع أن أتغلب عليها .

قالت :

— أجمل ما فى الحياة أن يسعد الإنسان نفسه بمساعدة الآخرين !  
كنت دائماً أتمنى أن يكون لى من القوة ما يمكننى من إعطاء غيرى بسخاء  
وبفضلك تحققت أمنيتى ، فشكراً لك .

قال :

— سنحقق معاً خيراً كثيراً . فهناك نوع خاص من الفقر أحرص  
كل الحرص على مساعدته ، لأنه يختلف عن فقر المتسولين الذين يلقون  
بعبئهم على المحسنين ! فالأسر الطيبة التى أخنى الدهر عليها ، لا تجد من  
يعينها ، لأنها لا تطلب إحساناً ، والناس عادة لا يجروون على مساعدتها  
محافظة منهم على كرامتها ! فى حين أنه توجد ألف طريقة وطريقة توفى  
بالغرض ولا تجرح الشعور أو تمس الكبرياء . وأؤكد لك أنى أفضل معونة  
سيد محترم أخنى عليه الدهر على معونة متسول محترف ، وقد أكون  
مخطئاً فى ذلك ، ولكن هذا ما أفعله على ما فيه من مشقة .

قالت آمى فى إعجاب :

— هذا خلق الرجل الكريم ، ولا يتحلى به إلا كريم مثلك .

قال :

— أشكرك ، وإن كنت لا أستحق هذا الثناء كله . . كدت أفضي إليك بهذه الآراء ونحن في الخارج ، فقد قابلت شباناً موهوبين يقومون بتضحيات جسيمة ، ويتحملون مشقات كبيرة في سبيل تحقيق آمالهم . . كانوا شباناً رائعين لا مال لديهم ولا أصدقاء ، ومع ذلك يكافحون كالأبطال بصبر وشجاعة وطموح ، فخرجت من حالي ، وتمنيت لو أمكنني أن أقوم بنفسى بمساعدتهم ، لأنهم إذا كانوا على عبقرية حقة ، نالني شرف إظهارها ، بدل أن تموت وتنفى في أحضان الجوع والعري . . وإذا لم يكونوا على ما يرجون من نبوغ ، فكفاني أن أخفف عنهم وقع الحقيقة حين يكتشفونها .

قالت آى :

— هذا صحيح ، وهناك فئة أخرى لا تستطيع أن تمد يدها بالسؤال ، فتتعذب في صمت . إنى أعرف كثيراً عن هذه الفئة ، لأنى كنت أنتسب إليها قبل أن تجعلنى أميرة ، كما فعل الملك بخادمتة في القصة القديمة . الفتيات الطموحات يتعذبن يا لورى ، وكثيراً ما ينحسرن الشباب والصحة والفرص ، لحرمانهن من معونة صغيرة في الوقت المناسب . ولكنى

كنت أحسن حالا من غيري ، بفضل عطف الناس عليّ ، وحنانهم بي ، لذلك كلما رأيت فتيات يجاهدن مثلما كنا نجاهد ، أشعر برغبة في مساعدتهن كما ساعدت في جهادي .

واستقر رأيه في هذه اللحظة على إنشاء مؤسسة لمعونة الفتيات الموهوبات في الفن ، فصاح وهو يلتهب حماسة إلى عمل الخير ، قال .

— ستكونين لهم ملك الرحمة ، يا ملك الرحمة ، فليس من حق الأغنياء أن يقبعوا في أعقار دورهم ، قانعين من الجهاد بجمع المال ، ليبدده من بعدهم أولاد عابثون ، أجهل بالإنسان أن يستغل ماله في النفع وهو حي ، ويستمتع بإسعاد غيره من الناس ، فإنها رسالة تستحق أن يعيش الغني من أجلها . . سوف نسعد بحياتنا إن شاء الله ، ونضيف إلى متعنا لذة إشراك غيرنا فيها بأنصبة سخية . فهل لك أن تكوني كإلهة الإغريق الصغيرة التي تجوب البلاد ، لتفرغ سلتها المليئة بالسعادة والراحة ، وتعود بها عامرة بالأعمال الصالحة ؟

قالت :

— بكل سرور ، إذا أنت تشبهت بالقديس مارتن ، فرحت تقف عند كل محلة تمر بها في رحلتك حول العالم ، لتدق الفقير والمحروم بعباءتك

قال :

— اتفقنا ، والكسب لنا !

وتصافح الزوجان الشابان تأكيداً لاتفاقهما ، ثم استأنفا سيرهما جيئة  
وذهاباً في سعادة بالغة ، وقد شعرا بأن بينهما ازدياد نوراً بما سوف يضيفان  
من نور على بيوت الآخرين ، وأن طريقهما قد ازدهر واتسع بجهودهما  
في تعبيد طريق المحتاجين ، وأن قلبيهما قد ارتبطا إلى الأبد بذلك الحب  
السمح الذي لا تغفل عنه الخيرة عن حرما من مثل نصيبهما في الحياة .



## الفصل الخامس والأربعون

### ديزى وديمى

لن أشعر ، كثورخة متواضعة لأسرة مارش ، أننى أدبت واجبي على  
أكمله ، ما لم أخصص فصلا على الأقل لأهم وأعز عضوين فى الأسرة ،  
فقد بلغ ديمى وديزى سن الفهم والإدراك الآن ، وفى عصر السرعة الذى  
نعيش فيه ، يثبت أبناء الثالثة أو الرابعة حقوقهم ، وينالونها أكثر مما يفعل  
الكبار .

إذا كان هناك تويمان تعرضا لخطر التدليل ، نتيجة لحب الوالدين

المفرط ، فهما تووما يروك الصغيران . كانا بالتأكيد أعجب طفلين في الوجود ! فقد مشيا في الشهر الثامن من عمرهما ، وتكلما بطلاقة في تمام العام ، وفي العام التالي جلسا إلى مائدة الطعام ، وأحسنا فيها التصرف بشكل أدهش الناس ! وفي الثالثة طلبت ديزى إبرة ، وحاكت حقيبة بثلاث غرزات فقط ، ثم اهتمت بتنظيم شئون البيت وترتيب خزانة الطعام ، واستخدمت موقداً صغيراً للطهو بمهارة أثارَت دموع الفرح والفخر في عيني حنة ! وفي الوقت نفسه تعلم ديمي الحروف الأبجدية من جده الذي ابتكر له طريقة لحفظها بذراعيه وساقيه ، وهكذا جمع بين العلم ورياضة الرأس والرجلين ! وأبدى الطفل منذ حدثته ، نبوغاً في الميكانيكا سرّ له والده وقلقت أمه ، فقد راح يقلد كل آلة يراها ، مما جعل حجرة الأطفال في حالة يرثى لها ! قلد ما كينة الخياطة مرة بمجموعة عجيبة من الحيوط والكراسي والديبايس ، واستعاض عن العجل بيكرات تدور عليها الماكينات ! ومرة علق سلة خلف كرسي كبير ، وحاول أن يضع فيها أخته المطيعة الخجالة ، فلم تسفر التجربة إلا عن حشر رأسها في السلة ، وبقيت على هذا الحال حتى وجدت المسكينة من ينقذها من مخترعاته ، وعندئذ صاح يقول محتجاً : « وماذا جرى ؟ هذا دلو أريد أن أرفعها من البئر » .

ورغم اختلاف شخصيتي التوأمين ، فقد توافقا معاً بشكل واضح ، وقلما كانا يتشاجران أكثر من ثلاث مرات في اليوم الواحد . وكان ديمي يتحكم في ديزى طبعاً ، ولكنه كان يرد عنها اعتداء الآخرين بمنتهى

الشهامة ، وقبلت ديزى أن تكون له مطيعة تعمل بأوامره وتوجيهاته ، ولكنها كانت تحبه وتعتبره أكمل مخلوق على وجه الأرض . وكانت ديزى ذات خدين ممثلين موردين ، وكانت تعرف كيف تجتذب القلوب ، وتربع على عروشها ، فأحبها الناس وتعلقوا بها . وكانت كإلهة صغيرة تستهوى الأنظار بجمالها ، وتوحى بالرغبة فى تديلبها وتقبيلها ، ولولا بعض الشيطنة التى تربطها بالبشر أحياناً ، لرفعها فضائلها الحلوة إلى مرتبة الملائكة ، كانت ترى الدنيا صحواً دائماً ، فتسلى النافذة كل صباح ، وهى ما زالت فى قميص نومها ، وسيان سطعت الشمس أم هطلت الأمطار تقول : « إنه يوم جميل ، جميل جداً » . وكان من عادتها أن تهدى الأغراب قبلاتها بسخاء ، فيلين بطيب معشرها أشد القلوب صلابة ، وتجعل من محبي الأطفال عباداً مخلصين .

وقد قالت ذات مرة ، وهى تفتح ذراعها ، وفى إحدى يديها ملعقة وفى الأخرى كوب :

— أنا أحب الناس كلهم .

وكانما كانت تريد أن تضم العالم إلى صدرها وتشرك أهله على طعامها . وكلما كبرت ديزى ، ازدادت أمها شعوراً بالبركة التى تطرد فى « عش الحمام » بوجود هذه الابنة الهادئة اللطيفة ، وما تسعه بروحها الحلوة من سعادة على البيت الصغير العتيق ، فتوجه بقلبها إلى الله ضارعة ألا يريها مكروهاً فيها ، كما حدث للملاكهم بث . وكان جدها يناديها

دائماً « بيث » وجدتها تدللها بعطفها الزائد ، كأنها تريد بذلك أن تكفر عن خطأ قديم لا يعرف بسره سواها .

أما ديمى فكان طفلاً أمريكياً بمعنى الكلمة : كثير الأسئلة ، محبباً للاستطلاع ، يريد أن يعرف كل شيء ، يضايقه ألا يحصل على أجوبة مرضية للأسئلة التي لا تخلو من كلمة « ولماذا هذا ؟ »

وكان له أيضاً اتجاه فلسفى أدخل سروراً عظيماً على قلب جده ، الذى اعتاد أن يقضى معه وقتاً طويلاً فى جلسات سقراطية ، يتصرف الطفل فيها تصرفات تثير إعجاب نساء العائلة !

دخل ذات ليلة إلى فراشه لينام ، وراح يتأمل ساقيه تحركانه ، ثم جعل يفكر تفكيراً عميقاً ، وأخيراً قال يسأل جده :

— ما الذى يجعل ساقى تمشيان يا جدى ؟

أجابه الجلد العاقل ، وهو يمسح بيده فى احترام على شعره الأشقر :

— إنه عقلك الصغير يا ديمى .

سأله الطفل :

— وما هو هذا العقل الصغير ؟

قال :

— إنه القوة التي تجعل جسمك يتحرك ، كما يحرك الزمبرك تروس ساعتي التي فتحتها لك وأريتك ما بداخلها .

قال :

— إذا افتحنى يا جدى ، لأرى كيف يشغل العقل . . .

قال الجد :

— لا يمكننى ذلك ، كما لا يمكنك أنت أن تفتح الساعة ، فقد  
ملأك الله لتسير حتى يوقفك بقدرته .

قال الصبي ، وقد التمت عيناه لفكرة جديدة طافت بذهنه :

— وهل أملاً أنا كما تُملاً الساعة ؟

قال الجد :

— نعم

وتحسس ديمى ظهره ، كأنما كان يتوقع أن يجده كظهر الساعة ،  
ثم قال فى رزاة :

— أعتقد أن الله ملأنى وأنا نائم .

وشرح الجد فى عناية ، واستمع الطفل فى انتباه ، مما حدا بالجد أن

تقول فى قلق :

— أمن الحكمة يا عزيزى أن تحدث الطفل بهذه الأمور؟ إنك تفتح

عيونه وتعلمه أن يسأل فيما لا يمكن الإجابة عليه . .

قال :

— مادام قادراً على السؤال ، فهو قادر على الفهم أيضاً . . أنا لا

أحشورأسه بالأفكار ، بل أساعده على تفسير ما يعن له منها ، ولست

أشك فى أنه يفهم كل كلمة أقولها ، فالأطفال أكثر حكمة مما نظن .

والتفت إلى الطفل يسأله : قل لى الآن يا ديمى ، أين تحتفظ بعقلك ؟  
وما كان الجلد ليدهش إذا أجاب ديمى بما أجاب به تلميذ سقراط ،  
عندما قال : « والله لا أعرف ياسقراط » ، ولكن الطفل وقف على إحدى  
ساقيه كما يفعل طائر البشاروس وراح يفكر قليلاً ، ثم قال بلهجة المقتنع :  
— إنه فى بطنى الصغير !

ولم يستطع الجلد إلا أنه يشارك زوجته فى ضحكها ، وانتهى درس  
الميتافيزيقا بما لا يدع مجالاً للشك فى أنه طفل طبيعى بمعنى الكلمة ،  
بالرغم من اتجاهه الفلسفى الذى كان أحياناً يلقى أمه ، ويدفع حنة إلى  
التشاؤم ، حتى لتقول متحسرة : « مثل هذا الطفل يمكن أن يعمر  
طويلاً » . والحق أنه كان بعد نوباته الفلسفية يعود إلى طبيعة عمره  
فيخرج يلهو ويتمرغ فى الأقدار ، ويرتكب شتى الحماقات التى تعرفها  
الأمهات جيداً ، فيتضايقن منها ، ويسعدن بها فى الوقت ذاته .

وكانت ميج قد أعدت قواعد خلقية كثيرة ، أرادت أن تطبقها على  
طفلها ، ولكن أين الأم التى استطاعت أن تمنع مكر الأطفال وخذاعهم ،  
وتتغلب على جرأتهم وتملصهم ؟ وهكذا عجزت ميج عن السيطرة على  
تصرفات طفلها بعد أن أثبتت التجارب لها أنهما على مكر ودهاء .

وتقول ميج لديمى حين يقف فى المطبخ ، شأنه فى اليوم المخصص  
لصنع الفطائر :

— كفاك أكلا فى الزيبب يا ديمى ، وإلا مرضت .

فيجيب :

— وأنا أريد أن أمرض !

فتقول :

— ولكني لا أريد أن تمرض ، فكفأك أكلاً ، وأسرع إلى مساعدة ديزى في صنع فطائرها الصغيرة .

ويتلأأ ديمى في الخروج ، ثم لا يلبث أن يؤنبه ضميره ، فينصرف من المطبخ ، لينتصر على ماما في أول فرصة مواتية ، بحيلة جديدة أو بمساومة ماكرة .

وبعد أن تطمئن ميج على الفطائر ، تقود الطاهيين الصغيرين إلى الدور العلوى ، وتقول لهما :

— لقد كنتما كطفلين مطيعين ، ولذلك سألعب معكما أى لعبة تريدانها .

ويسأل ديمى وقد لمعت فكرة في ذهنه :

— صحيح يا ماما ؟

وتجيب الام الساذجة ، وهى تظن أنه لن يطالبها — على أسوأ الفروض — بأكثر من أن تغنى معه « ثلاث قطيطات صغيرات » ست أو سبع مرات :

— صحيح ، فاطلبا ما شئتما .

وينتهز ديمى هذا المأزق فيقول بهدوء :

— إذأ هيا بنا يا ماما نعود إلى أكل الزبيب !

وكانت الخالة « دودو » صديقة الطفلين وموضع ثقتهما ، فإذا ما اشترك ثلاثهم في اللعب ، قلبوا البيت رأساً على عقب ، ولم تكن الخالة أمى عندهم سوى اسم لا مدلول له ، أما الخالة بث ، فقد اختفى اسمها بالتدريج ، وتحولت على مضي الأيام إلى ذكرى سارة غامضة . وظلت الخالة « دودو » مخلصه في صداقتها للطفلين ، حتى جاء مستر باير ، فشغلت عن اللعب معهما ، مما أورشها الحزن والكآبة . فهذه ديزى التي كانت تجول هنا وهناك سعيّاً وراء القبل الخنونة ، قد فقدت خير عملائها ، وأدرك ديمى بذكائه أن الخالة « دودو » أصبحت تفضل اللعب مع الرجل باير ، فتألم لذلك غاية الألم ، ولكنه آثر أن يخفى ألمه في نفسه ، خشية أن يفقد محبة « الرجل الدب » الذي يخفى في جيوبه كنوزاً من الحلوى ، ويملك ساعة يستطيع أن يأخذها منه وقتاً يشاء ، ويلعب بها كيفما أراد . وقد يظن بعض الناس أن مستر باير يرشو الصبي بهذه الحريات ، ولكن ديمى لم ير الأمر على هذه الصورة ، فواصل رعايته للرجل الدب في بشاشة لا تخلو من بعض التحفظ ، أما ديزى فقد منحتة حبها بعد زيارته الثالثة ، وكانت ترى في كتفيه عرشاً تعليه ، وفي ذراعيه ملجأ تلوذ به ، وفي هداياه كنوزاً لا نهاية لها .

وأحياناً ما يصاب الرجال بحب مفاجئ للأطفال الذين يتمتعون إلى حبيبتهم ، ولكن هذا النوع من الحب المغرض لا ينجذ أحداً ، فالناس يرون الزيف بسهولة ، وحتى أصحاب الحب هذا لا يلبثون أن يضيقوا

ذرعاً بمن كانوا يصطنعون حبهم من الأطفال ، ولكن حب مستر باير ظل بإخلاصه حياً ، فقد كان الرجل بطبعه مشغوفاً بالأطفال ، يحب مجالستهم وملاعبتهم ، ويجد لذة في تتبع انفعالات الحزن والفرح في نفوسهم ، وتباين آثارها في وجوههم .

وكانت مشاغل باير تمنعه من الحضور في الصباح ، ولكنها لم تكن تعوقه عن أداء واجبات الزيارة في المساء . وكان إذا ما حضر بادر بالسؤال عن مستر مارش كأنه جاء خصيصاً من أجله . وانطلت الحيلة على الرجل الطيب ، وظل ممعناً في وهمه ، حتى أدرك الحقيقة فجأة من إشارة عابرة قالها حفيده الذكي . فقد حدث ذات ليلة أن حضر مستر باير كعادته ، وبينما هو يسير نحو غرفة المكتبة ، استوقفه فجأة منظر مدهش ، إذ كان مستر مارش راقداً على الأرض وساقاه مرفوعتان في الهواء ، وبجانبه يرقد ديمي في شغل شاغل بتقليد جده . وانهمك الاثنان في تمرينهما ، فلم ينتبها إلى وجود الاستاذ ، حتى ضحك هذا عالياً ، وصاحت چو في استنكار :

— أبى ! أبى ! إن الأستاذ هنا .

وأنزل الأب ساقيه ، ورفع رأسه الأشيب ليقول في وقار :

— مساء الخير يا مستر باير ، اسمح لى بلحظة ، حتى نتم درسنا والآن يا ديمي ، ارسم الحرف واذكره .

وبعد محاولات رسم الطفل برجليه رقم « سبعة » ثم قال بسرور :

— أنا أعرفه ! « ثى » ، إنه حرف « ثى » يا جدى .

وضحكت چو ، وبينما نهض الأب على قدميه ، وراح ديمى يحاول أن يقف على رأسه ، علامة ابتهاجه بانتهاء الدرس . قال مستر باير للطفل وهو يرفعه عن الأرض :

— وما فعلت اليوم يا طفلى العزيز؟

قال :

— ذهبت لأرى مارى الصغيرة .

سأله باير :

— وماذا فعلت هناك ؟

قال ديمى بمنتهى الصراحة :

— قبلتها !

فسأله مستر باير محاولاً أن يستكمل اعترافات المذنب الصغير ، الذى وقف على ركبتيه وأخذ يبحث فى جيب سترة الأستاذ :

— نشاط مبكر ! وماذا فعلت مارى الصغيرة ؟

قال ديمى مسروراً بقطعة الحلوى التى تملأ فيه :

— اغتبطت وقبلتني بدورها ، فاغتبطت أنا أيضاً . وهكذا يجب

الأولاد الصغار البنات الصغار . أليس هذا جميلاً ؟

فقالت چو وهى تستمتع بمجون الطفل مثل استمتاع الأستاذ به :

— من الذى وضع هذا فى رأسك أيها الكتكوت الماكر ؟

وظن ديمى أنها تسأله عن قطعة الحلوى ، فأخرجها على لسانه ، وقال :

— إنها في في لا في رأسى !

فقال باير :

— لاتنس أن تحتفظ ببعض الحلوى لصديقتك الصغيرة ، فالحلوى  
للحلو أيها الرجل الصغير !

وقدم الأستاذ بعض الحلوى لچو ، وفي عينيه نظرة جعلتها تظن أن  
الشيكولاته رحيق الآلهة ! ولم تفت معاني ابتسامتها عن عيني ديمى الذكى ،  
فقال يسأل الأستاذ بصراحة :

— وهل يحب الفتيان الكبار الفتيات الكبيرات أيضاً يا أستاذ ؟

ولم يكن من طبع الأستاذ أن يكذب ، فأجاب بكلام غامض مقتضب  
لفت نظر مستر مارش ، وجعله يترك فرشاة الملابس التي كان يحملها في يده ،  
وينظر إلى وجه چو مليئاً ، ثم يغرق في كرسيه ، وقد بدا له أن الكتكوت  
الماكر قد نبه ذهنه إلى فكرة جديدة ، فيها من الحلاوة ما فيها من المرارة .  
وتواردت على ذهن ديمى بعد ذلك أسئلة كثيرة ، لم يجد لها إجابات  
شافية : لماذا لم تنهره الحالة دودو وهزه كعادتها بعنف عندما وجدته ، بعد  
ما قال بنصف ساعة ، وهو يعبث في خزانة الخرف ! ولماذا ضمته إلى  
صدرها وقبلته حتى كادت تعصره وتزهرق أنفاسه ؟ ولماذا كافأته بقطعة  
كبيرة من الخبز والمربي ؟

وظلت هذه المشاكل تحير ذهن ديمى ، حتى يئس من حلها ،  
فتركها إلى الأبد بدون حل .



## الفصل السادس والأربعون

### تحت المظلة

في الوقت الذي كان فيه لوري وآمي يذرعان الغرف ذهاباً وإياباً فوق الأبسطة المخملية ، وهما يرتبان منزل الزوجية الحديد ، ويضعان خطط مستقبلهما السعيد ، كان باير وجو يستمتعان بنزهات من طراز مختلف ، على طول الطرق الموحلة والحقول الغدقة .

كان الوصول إلى بيت ميج له طريقان ، واحتارت جو أيهما تسلك ، ففي كل مرة سارت إلى زيارة أختها في أحدهما ، لقيت الأستاذ إما ذاهباً

أوعائداً . قالت لنفسها ذات يوم :

— لقد اعتدت أن أسير إلى بيت ميج كل مساء ، فلماذا أعدل عن رياضتي هذه ، لا لسبب إلا أن الأستاذ يتمشى بدموره في ذات الطريق ؟ وكان من عادة الأستاذ أن يسير مسرعاً ، لا يبدو عليه أنه يراها حينما يصبح على بعد خطوات قليلة منها ، كأن نظره الضعيف لا يمكنه من تمييزها إلا في اللحظة الأخيرة . . ويسألها عن وجهتها ؛ فإن كانت ذاهبة إلى ميج ، قال بأن لديه هدايا صغيرة للأطفال يجب أن يعطيها إياها ، وإن كانت راجعة إلى بيتها ، ادعى أنه — بعد أن انتهى من رياضته عند النهر — كان في نيته أن يزورهم ، ما لم يكونوا قد ملوا كثرة تردده .

ولم يكن أمام جو ، إزاء هذه الظروف ، إلا أن تجيبه بلطف وتدعوه إلى رفقها ؛ وإذا كانت جو قد ملت من زيارته ، فقد أخفت ذلك في مهارة ، بل إنها كانت تغالي في العناية بإعداد القهوة بعد العشاء ، لأن فردريك . . أعنى باير لا يحب الشاي ! !

ولم يمض الأسبوع الثاني إلا وقد اتضح الموقف لجميع أفراد الأسرة ، ولكنهم أغمضوا عيونهم عن التطورات التي طرأت على وجه جو ، فلم يسألها واحد لماذا تغنى أثناء عملها في البيت ، أو لماذا تمشط شعرها ثلاث مرات يومياً ، أو لماذا تعود من رحلاتها المسائية مشرقة الوجه ، بارقة العينين ! ولم يشك أحدهم في أن مستر باير يقصد بمناقشته الفلسفية مع الأب ، تلقين البنت دروساً في الغرام .

ولم تستطع چو ، بحكم طبعها الجامح ، أن تسلم بالحب لأول وهلة ، ولذلك جاهدت ما وسعها في إخفاء عواطفها ، فلما لم توفق ، اضطربت حياتها نوعاً ما . كانت في ذعر شديد من أن يسخر الناس منها إذا استسلمت بعد أن أعلنت مراراً أنها استقلالية لا يمكن أن تخضع لمؤثر . كانت تخاف لورى أكثر من أى شخص آخر ، ولكن الفتى الحكيم أخذ بنصائح أمى ، وتصرف في أدب ولباقة ، فلم يتحدث عن باير مطلقاً ، ولم يصفه علناً « بمستر باير العجوز الممتاز » ، أو يغيظها بالإشارة إلى ما طرأ عليها من تحسن ، بل لم يبد عجباً لتردد الأستاذ باير كل مساء تقريباً على أسرة مارش . كان يتدرع بالصمت أمام چو ، ويحتفظ بآرائه لحين يخلو بزوجته ، فيبدى لها سروره العظيم بتحسن نفسية أختها ، ويتطلع بشوق إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يهديها درعاً من الصفيح ، منقوشاً عليها صورة دب ، لتتخذها رمزاً للعائلة .

واتخذ الأستاذ سمة العشاق ، فكان يتردد على بيت مارش كل مساء خلال أسبوعين ، ثم غاب ثلاثة أيام كاملة ، لم يظهر له فيها أثر . وأثار انقطاعه اهتمام الأسرة ، وبدت چو فى أول الأمر مفكرة شاردة الذهن ، ثم تملكها الغضب بعد ذلك ، فقد خيل إليها أنها خاتمة قصة حبها وأسفاه . وذات مساء تاهبت چو للخروج ، ووقفت تنظر إلى البوابة بمنتهى الأسى ، ثم قالت تحدث نفسها :

— لا شك أنه سئم الانتظار ، فعاد فجأة من حيث أتى ، وهذا

لا يهمنى بطبيعة الحال ، ولكن كان حرياً به أن يسلك مسلك السيد  
المهذب ويودعنا قبل رحيله .



قالت لها أمها ، وقد لاحظت أنها ترتدى قبعها الحديدية :  
— أرى أن تأخذى مظلة معك ، فالجويني بالمطر يا عزيزتي .  
قالت جو وهي تثبت رباط القبعة أمام المرأة ، لتتحاشي نظرات  
أمها :

— سمعاً وطاعة يا أمها ، إنى ذاهبة لشراء بعض الورق ، فهل تريدان  
شيئاً من المدينة ؟

قالت :

– نعم أريد قطعة من التل المنقوش ، ودسته إبر نمره تسعة ، ومترين من الشريط البنفسجى الرفيع ، ولكن ، هل انتعلت حذاءك السميك وارتديت ملابس ثقيلة تحت معطفك ؟

أجابت چو وهى شاردة اللب :

– أظن ذلك .

قالت الأم :

– إذا تصادف وقابلت مستر باير ، فادعيه لتناول الشاى معنا ، لأنى مشتاقة لرؤية هذا الرجل العزيز .

ولم تخر چو جواباً ، واكتفت بقبلة أودعتها خد أمها ، ثم انصرفت مسرعة ، وقلبا الحزين يفيض بالشكر لهذه العزيزة التى تقدر إحساسات ابنتها تمام التقدير . قالت چو تحدث نفسها :

– ما أشد عطفها على ! ترى ماذا تفعل من ليس لها أم تعينها على

احتمال متاعب الحياة ؟ !

لم تكن محلات بيع الأقمشة فى نفس الحى الذى تقوم فيه المصارف ودور المحاسبة والبيع بالجملة ، والذى يزدحم بالرجال وأصحاب الأعمال ! ومع ذلك وجدت چو نفسها – قبل شراء الأشياء المطلوبة منها – تسير على مهل فى هذا الحى من المدينة ، كأنما تنتظر شخصاً بالذات . وأخذت تتسلى على طول الطريق بالتطلع إلى واجهات حوانيت الأصواف والآلات

الهندسية ، وتبدى اهتماماً بأشياء لا تمت إلى جنسها بصلاة ، وتحشر نفسها بين البضائع والبراميل التي يفرغها العمال من العربات ، حتى كادت تقع عليها إحدى البالات المحمولة . وكان رجال الأعمال يسرعون الخطى فيدفعونها في غير اهتمام ، فإذا نظرت إليهم أبدوا دهشهم لوجود فتاة مثلها في هذا المكان . ووسط هذا الزحام ، أحست بقطرات من المطر تتساقط على خدها ، فانتقل تفكيرها من آمالها إلى أشرطة القبعة التي كاد يفسدها المطر . ولما كانت امرأة أولاً ، ثم عاشقة ثانياً ، فقد رأت أن تنقذ قبعتها من التلف ، ما دامت عاجزة عن إنقاذ قلبها من الحب الفاشل . وتذكرت مظلتها الصغيرة التي نسيت في عجلتها أن تأخذها معها ، ولم تجد فائدة من التأسف عليها ، فالموقف يضطرها إلى الإسراع باقتراض واحدة ، وإلا غرقت في هذا المطر المنهمر ، وتطلعت إلى السماء ثم إلى الشرائط القرمزية ، وقد اغمق لونها بقطرات المطر ، ثم ألقت نظرة على الطريق الموحد ، وقالت لنفسها وهي تقف أمام مخزن للحديد ، كتب على واجهته « هوفان وشفارتز وشركاؤهما » :

— هذا أقل ما أستحق ، فما الذي يجعلني أرتدى خير ثيابي ثم أجيء إلى هذا المكان أملاً في رؤية الأستاذ ؟ ! وانجلاه منك يا چو ! لا ، لا يليق بك أن تستعيري مظلة من هذا المستودع ، أو تسألني فيه عن الأستاذ ، والواجب أن تمضي إلى شراء ما كلفت به ، وإذا تعرضت للموت أو فسدت قبعتك ، فهذا جزاؤك الحق ! !

وحين انتهت من تأنيب نفسها ، اندفعت مسرعة إلى الطريق ، حتى كادت تدهسها إحدى العربات ، لولا أنها سقطت بين ذراعى سيد وقور عجوز ، قال وهو فى غاية من الحرج : « إني آسف يا سيدتى ! » . وكبحت جو غضبها واعتدلت فى سيرها ، وقد وضعت منديلها فوق قبعتها ، وأسرعت وقد ازداد البلل تحت قدميها ، وأخذت مظللات السائرين تتشابك فوق رأسها . واستوقفت أنظارها مظلة زرقاء باهتة ، طال بقاؤها فوق رأسها ، ولم تتحرك بعيداً كغيرها ، فرفعت بصرها إلى صاحبها ، فإذا بها ومستر باير وجهاً لوجه .

قال :

— أردت أن أعرف تلك السيدة التى تذرع الطريق فى شجاعة ، تحت أنوف الخيول المتواثبة ، ووسط الوحول المتراكمة ؛ فإذا جاء بك إلى هنا يا صديقتى ؟

— جئت أتسوق بعض الأشياء .

وابتسم مستر باير ، وهو ينظر يمينا إلى الشركات وبيوت المال ، ويساراً إلى محلات بيع الجلود بالجملة ؛ ولكنه قال يستدرك فى أدب :

— أنت لا تحملين مظلة ، فهل تسمحين لى أن أرافقك وأحمل لفائفك عنك ؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بلون أشربتها القرمزية :

— نعم وأشكرك .

وراحت تسائل نفسها : ترى ماذا يظن بها الأستاذ ؟ . ولكنها لم تفكر في هذا السؤال طويلا ، إذ لم تمض دقيقة حتى وجدت نفسها تتأبط ذراعها وقد خامرها شعور بأن الشمس قد أشرقت فجأة بشكل عجيب ، وأن الدنيا قد عادت إلى صفتها ، وأن امرأة في قمة السعادة تسير تحت الأمطار في ذلك اليوم . ورأت الأستاذ يطيل النظر إليها ، ولم تكن قبعتها واسعة الحافة لتخفي وجهها عنه ، فخشيت أن يقرأ في بريق عينها سر سعادتها ، قالت بسرعة :

— ظننت أنك سافرت !

فنظر إليها في عتاب وقال :

— وهل تظنيني الرجل الذى يسافر قبل أن يودع من أغرقوه بعطفهم وحنانهم ؟

وشعرت چوانها أخرجته بكلامها ، فقالت من صميم قلبها :

— لا ، ولكنى أعرف بمشغولياتك الكثيرة ، والحقيقة أننا افتقدناك

جميعاً ، خصوصاً أبى وأمى .

قال متسائلاً :

— وأنت ؟

قالت :

— يسرنى أن أراك يا سيدى .

وآثرت جو أن تجعل صوتها هادئاً لا أثر للانفعال فيه ، فجاء جوابها  
البارد خلواً من العاطفة ، ونزلت كلمتها الأخيرة « ياسيدى » على قلب  
الأستاذ كالثلج ، فغاضت الابتسامة من وجهه ، وقال فى وقار :  
— أشكرك ، وسوف أزورك مرة أخرى قبل رحيلى .

قالت :

— إذا فأنت راحل حقاً ؟

قال :

— لقد انتهيت من أعمالى هنا ، ولم يبق ما يسوغ بقائى .

وأحست جو بما فى إجابته المقتضبة من خيبة أمل ومرارة ، فقالت :

— أأمل أن تكون قد وفقت فى مهمتك ؟

قال :

— أظن ذلك ، فقد وجدت طريقاً أكتسب منه عيشى ، وأساعده

الأطفال الصغار .

قالت تسأله بلهفة :

— حدثنى عن هؤلاء الأولاد ، فانى أحب أن أعرف عنهم كل شئ .

قال :

— عطف منك أن تهتمى بهم ، ويسرنى أن أحدثك بتفريقى ، فقد

وجد لى أصدقائى وظيفة فى إحدى الجامعات ، لأدرس كما كنت أفعل

فى بلادى ، وبذلك أكتسب ما يوفر الرغد لقرانز وإميل . أليست هذه

نعمة يجب أن أحمد الله عليها ؟

صاحت چو ، وكأن سعادة فرانز وإميل هي سر فرحتها الظاهر :  
 — دون شك ! ما أجمل أن تمارس العمل الذي تحبه ، وتستطيع في  
 ذات الوقت أن تراك أنت والأولاد .

قال :

— أخشى أننا لن نتقابل كثيراً ، فالوظيفة في جامعة بغرب أمريكا .  
 وأفلت ثوبها من يدها ، وهبطت أطرافه إلى الوحول المتراكمة في  
 الطريق ، وقالت كمن لا يهتم بشيائها ولا بمصيرها :  
 — أبعيداً إلى هذا الحد ؟ ؟

وكان الأستاذ ضليعاً في كثير من اللغات ، اللهم إلا لغة أفكار النساء ،  
 وكان يطرى نفسه لمعرفة التامة بشخصية چو ، ولكن الحيرة غلبته في هذا  
 اليوم أمام المتناقضات التي لمسها في صوتها ، فبسرعة توالت عليها عواطف  
 متباينة وأمزجة مختلفة ، وفي خلال نصف ساعة تقلبت بين ست أحوال  
 على الأقل : فقد بدت الدهشة عليها عند ما قابلته ، مع أنها جاءت إلى  
 هذا المكان بحثاً عنه ؛ ولما أعطاها ذراعه استندت إليه بمنتهى السعادة  
 والغبطة ، وعند ما سألها إذا كانت قد افتقدته لطول غيابه عنها ، أجابته  
 بفتور حطم قلبه ، وحين أخبرها بالوظيفة هلالت وصدقت طرباً ؛ فهل كان  
 سرورها من أجل الأطفال وحدهم ؟ ولما سمعت أخيراً بمقر عمله الحديد  
 أسفت بلهجة يائسة ، أحييت في نفسه ميت الأمل . ثم لم تكذ

تمضى دقيقة ، حتى أذهلته بقولها في رنة عملية بحة :  
 — من هنا سأشترى لوازى ، ولن أغيب طويلاً في الحانوت ، فهل  
 تأتي معي ؟

وكانت جوتفخر بمهارتها في التسوق ، وقد أرادت في هذه المرة أن  
 تعطى لرفيقها صورة حية عن دقتها وسرعتها في ذلك . ولكن القلق النفسى  
 الذى كانت تعانيه جعل الأمور تسير على غير هواها : إذ أسقطت دسنة  
 الإبر ، ولم تتذكر أن أمها تريد تلاً منقوشاً إلا بعد أن قص البائع القماش ،  
 وعند الحساب أخطأت في دفع الثمن ، ثم حاولت أن تستر اضطرابها  
 بشراء الأشرطة ، ولكنها مع الأسف طلبتها من بائعة الأقمشة الصوفية ،  
 فتعقد الموقف أكثر وأكثر .

ووقف مستر باير يرقبها وهى تمنعن فى خجلها وتزداد فى ارتباكها ،  
 وفجأة زابلت حيرته ، واطمأنت نفسه ، إذ بدأ يدرك أن النساء كالأحلام  
 يفسرن بعكس ما يبدو منهن .

وعندما خرجا إلى الطريق ، وضع باير اللقافة تحت إبطه فى غبطة ،  
 وخاض الوحول وبرك الماء فى متعة . وحين وصل إلى واجهة حانوت بيع  
 الفاكهة والزهور قال لها :

— أتسمحين بأن أشتري للأطفال بعض الأشياء الصغيرة ، لنحتفل  
 الليلة فى بيتكم بزيارتى الأخيرة ؟

وتجاهلت جو الجزء الأخير من عباراته ، وقالت وهى تستنشق عبير

الأزهار بسرور بالغ :

— وماذا تشتري لهما ؟

قال مستر باير في لهجة أبوية :

— أيجان البرتقال والتين ؟

قالت :

— ليس أحب إليهما منهما إذا استطاعا الحصول عليهما !

سألها :

— وهل تحبين الجوز ؟

قالت :

— مثل السنجاب !

قال :

— وما رأيك في عنب هامبورج ؟ إنه يذكرني ببلادي ، وسنشرب

نخبها الليلة .

وأسرف في الشراء ، فقطبت جو جبينها ، وسألته لماذا لا يعقد الموقف

أكثر بشراء صندوق من البلح وبرميل من الزبيب المحفف وزكية من

اللوز وبذلك يأتي على البقية الباقية له من المال ؟ وأخرجت كيسها تم

بالدفع ، فرده إليها ، واشترى بنقوده عدة أرطال من العنب ، وباقه من

الأزهار الحميلة ، وإناء مليئاً بالعسل . ودسّ مشترياته في جيوبه ، وترك

لها الباقية تحملها ، ثم نشر مظلته القديمة واستأنفا مسيرهما مرة أخرى .

قال بعد أن قطعاً مرحلة من الطريق المبلل :

— ألا توليننى معروفاً يا مس مارش ؟

قالت ، وقد تسارعت دقات قلبها وعلت ، حتى خشيت أن يسمعها :

— بكل سرور .

قال :

— لم يبق لى وقت طويل فى هذا المكان ، ولدى من الجراحة ما يسمح لى بالكلام رغم هذه الأمطار المبهمة .

قالت جو ، وهى تضغط بيدها على الزهور حتى كادت تفسدها :

— نعم يا سيدى .

قال :

— أريد أن أبتاع ثوباً للصغيرة « تينا » ، لأنى أجهل الناس بهذه الأمور ، وأخاف أن أشتريه وحدى .

قالت ، وقد نزل كلامه على قلبها بارداً كالثلج :

— نعم ، يا سيدى .

قال :

— ونشترى أيضاً شالا لأم تينا ، فهى فقيرة ومريضة وزوجها منقل

بالهموم .

وسكت قليلاً ، ثم قال :

— نعم شال سميك خير ما تهدى به هذه السيدة المريضة .

قالت چو :

— بكل سروريا مستر باير .

وقالت تحدث نفسها :

— إني أتعجل الأمور والمسكين يزداد في كل لحظة رقةً ولطفاً .

وهزت رأسها كأنها تطرد الأفكار عنها ، ثم دخلت المحل بنشاط ،

لتشتري حاجات مستر باير . وترك الرجل الأمر كله لها ، فاختارت ثوباً

جميلاً لتينا ، ثم طلبت الشيلان ، وكان البائع رجلاً متزوجاً ، فتلطف بمن

ظنهما زوجين جاءا لشراء لوازم الأسرة . قال البائع وهو ينشر شالاً

رمادى اللون على كتف چو :

— أعتقد أن سيدتى تفضل هذا ، فهو نوع ممتاز وصنعه دقيق

ولونه أنيق .

وكانت فرصة تخفى بها انفعالها ، فقالت وهي تولى ظهرها لمستر باير ،

حتى يرى الشال جيداً :

— أيرضيك هذا يا مستر باير ؟

وتشاغلت بالتقليب في البضائع ، فقال :

— إنه ممتاز جداً ، فلنأخذه .

وقال بعد أن دفع الثمن :

— هل نذهب الآن إلى البيت ؟

قالت في صوت حزين :

— نعم ، فالوقت متأخر وأنا متعبة جداً .  
 وخيل إليها أن الشمس غابت فجأة ، واكتست الدنيا بكآبة الغسق ،  
 وبدأت الأرض موحلة والتعاسة شاملة . وسرت البرودة في قدميها لأول مرة ،  
 وأصاب الصداع رأسها ، وتجمد قلبها كقطعة ثلجها الألم .  
 إن مستر باير راحل عنها ، وهو لا يعتبرها أكثر من صديقة ، وقد  
 أخطأت تقدير شعوره نحوها ، وخابت آمالها ، فخير لها أن تنهى الأمور  
 بسرعة ، وتخرج نفسها من ظلام الأوهام .  
 جالت هذه الحواطر برأسها حين اقتربت منهما مركبة عامة ،  
 فأسرعت نحو تشير إليها بالوقوف في عجلة أطارت الباقية من يدها ، فوقعت  
 الزهور على الأرض وانحلت رباطها وفسدت أوراقها . وأشار الأستاذ إلى  
 المركبة بمواصلة سيرها ، ثم انحنى على الأرض يجمع الزهور المتناثرة ،  
 وقال :

— هذه السيارة لا تمر بجليكم .

قالت ، وهي تسبل عينيها لتخفي دموعها المتساقطة ، إذ كانت تفضل  
 الموت على أن تمسح عبراتها علناً :

— متأسفة ! لم أتبين رقمها بوضوح ، ولا يضيرني أن أمشي ، فأنا  
 معتادة على خوض الوحول .

وأدارت رأسها رنجماً عنها ، فقد رأى مستر باير العبرات المنهمرة على  
 خديها ، فس حزنها شغاف قلبه . قال يسألها فجأة في عطف أثر في

نفسها أشد التأثير :

— لماذا تبكين ، يا أعز الناس ؟

ولو كان لچو سابق خبرة بهذه المواقف ، ما استعصى عليها أن تنكر بكاءها ، وتدعى أن البرد يوجع رأسها ، أو تختلق عذراً آخر مناسباً ، ولكنها لم تفعل أمراً من هذا ، إنما قالت وهي تنسج :

— لأنك سترحل عني !

صاح مستر باير ، وهو يضم ذراعيه رغم ما يحمله من مظلة ولفائف :  
— يا إلهي ! هذا عظيم ! ليس عندي يا چو ما أهديكه سوى حبي ،  
لقد جئت لأرى إن كنت تهتمين بأمرى ، وانتظرت لأتأكد من أنك  
تعتبريني أكثر من صديق ، فهل أنا كذلك ؟ وهل في مقدورك أن  
تفسح من قلبك ولو مكاناً صغيراً لفريتز العجوز ؟

قالت چو :

— نعم !

وأسعده ردها القصير ، وأرضاه أنها عقدت يديها حول ذراعه ،  
ورفعت إليه وجهاً يفيض بالثقة والهناء ، كأنها تشير بذلك إلى عزمها  
على السير بجانبه دائماً في طريق الحياة ، وأن مظلتها خير مأوى لها مادام  
ممسكاً بها .

كانت خطبة تكتنفها المتاعب حقاً : فلم يكن في مقدور مستر باير  
أن يركع أمامها في الوحول ، ولا كان يستطيع أن يحتضنها إلا مجازاً ،

بسبب ما يحمله في كلتا يديه من مظلة ولفائف . كذلك لم يكن من اللائق أن يطارحها الغرام على قارعة الطريق ، وإن كان على وشك أن يفعل ذلك . . ولم يبق أمامه إلا حل واحد يعبر به عن نشوته ، وهو أن ينظر إليها بكل ما في قلبه من حب وإخلاص ، اكتسى معهما وجهه بزهوة الانتصار ، حتى خيل لمن ينظر إليه ، أن ألوان قوس قزح كلها ، تظهر خلال قطرات المطر العالقة فوق لحيته . ولو لم يكن يجبها مخلصاً ، ما خطبها في هذه اللحظة بالذات ، فقد كان حالها يرثى له : ثيابها رثة ، وحذاؤها موحل حتى كعبيه ، وقبعتها مشوشة مشوهة . ولكن مستر باير ، لحسن الحظ ، كان يراها أجمل امرأة في الوجود ، وكانت هي أيضاً تراه أقرب إلى الآلهة منه في أى وقت مضى على الرغم من قبعته المتقلصة بمياه الأمطار ، وقفازه الممزق عند أطراف أصابعه كلها .

وظن المارة أنهما زوجان من المجانين ، فقد نسيا تماماً أمر المركبات العامة واختارا أن يسيرا في الطريق متمهلين ، رغم حلقة الغسق وشدة الضباب . وفي الواقع كان رأى الناس لا يهمهما في غمرة سعادتهما بهذه الساعة المحبذة التي لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة . تلك الساعة التي تخلع على المسنين شباباً ، والدميمين جمالاً ، والفقراء ثروة ، وتضيء القلوب البشرية بنور من السماء .

وكان الأستاذ يبدو كأنه غزا الدنيا يأكملها ، وحصل على نعم العالم بأسرها . وكانت چو تسير بجانبه كأنه مكانها الوحيد في الحياة ، وراحت

تسائل نفسها : كيف كان يمكنها أن تختار زوجاً غيره ! وكانت بطبيعة الحال هي البادئة بالحديث ، بعد الانفعالات الصامتة ، التي تلت موافقتها على الزواج منه ، قالت :

— فريدريك ، لماذا لم . . ؟

فصاح الأستاذ ، وقد وقف وسط بركة من مياه الأمطار ، يرمقها سعيداً :

— يا إلهي ! إنها تناديني بالاسم الذي لم أسمعه من أحد منذ ماتت أمي .  
قالت :

— إنى أناديك بهذا الاسم دائماً بيني وبين نفسي ، ولقد انزلق به لساني ، ولن أعيده إذا لم تكن تحبه .  
قال :

— أحبه ! ؟ إنه أحلى ما يتردد في أذني ، خاطبيني بلا كلفة ، وثقني أنني أحب لغتك مثل لغتي الألمانية تماماً .  
قالت :

— إنك تحب الكلمات العاطفية . أليس كذلك ؟

قال في لهجة أقرب إلى الطالب العاشق منها إلى الأستاذ الرزين :

— العاطفية ؟ بلا شك ! فنحن الألمان نؤمن بالعاطفة ، لأنها تبعث فينا الشباب الدائم . خاطبيني بلغة العاطفة يا أعز المخلوقات ، فعانيها أعظم من أن تقدر .

سألته چو فی خجل :

— حسناً ، لماذا لم تخبرني بكل هذا منذ وقت طويل ؟

قال :

— ليس أحب إلى من أن أكشف لك عن كل ما في قلبي ، بعد أن أصبح ملكك . انظري يا چو العزيزة . . . وباله من اسم لطيف حبيب كنت أريد مصارحتك بعواطفى يوم رحيلك من نيويورك ، ولكنى خفت أن تكونى مخطوبة لصديقك الوسيم ، فسكت عن الكلام . . . أكنت توافقين لو خطبتك فى ذلك اليوم ؟

قالت :

— لست أدرى ، وأعتقد أنى كنت أرفض ، إذ لم يكن لى قلب

حين ذاك .

قال :

— بل كان قلبك نائماً حتى أتى أمير أحلامك من غياهب الغابة فأيقظه ! حسناً . . . حسناً . . . ما الحب إلا للحبيب الأول ! . . . وهذا أكثر مما كنت أنتظر .

قالت چو تصحح له الأوضاع :

— نعم ، ما الحب إلا للحبيب الأول ، واطمئن لى أنى لم أحب

سواك ، أما تىدى فكان صبيئاً صغيراً ، ولم يلبث أن نسى غرامه بى .

قال :

— يسعدنى غاية السعادة أن أسمع هذا الكلام الجميل ، ولست أشك  
فى أنك ستمنحني حبك كله . لقد طال الانتظار بى ، حتى صرت  
أنا أيضاً كما ترين يا أستاذتى .

صاحت چو مبتهجة باللعب الحديد :  
— ما أحب ذلك إلى نفسى .

ثم أردفت تسأله :

— لماذا جئت وأنا فى ميسس الحاجة إليك ؟

وأخرج مستر باير من جيبه ورقة صغيرة بالية ، وقال :  
— هذا ما أتى بى إليك .

وعرفت چو فى الورقة قصيدة كانت إحدى المحلات قد نشرتها لها  
فى يوم من الأيام ، ثم قالت فى حيرة مما يقصد :  
— وكيف جاءت بك هذه القصيدة ؟

قال :

— عثرت عليها بطريق المصادفة ، وعرفتها من الأسماء والحروف  
الأولى التى وقعت بها ، وكان فيها بيت واحد شعرت أنه دعوة توجيهها  
إلىّ ، فافترت القصيدة ، وحاولت أن تخرجى البيت إن استطعت .  
ومرت چو بسرعة على أبيات قصيدتها ، التى جاء فيها :

« بين ثنايا الخلفات »

« أربعة صناديق صغيرة ، كلها فى صف واحد »

أبلاها الزمن وعلاها الغبار  
 صنعت وملئت من وقت بعيد  
 عبأها شباب اليوم ، عندما كانوا صغاراً  
 تدلت مفاتيحها الأربعة جنباً إلى جنب  
 في أشرطة يهيج ، أحال لونها الزمن  
 ربطتها أصابع الصغار في زهو الطفولة  
 ذات يوم مطير في العهد الخالي ،  
 وعلى كل غطاء اسم من أربعة  
 حفرته يد بريئة طاهرة .  
 وتحت الغطاء سجل خفي  
 يضم تاريخ « شلة » سعيدة  
 كم لعبت هنا ، وكم وقفت في هدوء  
 تصغى لترديد نغم جميل  
 يأتي حيناً ويعود حيناً  
 مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى أول صندوق اسم الحميلة ميج  
 فنظرت بحب إلى رباط الذكريات  
 وهو يضمها في حنان

وقد عقدته بعنايتها المعهودة .  
 وكان سجلاً لحياة هادئة  
 فيه هدايا الطفلة والفتاة  
 لعروس في ليلة الزفاف ،  
 وحذاء صغير وخصلة شقراء .  
 وخلال الصندوق من لعب الصغار  
 فقد أخذتها بعد طول الزمن  
 لتتعمم بها مبيج أخرى صغيرة  
 وتُحيتها من زوايا العدم .  
 أنا أعلم أيتها الأم السعيدة  
 أنك ما زلت ترددين نغم الطفولة  
 يعلو حيناً وينخفض حيناً  
 مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى ثاني الصناديق اسم چو  
 وفيه ترقد مجموعة عجيبة :  
 عرائس بلا رعوس ، وكتب موزقة ،  
 وطيور محنطة ، وأحياء قدممة ،  
 وتحف جاءت من أرض الخيال

المحرمة إلا على أقدام الشباب .  
 مجموعة خلعت من أحلام الزواج ،  
 وتصمنت ذكريات كلها عاطرة ،  
 قصائد لم تتم ، وقصص عابرة ،  
 ورسائل في الربيع دافئة وباردة ،  
 ويوميات طفلة كلها عزم وأمل ،  
 وأفكار امرأة تعيش في بيت وحيد  
 وتسمع أنغاماً حزينة تقول :  
 كوني خليقة بالحب ، يأتيك الحب  
 مع مطر الصيف المنهمر .

عزيزتي بث ، لن يبقى غبار  
 على الغطاء الذي يحمل اسمك  
 ستمسحه دموع تنساب من العيون  
 وتزيله أيد لن تنقطع عن زيارته .  
 لقد رسم الموت لنا قديسة مخلدة ،  
 أقرب إلى الآلهة منها إلى البشر ،  
 وما زلنا نحفظ لها — وعيوننا دامعة —  
 أجمل الذكري في هذا البيت الصغير :

جرس فضى لم يعد يدق  
 وعباءة صغيرة هي آخر ما ارتدت ،  
 وأغان كانت تنشدها بلا دموع  
 وهي حبيسة في سجن الألم .  
 ستظل أغانيها هذه تمتزج بحنان  
 مع مطر الصيف المهمر .

وعلى صفحة الغطاء الأخير وجدتُ  
 خرافة جميلة تحققت :  
 فارس رشيق على درعه نقش  
 اسم آى بحروف زرقاء ومذهبة .  
 وفي داخل الصندوق شبكات رقيقة للشعور  
 وخُف بلته الأقدام الراقصة ،  
 وأزهار مجففة حفظت بعناية ،  
 ومراوح ذهب عهدتها انتهى .  
 وتمنيات تفيض بلهب الجوى ،  
 وتحف صغيرة كان لها دورها  
 في آمال الفتاة ومخاوفها وأخطائها .  
 سجل حافل لقلب عذراء ،

تتعلم الآن حكمة أعمق ،  
وتسمع ترديد أنغام شجوية  
يصاحبها رنين أجراس الزفاف  
مع مطر الصيف المنهمر .

أربعة صناديق صغيرة ، مصفوفة معاً ،  
علاها الغبار ، وأبلاها الزمن ،  
وأربع نساء تعلمن من السعد والألم  
ما الحب ، وما العمل في شرح الشباب .  
أربع أخوات افترقن لحظة ،  
وعدن إلى الاجتماع ما عدا واحدة ،  
خلدها الحب برباطه السحري  
وقربها إلى القلوب عما مضى .  
ويوم تتكشف كنوزنا هذه  
لعين الإله عز وجل ،  
عساها تغنيننا بخير الجزاء ،  
وتحيل أعمالنا حسنات طيبات ،  
فتدق موسيقى نفرسنا إلى الأبد  
بقوة تحرك أعماق الروح  
وتخلق سعيدة وهي تغنى

تحت شمس تخلص بعد المطر »

ج ٢٠٠

قالت چو ، وهي تمزق الوريقة التي احتفظ بها الأستاذ طول هذا الوقت :

— هذا شعر رديء جداً ، ولكنه كان يعبر عن مشاعري ذات يوم وكنت وحيدة أجلس فوق حقيبة قدمه أقرضه وأنا أبكي أحرّ البكاء ، وما كنت أتوقع أن يفضحني بهذا الشكل .

قال مستر باير باسمًا ، وهو يرقب تطاير الأوراق الممزقة مع الهواء :  
— لقد أدت القصيدة رسالتها ، فدعها تذهب ، وسأحصل على أخرى جديدة ، عندما أقرأ الكتاب الأسمر الذي تحتفظين فيه بأسرارك .  
قلت لنفسى ، وأنا أقرأ هذه القصيدة : إنها وحيدة وحزينة ، وعزاؤها فى حب صادق ، وبقلي منه ذخيرة وفيرة ، فالماذا لا أذهب وأقول لها :  
« إذا لم يكن هذا القلب بدلاً تافهاً لما أرجو أن أناله ، فخذيه بالله عليك » .  
وهمست چو :

— وهكذا جئت لتجد أنه أثنى ما كنت أتمناه .

فصاح مستر باير قائلاً :

— لم أكن أجرو على هذا الظن فى البداية ، رغم ما استقبلتنى به من عطف وحفاوة ، ولكن سرعان ما انبعث الأمل فى نفسى ، فانتويت أن

أفوز بك ، ولومت في سبيل ذلك . وهكذا فزت بك !  
 وكان يتكلم في تحدّ ، كأنما الضباب الذى يحيط بهما حواجز عاتية ،  
 إما أن يجتازها أو يهدمها .

واغتبطت چو كل الاغتباط ، وصممت أن تكون خليقة بفارسها ،  
 رغم أنه لم يأتها على جواده وفي كامل عدته .

سألته بعد لحظة ، وهى تجد لذة بسؤاله عنها : لتلقى إجابات ترضيها :  
 — ولماذا أطلت غيبتك عنى ؟

قال :

— كان رزقى ضعيفاً ، ولم يطاوعنى قلبى على حرمانك من بيتك  
 السعيد ، قبل أن تطمئن نفسى إلى عمل مضمون ، ولم يتيسر لى هذا العمل  
 إلا بعد وقت وجهاد . فهل كنت تتوقعين أن أطاب منك التضحية بما  
 تعيشين فيه من رغد من أجل عجوز فقير مثلى ، لا يملك غير علمه القليل؟  
 قالت چو فى عزم :

— إنى سعيدة بفقرك ، وما كان يمكننى أن أحتمل زوجاً ثرياً .

ثم قالت بصوت ناعم رقيق :

— لا تخف من الفقر ، فقد عرفته طويلاً ، حتى بت لا أخشاه ،  
 ويسعدنى أن أشتغل من أجل من أحب . لست عجوزاً كما تقول ،  
 فالأربوعون زهرة العمر ، ولو كنت فى السبعين ما استطعت إلا أن أحبك !

واغرورقت عيناه بالدموع تأثراً . وود لو استطاعت يده أن تصل إلى  
المنديل ، ليمسح عبراته . ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا ، فلدت جو يدها  
بمنديلها وجففت وجنتيه . ثم حملت عنه بعض اللفافات . وقالت  
ضاحكة :

— قد أكون عنيدة صلبة الرأي ، ولكنى أحسن القيام بدور المرأة ،  
فرسالتها الأولى أن تجفف الدموع وتحمل الأعباء : وهأنذا أحمل نصيبي  
من الواجبين ، وسأحمل نصيبي أيضاً من أعباء الأسرة ، وأعمل لأسهم في  
رزق البيت . فكر في هذا الكلام واتخذ قراراً ، وإلا فلن أذهب معك أبداً .  
وكان الحزم واضحاً في كلماتها ، فقال وهو يستردّ منها اللفائف :

— سوف نرى ! ولكن أنتصبرين على انتظاري طويلاً يا جو ؟ يجب  
أن أذهب أولاً لأؤدي عملي وحدي ، وأساعد الأولاد ، فقد وعدت أمهم  
برعايتهم ، ولا أستطيع التخلي عنهم ولو من أجلك ، فهل تغفرين لي ذلك  
وتقبين سعيدة حتى أعود ؟  
قالت :

— هذا أسهل ما يكون ، وما دمنا نتبادل الحب ، فكل صعب  
يهون . هذا إلى أنى ملزمة بأداء بعض الواجبات ، ولن تطيب لي حياة إذا  
أهملتها ، ولن أهملها حتى من أجلك ، فلا داعي إذاً للتسرع . اذهب إلى  
واجبك في الغرب ، وسأبقى مع واجبي هنا . وعلينا أن نسعد بالأمل ،  
تاركين المستقبل لإرادة الله .

صاح الأستاذ ، وقد غلبته عواطفه :  
 — إنك تمنحيني الأمل والشجاعة ، وليس عندي ما أجزاك به سوى  
 يدي الفارغتين وقلبي المقعم بحبك .  
 ولم يكن من طبع چو أن تنصرف بلباقة ، فما إن انتهى الأستاذ من  
 كلامه ، وهما واقفان على درج البيت ، حتى وضعت يديها في يديه ،  
 وهمست في أذنه برقة :



— لم تعد يداك فارغتين الآن !  
 ثم انحنت على رجلها فردريك تقبله تحت المظلة . وكان هذا تصرفاً  
 لا يليق ، ولكنها كانت قد سارت شوطاً بعيداً ، ولم يعد يهمها سوى

سعادتها الحاضرة ، وما كانت لتنزل عن الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة ، حتى لو تحولت صفوف العصافير التي تراقص فوق السور إلى آدميين .  
والحق أن هذه الفرصة السعيدة ، التي توجت حياتها ، جاءت في بساطة وسهولة ، فتحولت وحشة الليل وقسوة العاصفة ومرارة الوحدة ، إلى نور وضياء ، يغمر البيت الذي كان في انتظارهما .

قالت جو لحبيها ، وهي تقوده إلى داخل المنزل ، وتغلق الباب خلفه :

— أهلا بك ، وعلى الرحب في بيتك .



## الفصل السابع والأربعون

### الحصاد

مضت سنة كاملة ، كان الأستاذ وچو خلالها يعملان ويتظران ، يتحaban ويأملان ، يتقابلان بين حين وآخر، ويكتبان رسائل مستفيضة قال عنها لورى إنها تسببت في ارتفاع ثمن الورق. وبدأ العام الثاني في جو من الحزن ، فمشروعاتها لم تزدهر ، وماتت العمدة مارش فجأة ، وقد حزن عليها جميع أفراد الأسرة ، رغم سلاطة لسانها ، فلما هدأت أحزانهم ، جددت عليهم أمور سارة ، إذ تركت العمدة قصر « بلومفيد » لحو ،

فجاءت هبتها نعمة تمكن الفتاة الفقيرة من الاستمتاع بكثير من المسرّات .  
وبعد مضي أسابيع ، جلس أفراد الأسرة يتحدثون في هذا الموضوع  
ذات يوم ، فقال لورى :

— إنه بيت قديم جميل ، ولا شك أنك ستبغينه بمبلغ محترم .

قالت چو بحزم :

— لا ، لن أبيعهُ .

قال :

— لا أظنك ستقيمين فيه ؟

قالت :

— بل سأقيم فيه .

قال :

— ولكنه بيت كبير جداً يا فتاتي العزيزة ، ولا بد من مال كثير

للعناية به . فالمزرعة والحديقة يحتاجان وحدهما إلى رجلين أو ثلاثة .  
والزراعة ليست من اختصاص باير كما أعلم .

قالت :

— سيتدرب عليها إذا أردت .

قال :

— أو تأملين أن تعيشي من دخل هذا المكان ؟ حديثك عنه يجعلني

أتصوره جنة ، ولكنك ستجدين العمل بالغ المشقة . .

قالت وهي تضحك :

— وسيكون محصوله مجزياً .

سألها :

— ومن أين يأتي هذا المحصول المجزى ؟

قالت :

— من الأولاد ! فأنا أفكر في فتح مدرسة للصغار ، تشبه في روحها البيت ، وتتوافر فيها أسباب الراحة والسعادة ، وأسأرف عليها ، وأترك مهمة التدريس لفرترز .

وتوجه لورى بجديته إلى الأسرة ، وقال يناشدهم الرأي ، وتكلم في دهشة عظيمة :

— أهذا مشروعك يا چو ؟ إن له طابع چو من كل الوجوه !

فقالت مسر مارش بلهجة التأكيد :

— هذا مشروع يعجبني .

وقال مسر مارش ، وقد وجدها فرصة ليجرب طريقته « السقراطية »

في تعليم الشيء :

— وأنا أيضاً .

وقالت ميج ، وهي تربت بيدها على رأس ابنها المشغول بنفسه دائماً :

— ولكن . . . سيكون العبء ثقيلاً على چو !

وقال مسر لورنس ، وببنفسه رغبة في معونة الحبيبين ، وإن كان

يخشي رفضهما . :

— ليس أكفاً من چو لهذا العمل ، وسوف تزديه سعيدة راضية . .  
إنها فكرة عظيمة ، فحدثينا بتفاصيلها .

قالت چو :

— كنت واثقة من تأييدك ياسيدي أنت وآمي ، فإني أرى الرضا في  
عينها ، رغم ما يبدو عليها من رغبة في التروى قبل الكلام . ثقوا أيها الأعداء  
أن هذه الفكرة ليست جديدة على ، فطالما فكرت فيها ، وتمنيت تحقيقها .  
كنت أرجو — قبل أن يأتي فريتز ، ويوم يستغنى البيت عن خدماتي —  
أن أقتصد ما يكفي لاستئجار بيت كبير أجمع فيه صغار اليتامى ، الذين  
يعيشون في أحضان الوحدة والإهمال ، ثم أعنى بهم وأسعد حياتهم  
قبل فوات الأوان ، لقد رأيت كثيرين يحيق بهم الدمار ، لأن أحداً لم  
يساعدهم في الوقت المناسب ، ولأمثال هؤلاء أحب أن أفعل شيئاً . إنني  
أحس بإحساساتهم ، وأعطف على متاعبهم وآلامهم ، وبودى أن  
أكون أمماً لهم .

ومدت مسز مارش يدها إلى چو ، فأمسكتها باسمة ، والدموع  
تترقق في عينها ، فضمت الفتاة في حديتها تقول بحماسة لم تبد منها منذ  
زمن طويل :

— وقد حدثت فريتز عن مشروعى هذا ، فأكد أنه أقصى ما يتمناه ،  
واتفق معى على تنفيذه عندما نصبح أثرياء . . ليبارك الله نفسه الطاهرة !

فهذا ما كان يفعله طول حياته ، أقصد مساعدة الفقراء ، لا السعى إلى الثراء ، لأنه لن يكون في يوم من الأيام غنيا ، فما من مال يبقى في جيبه ليدخره . أما الآن ، فقد صرت غنية بفضل عمى الطيبة التي أحببني أكثر مما أستحق ، أو هذا ما أشعر به على الأقل . وإذا وفقت في إنشاء مدرسة كان في الإمكان أن نعيش على خير حال في « بلومفياد » - والواقع أنه خير مكان يلائم الأطفال : فآثاته بسيط متين ، وبداخله متسع لكثيرين ، وفي خارجه حديقة فسيحة يستطيع الأولاد - خلال أوقات فراغهم - أن يعملوا فيها ، فيساعدونا ، وهو مجهود يفيدهم صحياً ، أليس كذلك يا سيدى؟ أما التدريس ، ففريتز خير من يقوم به ، وربما عاونه أبى في ذلك ، وسأقوم أنا بدور الأم التي تعني بأولادها عن كذب . طالما اشتقت أن يكون لى عدد كبير من الأولاد ولم يكن هناك سبيل إلى ذلك ، ولكنى أستطيع الآن أن أملاً البيت بهم ، وأطرب قلبي بإعزازهم . ألا ما أسعدنى بما أتانى من ترف ! قصر كبير أملكه ، وجيش من الأولاد أراعاه !

ولوحت چو بيديها سروراً ، وتنهلت في نشوة وارتياح ، وانفجرت الأسرة في عاصفة من الضحك ، اشترك فيها مستر لورنس حتى كاد يغمى عليه ، وحين هدأت العاصفة قالت چو في وقار :

- ماذا يضحك في هذا الموضوع ؟ ليس أليق بأستاذى من أن يفتح مدرسة ، ولا بى من أن أقم في مزرعى الخاصة !

قال لورى وهو يعتبر المشروع كله مزحة لطيفة :

— لقد بدأت تنفخ أوداجها عظيمة وتكبراً ! ولكن ، من أين تمويل هذه المؤسسة ! إذا كنت ستختارين تلاميذك من اليتامى الصعاليك ، فلن يكون محصولك المالى مربحاً يا مسز باير !

قالت :

— لا تثبط عزيمتى يا تيدى ! سأبدأ طبعاً بأولاد الأثرياء ، وعندما تستقيم أمور المدرسة أضم إليها صلوكاً أو اثنين لأسعد نفسى بوجودهم . إن أولاد الموسرين كأولاد الفقراء يحتاجون إلى العناية والراحة ، ولقد رأيت كثيرين من أبناء الأثرياء يركون للخدم ، ورأيت غيرهم ممن تخلفوا فى إدراكهم الذهنى ، يدفعهم أهلهم إلى الأمام فى قسوة . منهم أيضاً من فقدوا أمهاتهم ، أو أهملت تربيتهم فاعوج سلوكهم . هذا إلى ما يحتاج إليه الأطفال جميعاً من صبر وحنان خلال المرحلة الأولى من عمرهم ، فمن عادة الناس أن يسخفوا الأطفال فى هذه المرحلة ، ويضيقوا بتصرفاتهم ، فيخفونهم عن العيون ، تاركين للزمن مهمة تحويلهم إلى رجال نافعين . ويحمل الأطفال البواسل متاعبهم هذه صامتين لا يشكون ، وأنا أقدر متاعبهم حق قدرها ، لأننى مررت بها ، ولذلك يهمنى أن أعنى بهم عناية خاصة ، وأحب أن أكشف لهم عن إحساسى بما تنطوى عليه صدورهم من قلوب دافئة أمينة مخلصة ، على الرغم من أجسامهم غير المتناسقة وأفكارهم المشوشة . ثم إن لى سابق مجهود فى هذا الميدان ، ألم أنشئ صبيّاً أصبح

اليوم فخر أسرته وموضع اعتزازها ؟  
قال لورى شاكراً مقدراً الجميل :  
- أشهد أنك حاولت ذلك .

قالت :

- ونجحت نجاحاً يفوق ما كنت أتوقع ، فهأنذا رجل أعمال  
ماهر ، تؤدي أعمالاً نافعة كثيرة ، فتنهال عليك الدعوات الصالحات بدل  
الدولارات ، ثم إنك لست رجل أعمال فحسب ، إنما أنت محسن أيضاً ،  
تحب أن تفعل الخير ، وتستمتع بلذة إشراك غيرك في نعمك ، شأنك معنا  
فيما مضى . إني فخورة بك ياتيدى ، ويسعدنى أن أراك تزداد مع السنين  
كرماً وطيبة ، وكلنا يشعر بذلك ، وإن كنت تكره أن نعرف لك به .  
وسكنت لحظة ثم عادت تقول :

- نعم ، عندما أجمع قطيعى الصغير ، سأشير إليك وأقول لهم :  
هذا مثلكم الأعلى فاحتذوه أيها الصغار !

واحتار لورى أين يدير وجهه ، فرغم رجولته الناضجة . طغى عليه  
الحجل أمام ثناها الجزيل . وأمام نظرات الرضا التى أحاطه بها الموجودون ،  
قال بلهجة الصبيان القديمة :

- هذا كثير جداً يا چو ! فلقد فعلتم من أجلى أكثر مما أستطيع  
أن أشكركم عليه ، وعهدى لكم أن أبذل جهدى فى الاحتفاظ بتقديركم .  
لن أخيب ظنكم فى ، وإذا كنت قد نبذتنى أخيراً يا چو ، فقد شاء الله

أن يعرضني بخير المعونة والتوجيه ، فاشكرى لهذين العزيزين فضلهما العميم على .

ووضع لورى إحدى يديه على رأس جده الأشيب ، ووضع الأخرى على شعر آمي الذهبي .

قالت چو فى انشراح عظيم :

— الأسرة أجمل ما فى الدنيا كلها ، وأملى أن تسعد أسرتى — يوم يكون لى واحدة — سعادة هؤلاء الأصدقاء الأعزاء الثلاثة . . والله لولا غياب جون وفريتز لأصبحت جلستنا هذه جنة على الأرض .

وحين أوت چو إلى مخدعها فى تنك الليلة ، بعد الجلسة العائلية العامة بأغلى النصائح والآمال والمشروعات ، وجدت قلبها يفيض بالغبطة والسعادة ، فعملت على تهدئته بالركوع إلى جانب الفراش الخالى ، الذى كانت بث تحتله فى يوم من الأيام ، وراحت تفكر فى الراحة العزيزة ، تستعيد أرق ذكرياتها وأجملها .

كانت تلك السنة ، على العموم ، فريدة فى تطور أحداثها السعيدة ، فقبل أن يمضى وقت طويل ، وجدت چو نفسها تعيش مع زوجها مستقرة فى قصر « بلومفيلد » ، ومعها أسرة مكونة من ستة أو سبعة أولاد ، سرعان ما زاد عددهم من بين الأغنياء والفقراء على السواء . وكان الفضل كل الفضل فى ذلك لمستر لورنس الذى دأب على تغذية المدرسة بأولاد الفقراء ، راجياً من آل باير أن يحيطوهم بالرعاية ، وكان يدفع نفقاتهم

بسخاء ، وبهذه الوسيلة الماهرة ، استطاع السيد العجوز أن يعين جو بدون أن يخذش كبرياءها .

وكان العمل في المدرسة شاقاً أول الأمر ، ولم تبرأ جو من الوقوع في أخطاء عجيبة . ولكن حكمة الأستاذ كانت تقودها دائماً إلى شاطئ الأمان ، فتأتى لها أن تروض أشد الأولاد مروفاً وشراسة . وكم استمتعت جو بهذا الجيش البرى من الأولاد ! وكم فكرت في ثورة العمة مارش ، لو كان العمر قد امتد بها ، لترى الأقدام الصغيرة الشاردة تدوس أراضيها المقدسة . ولعلها عدالة جميلة أراد الله بها الانتقام للأطفال الذين كانت العمة تخيفهم بما تنشره من رعب حول قصرها الكبير ، فقد فتحت لهم جو أبواب الأرض المحرمة على سعتها ، وتركتهم يمرحون فيها ما شاءوا ، بل حولت لهم أيضاً مرعى البقرة الشرسة إلى ملعب جميل للكريكيت . وهكذا أصبح المكان جنة للأولاد ، وكان والحق يقال ، جنة بمعنى الكلمة حتى إن لورى اقترح تسمية القصر « حدائق باير » تكريماً للأستاذ الطيب الذى يشرف عليه .

ولم تكن المدرسة كغيرها من المدارس الحديثة ، ولم يكسب الأستاذ من ورائها ثروة ولا مالا ؛ ولكنها كانت كما أرادت جو تماماً : مكاناً مؤنساً سعيداً يجد الأطفال فيه حاجتهم من العلم والرعاية والحنان . وسرعان ما امتلأت غرف البيت كلها باللاميد الجدد ، ووجد كل ركن في الحديقة من يزرعه ، وشغل المخزن والحظيرة بالحيوانات الأليفة . وكانت

چو تبسم لرجلها فريتز ثلاث مرات في اليوم ، وهي تتصدر المائدة الطويلة ، التي يزين جانبها صفان من الأولاد السعداء ، الذين يتجهون إلى الأم « باير » بقلوب تفيض ثقة وعرفانا بالجميل . لقد أصبح لديها الآن كفايتها من الأولاد ، ولكنها لم تملّ منهم أو تتعب ، رغم أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الملائكة ؛ فمنهم من كبدها هي والأستاذ شتي ألوان القلق والمتاعب ، ولكن إيمانها بطيب معدن الأطفال ، كان يعينها في الوقت الملائم . وما كان طفل يستطيع أن يثبت على عناده طويلاً تحت نظرات الأب باير ، التي تشع رحمة وحناناً ودفقاً كأشعة الشمس ، ولا أمام الأم باير التي تصفح عن الأخطاء سبباً وسبعين مرة ! وكانت چو تعتر بصداقة الأولاد ، وكان مما يزيدهم قرباً إلى قلبها ، دموع الاستغفار والندم ، وهمسات التوبة بعد الأخطاء ، وثقتهم البالغة بها ، وحماسهم الغالبة فيما يبنون للمستقبل من آمال ومشروعات . وكان بين تلاميذ المدرسة متخلفون وخجلون وضعاف البنية وشياطين ، كما كان بينهم من يلثغون أو يثأثون ، وكذلك أعرج أو أعرجان وزنجي مولد لا يمكن أن يقبل في مدرسة أخرى ، ولكن روضة باير رحبت به ، رغم خوف بعض الناس من أن يقضي وجوده بين البيض على سمعة المدرسة .

وعلى الرغم من العمل الشاق ، والقلق الشديد ، والضجة التي لا تنقطع عاشت چو في مدرستها هذه سعيدة إلى أقصى حد ، وكانت تحف بقصصها الشائقة صغارها المؤمنين بها ، فإذا هتفوا شكراً لها ، أحست أنها

امتلكت الدنيا كلها .

ومع مضي السنوات ، رزقت بولدين ازدادت بهما حياتها سعادة على سعادة ، وقد أسمت الأول باسم جده ، والثاني تيد . وكان هذا الأخير طفلاً لطيفاً ، يجمع بين بساطة أبيه وحيوية أمه . أما كيف أمكن أن يشب هذان الطفلان بين ضجيج الأولاد فمعجزة سرها عند جدتهما وخالاتهما ، ولكن حياتهما على كل حال تفتحت كأزهار الربيع ، تحت إشراف أولئك السيدات المحبات ، وفي رعايتهن القويمة .

وكان يتخلل الحياة في بلومفيلد عطلات طويلة ، أكثرها مرحاً عطلة موسم جنى التفاح ، إذ كان آل مارش ولورنس وبروك وباير يجتمعون في كامل هيتهم ليحتفلوا بهذا اليوم أبهج احتفال . وبعد خمس سنوات من زواج چو ، جاء يوم الحصاد في شهر أكتوبر ، وكان الهواء عليلاً منعشاً ، والأشجار محملة بأطيب الثمار ، فتدفقت الحماسة في عروق أفراد الأسرة وراحوا يرقصون في البستان ، بين أشجار الزهور المتناثرة ، وشجيرات اللبلاب المتسلقة . وشاركهم الكائنات كلها في فرحتهم : فغنى الصرصور بصوت كأنه ناي سحري ، وتسارعت السناجب إلى جمع نصيبها من المحصول وشدت العصافير بأنغامها الشجية من فوق أشجار الحور العالية . وكانت كل شجرة في الحديقة على أتم الاستعداد لإفراغ حملتها من التفاح الأحمر والذهبي عند أول هزة ، وكانت سعادة الموجودين شاملة بهذا اليوم الفريد ، فضحكوا وغنوا وتسلقوا الدوح وتساقطوا مرحاً من فوقها . وكم أكدوا أنهم لم



يستمتعوا في حياتهم بمثل هذا اليوم البهيج ، وكانوا صادقين بعد ما اغترفوا من المتع والمسرات ، كأن دنياهم خلت من الهموم والأحزان .

وكان مستر مارش يسير الهوينى مع مستر لورنس ، ويصغى إلى مقتطفات من الشعر الجميل ، والأستاذ باير يقطع الأرض الخضراء جيئة وذهاباً ، ليراقب التلاميذ في لعبهم ويوجههم ، وكأنه بقامته الطويلة فارس تيوتوفى أصيل يحمل بدل الرمح عصا . وكرس لورى نفسه لرعاية الأسرة ، فأركب ابنته الصغيرة في عربة السلال ، وحمل ديزى إلى عش العصافير لتراها ، وأنقذ روب المغامر من أن يسقط فيدقّ عنقه . وجلست مسز مارش وميج بين أكوام التفاح تفرزان أنواعه ، وانصرفت آى إلى رسم كل مجموعة من الثمار ، وكانت بين آن وآخر تلقى نظرة عامرة بالعطف والحنان على طفل شاحب ، يجلس بعيداً وقد ألقى بعكازه جانباً .

أما چوفكانت في هذا اليوم أصدق مثال للسعادة ، تجرى هنا وهناك وقد شمردت ثوبها ، وخلعت قبعتها ، واحتضنت ابنها تحت إبطها في استعداد تام لأى مغامرة يقتضيها الموقف . ولقد تمتع تيد الصغير بنصيبه من مباحج اليوم ، ومن حسن الحظ لم يحدث له حادث ، حين علقه أحد الصبيان بين أفرع شجرة ، ولا حين حمله صبي آخر على ظهره وراح يقفز به في أرجاء الحديقة ، ولا عندما أطعمه أبوه نوعاً من التفاح الحامض ، مطمئناً — على اعتقاد أهل بلاده — بقدرة الأطفال على هضم الكرب والأرزار والمسامير ، وحتى الأحذية التى يلبسونها . وتركت چو تيد الصغير

على سجيته ، واثقة بأنه سيعود إلى البيت في الوقت المناسب ، سالماً هادئاً  
 قدراً مورد الخدين ، فتستقبله كالعادة بفيض حبه الذي يشمل الأطفال  
 كلهم .

وفي الساعة الرابعة ، حلت فترة هدوء ، حين جلس جامعو التفاح  
 بجوار السلال الفارغة ، يستريحون ويتحدثون عما كوفئوا به من قروش  
 وخذوش . وقامت چو وميج مع فريق من الصبيان الكبار بإعداد الطعام  
 فوق الحشائش الخضراء ، فجاء تناول وجبة الشاي في الهواء الطلق ، خير  
 ختام لهذا اليوم البهيج . ولم تلبث الأرض أن امتلأت بالعسل واللبن ، إذ  
 كانت الحرية أهم مبدأ في دستور هذا الاحتفال ، فاستغلها الأولاد إلى  
 أبعد حد ، وجلسوا على سجيتهم يتناولون الحلوى والمرطبات . ولم يكن هناك  
 ما يمنعهم من أن يفعلوا ما يريدون ، فحاول بعضهم أن يجرب شرب اللبن  
 وهو واقف غلى رأسه ، وعمل بعضهم الآخر على الجمع بين اللعب والأكل  
 فكانت ترى أولاداً يلتمسون الشطائر وهم يقفزون ، أو ينثرون الكعك على  
 الأرض كالحبوب ، أو يصفون التفاح على فروع الأشجار كأنه طيور .  
 أما البنات الصغيرات فقد أعدت لهن وليمة خاصة ، ولكن بيتر الصغير لم  
 يشأ أن يتركهن في سلام ، فصال وجال بين المآكل ينتهب منها على هواه .  
 وعندما انتهى المجتمعون من الأكل ، وامتلأت بطونهم حتى لم يبق  
 فيها مكان لمزيد ، اقترح الأستاذ - على ما اعتادوا في مثل هذه المناسبات -  
 أن يشربوا النخب الأول في ذكرى أفضل العمة مارش رحمها الله ، وقد

شربه مع الأولاد الذين عليهم أن يحتفظوا بذكراها حية في قلوبهم .  
ثم شربوا نخب الجدة بمناسبة بلوغها الستين ، وهنقوا جميعاً بحياتها ثلاثاً :  
هذا العيد الستون للجدة . . تعيش الجدة . . تعيش . . تعيش ،  
واندمجوا في هتافاتهم بقلوبهم وأرواحهم ، حتى صعب إسكاتهم عن تحية  
السيدة الطيبة التي يخلصون لها الحب والتقدير . وتوالت الأنخاب بعد ذلك  
في صحة مستر لورنس راعي المدرسة ، وفي صحة غيره من الأصدقاء ، حتى  
الأرب الذي خرج من جحره يبحث عن صاحبه الصغير . وقدم ديمي  
— بصفته أكبر الأحفاد سنّاً — إلى جدته ، ملكة الحفلة ، مجموعة كبيرة  
من الهدايا ، احتاج الأمر إلى نقلها في عربة يد صغيرة . وكانت الهدايا  
كلها من صنع الأطفال ، فجاءت مضحكة قد تنبو عنها العين ، ولكن  
الجدة كانت تراها غير ذلك ، فقد قالت عن المنديل الذي طرزته ديزى  
بأناملها الساذجة إنه قطعة من الفن الرفيع ! وعن صندوق الأحذية الذي  
صنعه ديمي ولم ينجح في تثبيت غطائه إنه معجزة لم يرد لها مثيل ! وعن  
الكرسي الصغير الذي صنعه روب على أرجل غير متساوية إنه مريح إلى  
أبعد حد ! أما الكتاب الذي قدمته ابنة آمي ، فلم يكن فيه أثنى  
من الصفحة التي كتبت عليها بحروف كبيرة « إلى جدتي العزيزة ، من  
الصغيرة بث » .

وبينا أفراد الأسرة في شغل بهذا الاحتفال ، اختفى أولاد المدرسة  
بشكل غامض ، وعندما قامت مسز مارش تشكر أسرتها ، ولدموع تندي

عينها ، فيمسحها لها تيد الصغير بميدعته ، بدأ الأستاذ يغني فجأة ،  
 وإذا بأصوات الصبيان تعلمون فوقه ، وإذا بالغناء يصدر من شجرة بعد  
 شجرة ، حيث اختفى الأولاد بين الغصون ، وراحوا كلهم ينشدون بحماسة  
 مقطوعة وضعتها چو ، ولحنها لورى ، وتدريب الأولاد على غنائها تحت  
 إشراف الأستاذ باير . وكانت الأغنية طريفة بمعنى الكلمة ، وجاء  
 لإخراجها الناجح مفاجأة سارة لمسز مارش ، فأصرت على أن تصافح كل  
 صبي ممن اشتركوا في هذه الحفلة ، من الطويلين فرانز وإميل إلى الزنجي  
 الصغير صاحب أجمل الأصوات كلها .

وبعد هذا ، تفرق الصبيان مرة أخرى في أرجاء الحديقة يستكملون  
 لعبهم وطمههم ، تاركين مسز مارش وبناتها تحت شجرة الحفلة . قالت مسز  
 باير ، وهي تخرج لإصبع تيد الصغير من إبريق اللبن الذي كان يعبث فيه  
 مسروراً :

— لن ألعن سوء حظي ، بعد أن تحققت كل آمالي ، بهذا الشكل  
 المفرح البهيج .

قالت ، آمي وهي ترقب لورى وجون في لعبهما مع الأولاد :  
 — ومع ذلك حياتك تختلف اليوم كل الاختلاف عن الصورة التي  
 كنت ترسمينها في الماضي ، أتذكرين القصور التي كنا نبنيها في الهواء  
 والتفتت چو إلى حيث تنظر آمي ، وقالت في حنان :  
 — يا للرجال الأعزاء ! كم يسرنى أن أراهم ينسون أعمالهم ، ويقضون

يوماً في المرح واللعب ! نعم . . أذكر تلك القصور يا أمي ، وأرى الآن  
 آمالي الماضية مفرطة في الوحشة والأنانية ، ولكني ما زلت أرجو أن أولف  
 كتاباً قيماً ، ولن يضيرني الانتظار ، فوراءه من الخبرة والتجارب التي  
 أستقيها من حياتي خير كثير .

وأشارت إلى الأولاد الذين يمرحون بعيداً في نشاط ، وإلى أبيها الذي  
 يعتمد على ذراع الأستاذ وهما يسيران تحت أشعة الشمس ذهاباً وإياباً ،  
 وقد استغرقا في حديث طويل ممتع ، ثم إلى أمها وقد أحاط بها بناتها  
 وأحفادها ، وتطلعت إليها عيونهم ، كأنها تستمد العون والبركة من الشعر  
 الفضي والوجه الصبيح الذي لم تفسد حسنه الأيام .

قالت ميج في قناعة ، وهي تربت على رأس ابنتها :

— أما قصرى أنا ، فقد تحقق على وجه أقرب ما يكون إلى الأصل .  
 حقيقة أنني كنت أتوق إلى أجمل الأشياء وأفخمها ، ولكني كنت أومن  
 في قرارة نفسي بأنني سأقنع راضية ببيت صغير ، وزوج طيب ، وأطفال  
 أعزاء كهذين . ولقد فزت بآمالي ولله الحمد ، وأصبحت أسعد امرأة في  
 الوجود .

وقالت أمي :

— أما قصرى فقد جاء مختلفاً عما تخيلت ، ولكني لا أحب أن أغيره  
 لأنني مثل چولم أتخل عن آمالي الفنية نهائياً ، ولم أقطع نفسي لمساعدة  
 الآخرين على تحقيق أحلامهم ! إنما أحاول أن أجمع بين الاثنين . وقد

بدأت بالفعل في صنع تمثال لطفلي ، ويؤكد لوري أنه أجمل ما أنتجت ، وأنا أوافق على ذلك ، وفي نيتي أن أنحته من رخام ، حتى تبقى لي صورة من ابنتي مهما حدث .

وانحدرت دمعة كبيرة من عيني آمي ، وسقطت على الشعر الذهبي لطفلتها النائمة بين ذراعيها ، وكانت الطفلة العزيزة ، ضعيفة البنية واهنة القوة ، مما يعكس صفو أمها بسحابة من القلق والخوف . وكان الشعور بالقلق على الطفلة . يقرب بين الأم والأب ، فالحب الواحد ، والخوف الواحد ، يوثقان الصلة برباط أبدى .

وكانت آمي قد ازدادت نضجاً وحساسية ولطفاً ، كما صار لوري جاداً حازماً قوياً . والفضل للأيام التي علمتهما أن الجمال والشباب والثراء ، وحتى الحب نفسه ، لن يجنبهما الهموم والآلام وفقدان الأحياء ، أو كما قيل :

« في كل حياة ، لا بد أن تسقط بعض الأمطار

وتسود أيام بالحزن والوحشة » .

قالت مسز مارش ، عندما انحنت ديزي اللطيفة على ابنة خالتها ، ووضعت خدها المتورد على خدها الباهت :

— إنى أراها في تقدم صحيّ مطرد ، فلا تقنطى يا عزيزتى ، وكوني

دائماً مستبشرة متفائلة .

قالت آمي :

— لن أقنط ، يا أماه ، وأنت بجانبي ترفهين غنى ، ولورى معى  
يحمل أكثر العبء ، ولا يدعنى أحس بما يعانیه من قلق و مخاوف . إنه  
ينحى آلامه فى قلبه ، ويتفانى فى رعاية بث ، ويلقانى دائماً بوجه صبور  
بشوش ، وبذلك يبعث فى نفسى سكينه واطمئناناً . لن أوفيه حقه من  
الحب مهما فعلت ، فعلىّ أن أقول مع ميج — رغم السحابة التى تخيم على  
حياتنا — حمداً لله فأنا امرأة سعيدة .

وأردفت چو ، وهى تنقل بصرها بين زوجها الفاضل وولديها القويين  
اللذين يتقلبان بجوارها على الحشائش مسرورين :  
— لا أظننى فى حاجة إلى الكلام ، فكلكم يرى أنى أسعد مما أستحق ،  
إن فريتز يزداد سمنة ومشيباً ، وأنا أصبحت نحيلة كالظل ، وقد بلغت  
الثلاثين ولا أمل فى أن نصبح أثرياء ، ولا أستبعد أن تأكل النيران يوماً  
« بلومفيلد » ، ما دام الشيطان توى بانجز يصر على التدخين تحت ملاءة  
سريره ، وبعد أن أحرق نفسه ثلاث مرات من قبل ! ومع هذه الحقائق  
المزعجة ، فأمورى تسير على مايرام ، و« انبساطى » اليوم لم يرد له مثيل  
فى حياتى . ومعذرة إذ استعملت هذا التعبير الصبيانى فى كلامى ، فمن  
يعش مع الصبيان ، فلا بد أن يتشبه بهم أحياناً !

قالت مسز مارش وهى تطرد صرصوراً كبيراً أسود أخاف تيد الصغير :  
— نعم يا چو ، وسيكون محصولك طيباً على ما أعتقد .

وهتفت چو فى حماسها المحبوبة ، التى لم تتخل عنها رغم تقدم السن :

— ولكنّه لن يبلغ جودة محصولك على كل حال . فها نحن أولاء بين  
يديك ، وليس بمقدورنا أن نوفيك حقلك من الشكر على ما فعلت منذ  
بذرت حتى جنيت .

وقالت آوى فى حنان بالغ :

— أرجو أن يزداد القمح ويقل التبن عاماً بعد عام !

وأضافت ميج بصوتها الحنون :

— إنها سنابل ضخمة يا أماه ، ولا شك أن فى قلبك متسع لها .

وغلب التأثير مسز مارش ، وعقد العطف لسانها عن الكلام فبسطت

ذراعيها كأنها تريد أن تضم بناتها وأحفادها إلى صدرها ، قالت فى أمومة

عامرة بالتواضع والحنان :

— مهما امتد العمر بكنّ يا بناتى العزيزات ، فلن أرجو لكن أكثر

من هذه السعادة الغامرة .

رقم الإيداع	١٩٨٣ / ٤٧٦٣
التقييم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٦٢٣-٧

١ / ٨٣ / ١٧٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠٠)

obeikandi.com